البُخَلاء

تأليـف

أبو عثمان بن بحر الجاحظ

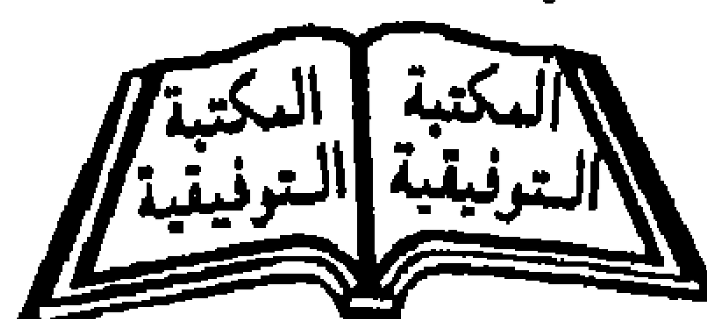
المكتبة التوفيقية
امام الباب الأخضر سيدنا الحسين
ت ٥٩٢٢٤١٠/٥٩٠٤١٧٥

إهـــــــداء ٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

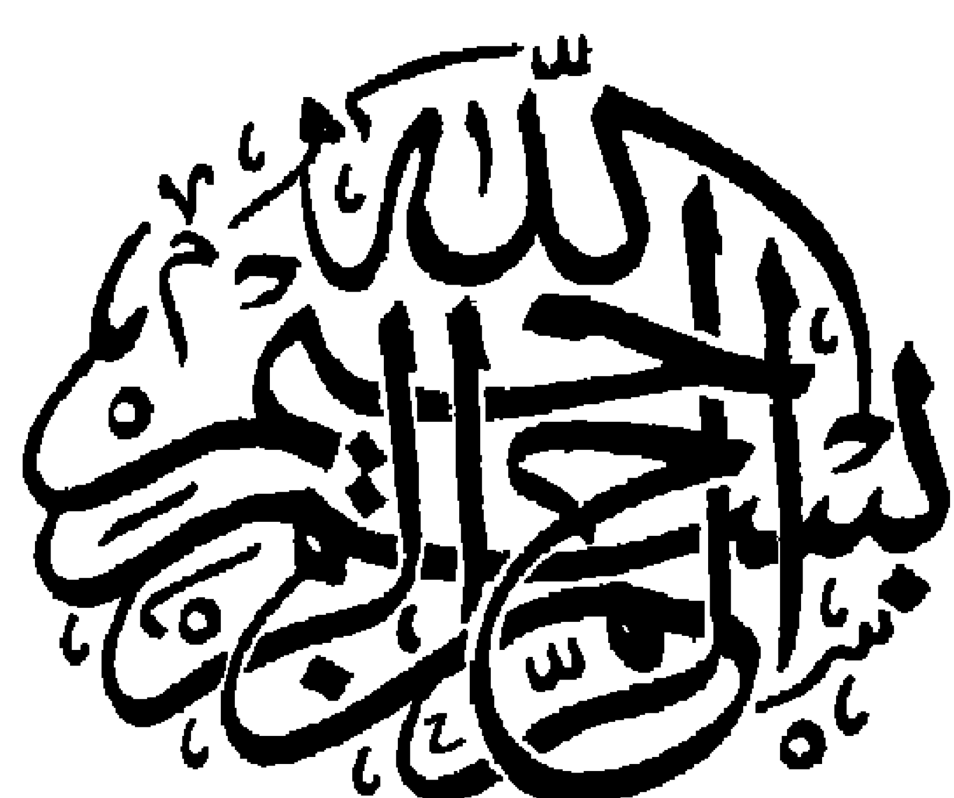
البخلاء

تأليـــف

أبو عثمان بن بحر الجاحظ



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

رب أنعمت فزد

تولاك الله بحفظه وأعانك على شكره، ووفقك لطاعته، وجعلك من الفائزين برحمته. ذكرت حفظك الله أنك قرأت كتابى فى تصنيف حيل لصوص النهار، وفى تفصيل حيل سراق الليل، وأنك سددت به كل خلل، وحصَّنت به كل عورة، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع، ونبهك عليه من غرائب الحيل، فيما عسى أن يبلغه كيد، ولا يحوزه مكر.

وذكرت أن قدر نفعه عظيم، وأن التقدم فى درسه واجب، وقلت: أذكر لى نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء، وما يجوز من ذلك فى باب الهزل، وما يجوز منه فى باب الجد، لأجعل من الجد مستراحًا، والراحة جمامًا، فإن للجد كدًّا، يمنع من معاودته، ولابد لمن التمس نفعه من مراجعته.

وذكرت مُلَح الحزامى، واحتجاج الكندى، ورسالة سهل بن هارون، وكلام ابن غزوان وخطبة الحارثى، وكل ما حضرنى من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم، ولِمَ سمُّوا البخل صلاحًا، والشح اقتصادًا، ولِمَ حاموا على المنع ونسبوه إلى الحزم، ولِمَ نصبوا للمواساة، وقرنوها بالتضييع، ولِمَ جعلوا الجود سرفًا والأثرة جهلاً، ولِمَ زهدوا فى الحمد، وقل احتفالهم فى الذم، ولِمَ استضعفوا من هش للذكر وارتاح للبذل، ولِمَ حكموا بالقوة لمن لا يميل إلى الثناء، ولا ينحرف عن هجاء، ولِمَ احتجوا لظلف العيش على لينه، ولمره على حلوه، ولِمَ لم يستحيوا من رفض الطيبات فى رحالهم، مع استهتارهم بها فى رحال غيرهم، ولِمَ تتابعوا فى البخل، ولِمَ اختاروا ما يوجب ذلك الاسم، مع أنفتهم من ذلك الاسم، ولِمَ رغبوا فى الكسب، مع زهدهم فى الإنفاق، ولِمَ عملوا فى الغنى عمل الخائف من زوال الغنى، ولم يفعلوا فى الغنى عمل الراجى لدوام الغنى، ولِمَ وفروا نصيب نصيب الخوف، وبخسوا نصيب الرجاء مع طول السلامة وشمول العافية. والمعافى أكثر من المبتلى، وليست الحوائج أقل من الفوائد.

بل كيف يدعو إلى السعادة، من خص نفسه بالشقوة، فكيف ينتحل نصيحة العامة، من بدأ بغش الخاصة، ولِمَ احتجوا مع شدة عقولهم، بما أجمعت الأمة على تقبيحه، ولم فخروا مع اتساع معرفتهم، بما أطبقوا على تهجينه، وكيف يفطن عند الاعتلال له، ويتغلغل عند الاحتجاج عنه، إلى الغايات البعيدة، والمعانى اللطيفة، ولا يفطن لظاهر قبحه، وشناعة اسمه وخمول ذكره، وسوء أثره على أهله.

وكيف، وهو الذى يجمع له بين الكد وقلة المرفق، وبين السهر وخشونة المضجع، وبين طول الاغتراب وطول قلة الانتفاع، ومع علمه بأن وارثه أعدى له من عدوه، وأنه أحق بماله من وليه.

أوليس هو أظهر الجهل والغباوة، وانتحل الغفلة والحماقة، ثم احتج بتلك المعانى الشداد، وبالألفاظ الحسان، وجودة الاختصار، وبتقريب المعنى، وبسهولة المخرج، وإصابة الموضع، فكان ما ظهر من معانيه وبيانه، مكذبًا لما ظهر من جهله ونقصانه، ولِمَ جاز أن يبصر بعقله البعيد الغامض، ويغبى عن القريب الجليل؟

وقلت: فبين لى ما الشىء الذى خبل عقولهم، وأفسد أذهانهم، وأغشى تلك الأبصار ونقض ذلك الاعتدال؟ وما الشىء الذى له عاندوا الحق، وخالفوا الأمم، وما هذا التركيب المتضاد! والمزاج المتنافى، وما هذا الغباء الشديد، الذى إلى جنبه فطنة عجيبة، وما هذا السبب الذى خفى به الجليل الواضح وأدرك به الدليل الغامض.

وقلت: وليس عجبى ممن خلع عِذاره فى البخل، وأبدى صفحته للذم، ولم يرض من القول إلا بمقارعة الخصم، ولا من الاحتجاج إلا بما رسم فى الكتب، ولا عجبى من مغلوب على عقله، مسخر لإظهار عيبه، كعجبى ممن قد فطن لبخله، وعرف إفراط شحه، وهو فى ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه، ولربما ظن أن قد فطن له وعرف ما عنده، فموه شيئًا لا يقبل التمويه، ورقع خرقًا لا يقبل الرقع، فلو أنه كما فطن لعيبه، وفطن لمن فطن لعيبه، فطن لضعفه عن علاج نفسه، وعن تقويم أخلاقه وعن استرجاع ما سلف من عاداته وعن قلبه أخلاقه المدخولة إلى أن تعود سليمة، لترك تكلف ما لا يستطيعه، ولربح الإنفاق على من يذمه، ولما وضع على نفسه الرقباء، ولا أحضر مائدته الشعراء، ولا خالط برد

الآفاق، ولا لابس الموكلين بالأخبار، ولا استراح من كد الكلفة، ودخل فى غمار الأمة.

وبعد، فمـا باله يفطن لعيوب الناس إذا أطعموه، ولا يفطن لعـيب نفسه إذا أطعمهم وإن كان عيبه مكشوفًا، وعيب من أطعمهم مستورًا!!

ولِمَ سخت نفس أحدهم بالكثير من التـبر وشحت بالقليل من الطعم، وقد علم أن الذى منع، يسير فى جنب ما بذل، وأنه لو شاء أن يحصل بالقليل مما جاد به أضعاف ما بخل به لكان ذلك عتيدًا أو يسيرًا موجودًا!!

وقلت: ولابد من أن تعـرفنى الهنات التى نمت علـى المتكلفين، ودلت على حقائق المتموهين، وهتكت عز أستار الأدعياء وفرقت بين الحقيقة والرياء، وفصلت بين المقهـور المنزجر، والمطبوع المبـتهل، لتقف -كـما زعمت- عندها، ولتـعرض نفسك عليها، ولتتوهم مواقعها وعواقـبها. فإن نبهك التصفح لها، على عيب قد أغفلته، عرفت مكانه فـاجتنبته، فإن كان عتيدًا ظاهرًا مـعروفًا عندك نظرت، فإن كان احـتمالك فـاضلاً على بخلك، دمت على إطعـامهم وعلى اكـتساب المحـبة بمؤاكلتهم، وإن كان اكتراثك غامر الاجـتهاد، سترت نفسك وانفردت بطيب زادك ودخلت مع الغـمار، وعـشت عيش المـسـتـورين، وإن كانت الحـروب بينك وبين طباعك سجالاً، وكانت أسبابكما أمثالاً وأشكالاً، أجبت الحزم إلى ترك التعرض، وأجبت الاحتياط إلى رفض التكلف، ورأيت أن من حصل السلامة من الذم، فقد غنم، وأن من آثر الثقة على التغرير، فقد حزم.

وذكـرت أنك إلى معـرفة هذا الـباب أحـوج، وأن ذا المروءة إلى هذا العلم أفقر.

وإنى إن حصنت من الذم عـرضك، بعد أن حصنت من اللصـوص مالك، فقد بلغت لك ما لم يبلغه أب بار، ولا أم رَءُوم.

وسألت أن أكتب لك علة «خبَّـاب» فى نفى الغيرة، وأن بذل الزوجة داخل فى باب المواساة والأثرة، وأن فـرج الأمة فى العارية كحكم الخـدمة، وأن الزوجة فى كثير من معانيها كالأمة، وأن الأمة مال كالذهب والفضة وأن الرجل أحق ببنته من الغريب، وأولى بأختـه من البعـيد. وأن البعـيد أحق بالغيـرة، والقريب أولى بالأنفة، وأن الاسـتزادة فى النسل كـالاستزادة فى الحـرث، إلا أن العادة هى التى

أوحشت منه، والديانة هى التى حرمته، ولأن الناس يتزيدون أيضًا فى استعظامه وينتحلون أكثر مما عندهم فى استشناعه.

وعلة «الجهجاه» فى تحسين الكذب، بمرتبة الصدق فى مواضع، وفى تقبيح الصدق فى مواضع، وفى إلحاق الكذب بمرتبة الصدق، وفى حط الصدق إلى موضع الكذب، وأن الناس يظلمون الكذب بتناسى مناقبه، وتذكر مثالبه، ويحابون الصدق بتذكر منافعه، وبتناسى مضاره، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما، وعدلوا بين خصالهما، لما فرقوا بينهما هذا التفريق، ولما رأوهما بهذه العيون.

ومذهب «صحصح» فى تفضيل النسيان على كثير من الذكر، وأن الغباء فى الجملة أنفع من الفطنة فى الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعًا فى النفوس من عيش العقلاء، وأنك لو أسمنت بهيمة ورجلاً ذا مروءة، أو امرأة ذات عقل وهمة، وأخرى ذات غباء وغفلة، لكان الشحم إلى البهيمة أسرع، وعن ذات العقل والهمة أبطأ، ولأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام، ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن، فلذلك البهيمة تقنو شحمًا فى الأيام اليسيرة ولا تجد ذلك لذى الهمة البعيدة، ومتوقع البلاء فى البلاء، وإن سلم منه. والغافل فى الرجاء إلى أن يدركه البلاء.

ولولا أنك تجد هذه الأبواب وأكثر منها، مصورة فى كتابى، الذى سمى «كتاب المسائل» لأتيت على كثير منه فى هذا الكتاب.

فأما ما سألت من احتجاج الأشحاء، ونوادر أحاديث البخلاء، فسأوجدك ذلك فى قصصهم -إن شاء الله تعالى- مفرقًا، وفى احتجاجاتهم مجملاً، «فهو أجمع لهذا الباب» من وصف ما عندى دون ما انتهى إلىّ من أخبارهم على وجهها وعلى أن الكتاب أيضًا يصير أقصر، ويصير العار فيه أقل.

ونبتدئ برسالة سهل بن هارون ثم بطرف أهل خراسان، لإكثار الناس فى أهل خراسان، ولك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حجة طريفة، أو تعرف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت فى ضحك منه إذا شئت، وفى لهو إذا مللت الجد.

وأنا أزعم أن البكاء صالح للطبائع، ومحمود المغبة، إذا وافق الموضع، ولم يجاوز المقدار، ولم يعدل عن الجهة، ودليل على الرقة، والبعد عن القسوة. وربما

عدٌّ من الوفاء، وشـدة الوجد على الأولياء. وهو من أعظم ما تـقرب به العابدون واسترحم به الخائفون.

وقال بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبى له: لا تجزع فإنه أفتح لجرمه، وأصح لبصره.

وضرب عامر بن عبد قيس بيده على عـينه فقال: جامدة شاخصة لا تندى. وقيـل لصفوان بـن محرز عـند طول بكائه وتذكر أحـزانه: إن طول البكاء يورث العماء فقال: ذلك لها شهادة، فبكى حتى عمى.

وقد مدح بالبكاء ناس كـثير: منهم يحيى البكاء وهيثم البكاء وكـان صفوان ابن محرز يسمى بالبكاء.

وإذا كان البكاء «الذى» ما دام صاحبه فيه، فإنه فى بلاء، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ، ودلَّ على السخف وقضى على صاحـبه بالهلع وشبه بالأمة اللكعاء وبالحدث الضرع كذلك، فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه.

ولو كان الضحك قبيحًا من الضـاحك، وقبيحًا من المضحك لما قيل للزهرة والحبـرة، والحلى والقصر المبني: كأنـه يضحك ضحكًا. وقد قـال الله جل ذكره: ﴿وأنه هو أضحك وأبكى* وأنه هو أمات وأحيا﴾ فوضع الضـحك بحذاء الحـياة ووضع البكاء بحـذاء الموت، وأنه لا يضيف الله إلى نفـسه القبـيح، ولا يمن على خلقه بالنقص.

وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيمًـا، ومن مصلحة الطباع كبيراً وهو شيء فى أصل الطباع، وفى أسـاس التركيب، لأن الضحك أول خـير يظهر من الصـبى، وقد تطيب نفـسه، وعليـه ينبت شـحمـه ويكثر دمـه الذى هو علة سروره، ومادة قوته. ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسـام وبطلق وطليق، وقد ضـحك النبى -ﷺ- ومزح، وضـحك الصـالحون ومزحوا وإذا مدحوا قالوا: هو ضحوك السن، وبسام العشيات، وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز. وإذا ذموا قالوا: هو عبوس، وهو كالح، وهو قطوب، وهو شتيم المحيا وهو مكفهر أبدًا وهو كريه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح.

وللضحك موضع، وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد، وقصر عنهما أحد، صار الفاضل خطلاً، والتقصير نقصًا، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذى له جعل الضحك، صار المزح جدًّا، والضحك وقاراً.

وهذا كتاب لا أغرك منه، ولا أستر عنك عيبه، لأنه لا يجوز أن يكمل لما تريده، ولا يجوز أن توفى حقه كما ينبغى له، لأن ها هنا أحاديث كثيرة، متى أطلعنا منها حرفًا، عرف أصحابها، وإن لم نسمهم، ولم نرد ذلك بهم، وسواء سميناهم أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم. منهم الصديق والولى والمستور والمتجمل وليس يفى حسن الفائدة لكم، بقبح الجناية عليهم، فهذا باب يسقط ألبتة، ويختل به الكتاب لا محالة، وهو أكثرها بابًا، وأعجبها منك موقعًا.

وأحاديث أخر ليس لها شهرة ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها، ولا هى مقيدة أصحابها، وليس يتوفر أبداً حسنها إلا بأن تعرف أهلها، وحتى تتصل بمستحقها وبمعادنها، واللائقين بها، وفى قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة، وذهاب شطر النادرة.

ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبى الحارث جمين، والهيثم بن مطهر ومزبّد وابن أحمر، ثم كانت باردة، لجرت على أحسن ما يكون، ولو ولد نادرة حارة فى نفسها، مليحة فى معناها، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النواء، وإلى بعض البغضاء، لعادت باردة، ولصارت فاترة، فإن الفاتر شر من البارد.

وكما أنك لو ولدت كلامًا فى الزهد، وموعظة للناس، ثم قلت: هذا من كلام بكر بن عبد الله المزنى، وعامر بن عبد قيس العنبرى، ومورق العجلى، ويزيد الرقاشى، لتضاعف حسنه، ولأحدث له ذلك النسب نضار ورفعة لم تكن له. ولو قلت: قالها أبو كعب الصوفى، أو عبد المؤمن، أو أبو نواس الشاعر، أو حسين الخليع، لما كان لها إلا ما لها فى نفسها، وبالحرى أن تغلط فى مقدارها، فتبخس من حقها.

وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها، إما بالخوف منهم، وإما بالإكرام لهم، ولولا أنك سألتنى هذا الكتاب لما تكلفته، ولما وضعت كلامى موضع الضيم والنقمة، فإن كانت لائمة أو عجز فعليك، وإن كان عذر فلى دونك.

رسالة سهل بن هارون أبى محمد بن راهيون إلى بنى عمه من آل راهيون حين ذموا مذهبه فى البخل وتتبعوا كلامه فى الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم، وجمع شملكم وعلمكم الخير، وجعلكم من أهله. قال الأحنف بن قيس: يا معشر بنى تميم لا تسرعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال، أقلهم حياء من الفرار، وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمة، فتأمل عيابًا، فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه من العيب، وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب، وقبيح أن تنهى عن مرشد أو تغرى بمشفق، وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم، وإبقاء النعمة عليكم، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم.

ثم قد تعلمون أنَّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشهرنا به فى الآفاق دونكم، فما كان أحقكم فى تقديم حرمتنا بكم، أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم، وتنبيهنا على ما أغفلنا من واجب حقكم! فلا العذر المبسوط بلغتم، ولا بواجب الحرمة قمتم، ولو كان ذكر العيوب برًّا وفضلاً، لرأينا أن فى أنفسنا عن ذلك شغلاً. وإن من أعظم الشقوة، وأبعد من السعادة، ألا يزال يتذكر زلل المعلمين، ويتناسى سوء استماع المتعلمين ويستعظم غلط العاذلين، ولا يحفل بتعمد المعذولين.

عبتمونى بقول لخادمي: أجيدى عجنه خميرًا، كما أجدته فطيرًا، ليكون أطيب لطعمه، وأزيد فى ريعه، وقد قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه ورحمه-، لأهله: املكوا العجين فإنه أريع الطحينين. وعبتم عليَّ قولى: من لم يعرف مواقف السرف فى الموجود الرخيص، لم يعرف مواقع الاقتصاد فى الممتنع الغالى، فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية، وأشف من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التوفير عليها من

وظيفة الماء، وجدت فى الأعضاء فضلاً عن الماء. فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد فى أوائله، ورغبت عن التهاون به فى ابتدائه، لخرج آخره على كفاية أوله، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر. فعبتمونى بذلك، وشنعتموه بجهدكم، وقبحتموه. وقد قال الحسن عند ذكر السرف: إنه ليكون فى الماعونين الماء والكلأ. فلم يرض بذلك الماء حتى أردفه بالكلأ.

وعبتمونى حين ختمت على سد عظيم، وفيه شىء ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رطبة غريبة على عبد نهم، وصبى جشع، وأمة لكعاء، وزوجة خرقاء، وليس من أصل الأدب، ولا فى ترتيب الحكم، ولا فى عادات القادة، ولا فى تدبير السادة، أن يستوى فى نفيس المأكول وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب، والناعم من كل فن، واللباب من كل شكل، التابع والمتبوع، والسيد والمسود، كما لا تستوى مواضعهم فى المجالس، ومواقع أسمائهم فى العنوانات، وما يستقبلون به من التحيات، وكيف هم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر، ولا يكترثون له اكتراث العارف. من شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن، وأعلف حماره السمسم المقشر.

فعبتمونى بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق، وختم على كيس فارغ، وقال: طينة خير من ظنَّة فأمسكتم عمن ختم على لا شىء وعبتم من ختم على شىء.

وعبتمونى حين قلت للغلام: إذا زدت فى المرق فزد فى الإنضاج، لنجمع بين التأدم فى اللحم، والمرق، ولنجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب، وقد قال النبى -ﷺ-: **«إذا طبختم لحمًا فزيدوا فى الماء، فإن لم يصب أحدكم لحمًا أصاب مرقًا»**.

وعبتمونى بخصف النعال، وبتصدير القميص، حين زعمت أن المخصوفة أبقى وأوطأ وأوقى، وأنفى للكبر، وأشبه بالنسك وأن الترقيع من الحزم وأن الاجتماع مع الحفظ، وأن التفرق مع التضييع، وقد كان النبى -ﷺ- يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويلطع إصبعه ويقول: **«لو أتيت بذراع لأكلت ولو دعيت إلى كراع لأجبت»** ولقد لفقت سعدى ابنة عوف إزار طلحة، وهو جواد قريش، وهو

طلحة الفـياض، وكان في ثوب عمـر رقاع أدم، وقال: من لم يسـتح من الحلال خفت مؤنته وقل كبره، وقالوا: لا جديد لمن لا يلبس الخلق.

وبعث زياد رجـلاً يرتاد له مـحدثًا، واشـترط علـى الرائد أن يكون عاقـلاً مسددًا، فأتاه به موافـقًا فقال: أكنت ذا معرفة به، قال: لا ولا رأيتـه قبل ساعته. قال: أفنقالته الكلام وفاتحته الأمور قبل أن توصله إلي؟ قال: لا. قال: فلِمَ اخترته على جميع من رأيته؟ قال: يومنا يوم قائظ، ولم أزل أتعرف عقول الناس بطعامهم ولبـاسهم في مـثل هذا اليوم. ورأيت ثيـاب الناس جددًا وثيـابه لبسًـا فظننت به الحزم.

وقد علمنا أن الجـدد في موضعـه دون الخلق وقد جـعل الله عز وجل لكل شيء قدرًا، وبوأ له موضعًـا، كما جعل لكل دهر رجالاً ولكل مقـام مقالاً، وقد أحيا بالسم وأمـات بالغذاء، وأغص بالماء وقتل بالدواء، فترقـيع الثوب يجمع مع الإصـلاح التواضع، وخـلاف ذلك يجمع مع الإسـراف التكبر، وقـد زعمـوا أن الإصلاح أحـد الكسبين، كـما زعمـوا أن قلة العيـال أحد اليسـارين، وقد جـبر الأحنف يد عنز، وأمـر بذلك النعـمان، وقـال عمـر: من أكل بيضـة فقـد أكل دجاجـة. وقال رجل لبـعض السادة: أهـدى إليك دجاجـة؟ فقال: إن كـان لابد فاجعلها بياضة، وعد أبو الدرداء العراق جزر البهيمة.

وعبـتموني حين قلت: لا يغـترن أحد بطول عـمره، وتقوس ظهـره، ورقة عظمـه، ووهن قوته، أن يرى أكـرومتـه، ولا يخرجـه ذلك إلى إخراج مـاله من يديه، وتحويله إلى ملك غيره، وإلى تحكيم السرف فـيه، وتسليط الشهوات عليه، فلعله أن يكون معمرًا وهو لا يدري، وممدودًا له في السن وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس، أو يحـدث عليه بعض مخبـآت الدهر، مما لا يخطر على البال، ولا تدركـه العقول، فيـسترده ممن لا يرده ويظهر الشكوى إلى من يـرحمه، لضعف مـا كان عن الطلب، وأقبح ما يكون به الكسب، فـعبتمـوني بذلك. وقد قال عمرو بـن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدًا، واعـمل لآخرتك عمل من يموت غدًا.

وعبتموني حين زعمت أن التبـذير إلى مال القمار، ومال الميراث، وإلى مال الالتقاط، وحـباء الملوك أسرع، وأن الحفظ إلى المال المكتـسب، والغنى المجتلب، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين واهتضام العرض، ونصب البدن، واهتمام القلب

أسرع، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته، لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل، وأن من لم يعرف للغنى قدره، فقد أذن بالفقر، وطاب نفسًا بالذل.

وزعمت أن كسب الحلال مضمن بالإنفاق فى الحلال، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث، وأن الطيب يدعو إلى الطيب، وأن الإنفاق فى الهوى حجاب دون الحقوق، وأن الإنفاق فى الحقوق حجاب دون الهوى، فعبتم علىّ هذا القول، وقد قال معاوية: لم أر تبذيرًا قط، إلا وإلى جانبه حق مضيع، وقد قال الحسن: إذا أردتم أن تعرفوا مِن أين أصاب ماله، فانظروا فى أى شىء ينفقه، فإن الخبيث ينفق فى السرف.

وقلت لكم، بالشفقة منى عليكم وبحسن النظر لكم وبحفظكم لآبائكم، ولما يجب فى جواركم، وفى مما لحتكم وملابستكم: أنتم فى دار الآفات، والجوارح غير مأمونات. فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلى بقية، فاحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة، فإن البلية لا تجرى فى الجميع، إلا مع موت الجميع. وقد قال عمر -ﷺ- فى العبد والأمة، وفى ملك الشاة والبعير، وفى الشىء الحقير اليسير: فرقوا بين المنايا. وقال ابن سيرين لبعض البحريين: كيف تصنعون بأموالكم، قال: نفرقها السفن، فإن عطب بعض سلم بعض، ولولا أن السلامة أكثر، لما حملنا خزائننا فى البحر. قال ابن سيرين: تحسبها خرقاء، وهى صناع.

وقلت لكم عند إشفاقى عليكم: إن للغنى سكرًا، وإن للمال نزوة، فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى، فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر، فقد أهمله، فعبتمونى بذلك. وقال زيد بن جبلة: ليس أحد أفقر من غنى أمن الفقر. وسكر الغنى أشد من سكر الخمر، وقلتم: قد لزم الحث على الحقوق، والتزهيد فى الفضول، حتى صار يستعمل ذلك فى أشعاره بعد رسائله، وفى خطبه بعد سائر كلامه، فمن ذلك قوله فى يحيى بن خالد:

عدو تلاد المال فيما ينوبه ... منوع إذا ما منعه كان أحزما

ومن ذلك قوله فى محمد بن زياد:

وخليقتان تقى وفضل تحرم ... وإهانة فى حقه للمال

وعبتمونى حين زعمت أنى أقدم المال على العلم، لأن المال به يغاث العالم، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم، وأن الأصل أحق بالتفضيل من

الفرع، وأنى قلت: وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس، فإنّا بالكفاية نستبين وبالخلة نعمى.

وقلتم: كيف تقول هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء، ومقدم الأدباء: العلماء أفضل أم الأغنياء؟ قال: بل العلماء، قيل: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى، ولجهل الأغنياء بفضل العلم، فقلت: حالهما هى القاضية بينهما، وكيف يستوى شىء ترى حاجة الجميع إليه، وشىء يغنى بعضهم فيه عن بعض؟.

وعبتمونى حين قلت: إن فضل الغنى على القوت، إنما هو كفضل الآلة تكون فى الدار، إن احتيج إليها استعملت، وإن استغنى عنها كانت عدة. وقد قال الحضين بن المنذر: وددت أن لى مثل أحد ذهبًا لا أنتفع منه بشىء. قيل: فما ينفعك من ذلك؟ قال: لكثرة من يخدمنى عليه. وقال أيضًا: عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عز فى قلبك، وشبهة فى قلب غيرك، لكان الحظ فيه جسيمًا، والنفع فيه عظيمًا.

ولسنا ندع سيرة الأنبياء، وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب الأهواء. كان رسول الله -ﷺ- يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج، وقال: **«درهمك لمعاشك ودينك لمعادك»**.

فقسموا الأمور كلها على الدين والدنيا. ثم جعلوا أحد قسمى الجميع الدرهم. وقال أبو بكر الصديق، -رضي الله عنه-: إنى لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام فى اليوم، وكانوا يبغضون أهل البيت اللحمين.

وكان هشام يقول: ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً. ونهى أبو الأسود الدئلى وكان حكيمًا أديبًا، داهيًا إربًا، عن جودكم هذا المولد، وعن كرمكم هذا المستحدث، فقال لابنه: إذا بسط الله لك فى الرزق فابسط، وإذا قبض فاقبض، ولا تجاود الله، فإن الله أجود منك. وقال: درهم من حل يخرج فى حق، خير من عشرة آلاف قبضًا.

وتلقط عُرجدًا بن بريم فقال: تضيعون مثل هذا وهو قوت امرئ مسلم يومًا إلى الليل! وتلقط أبو الدرداء حبات حنطة، فنهاه بعض المسرفين فقال: إيهًا، ابن العبسية!! إن فقه المرء رفقه فى معيشته، فلستم على تردون ولا رأيى تفندون فقدموا النظر قبل العزم، وتذكروا ما عليكم، قبل أن تذكروا ما لكم والسلام.

أهــل خراســان

نبدأ بأهل خراسان لإكثار الناس فى أهل خراسان، ونخص بذلك أهل مرو، بقدر ما خصوا به.

قال أصحابنا: يقول المروزى للزائر إذا أتاه، وللجليس إذا طال جلوسه: تغديت اليوم؟ فإن قال: نعم، قال: لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب، وإن قال: لا، قال: لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح، فلا يصير فى يده على الوجهين قليل ولا كثير.

* * *

وكنت فى منزل ابن أبى كريمة، وأصله من مرو فرآنى أتوضأ من كوز خزف، فقال: سبحان الله تتوضأ بالعذب البئر لك معرضة! قلت: ليس بعذب، إنما هو من ماء البئر، قال: فتفسد علينا كوزنا بالملوحة! فلم أدرِ كيف أتخلص منه!

* * *

وحدثنى عمر بن نهيوى، قال: تغديت يومًا عند الكندى. فدخل عليه رجل كان له جارًا، وكان له صديقًا فلم يعرض عليه الطعام ونحن نأكل. وكان أبخل من خلق الله، قال: فاستحييت منه، فقلت: سبحان الله لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل، قال: والله فعلت، فقال الكندى: ما بعد الله شىء؟ قال عمرو: فكتفه والله كتفًا لا يستطيع معه قبضًا ولا بسطًا، وتركه. ولو مد يده لكان كافرًا، أو لكان قد جعل مع الله جل ذكره شيئًا! وليس هذا الحديث لأهل مرو، ولكنه من شكل الحديث الأول.

* * *

ديكــة مــرو

وقال ثمامة لم أرَ الديك فى بلدة قط إلا وهو لافظ، يأخذ الحبة بمنقاره ثم

يلفظها قدام الدجاجة إلا ديكة مـرو، فإني رأيت ديكة مرو، تسلب الدجاج ما في مناقيـرها من الحب! قال: فـعلمت أن بخلهم شيء في طبع البـلاد، وفي جواهر الماء، فمن ثم عم جميع حيوانهم.

فحدثت بهذا الحديث أحمد بن رشـيد، فقال: كنت عند شيخ من أهل مرو وصبي له صغيـر يلعب بين يديه، فقلت له، إما عابثًا، وإمـا ممتحنًا: أطعمني من خبـزكم، قال: لا تريده هو مـر! قلت: فاسـقني من مائكم، قـال: لا تريده هو مالح! قلت: هـات من كذا وكذا، قـال: لا تريده هو كذا وكـذا، إلى أن عددّت أصنافًا كثيـرة. كل ذلك يمنعنيه ويبغضه إليَّ! فضـحك أبوه وقال: ما ذنبنا هذا من علمه ما تسمع! يعني أن البخل طبع فيهم، وفي أعراقهم وطينتهم.

* * *

وزعم أصـحابنا أن خـراسانيـة ترافـقوا في منزل، وصـبروا عن الارتفـاق بالمصـباح، مـا أمكن الصبـر، ثم إنهم تناهدوا وتخـارجوا. وأبى واحـد منهم أن يعينهم، وأن يدخل في الغرم مـعهم. فكانوا إذا جاء المصباح شـدوا عينيه بمنديل! ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح، فإذا أطفأوا أطلقوا عينيه.

* * *

ورأيت أنا حمَّارة منهم، زهاء خـمسين رجلاً يتغدون على مبـاقل، بحضرة قرية الأعراب، في طريق الكوفة، وهم حجاج، فلم أرَ من جميع الخمسين رجلين يأكلان مـعًا، وهم في ذلك متـقاربون، يحدث بعـضهم بعضًـا، وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس.

* * *

حدثني مويس بن عمران قال: قال رجل منهم لصـاحبه، وكانا إما متزاملين وإما مترافقين: لم لا نتطاعم، فإن يد الله مع الجماعة، وفي الاجتماع البركة. وما زالوا يقولون: طعـام الاثنين يكفي لثلاثة، وطعـام الثلاثة يكفي لأربعة، فـقال له صاحـبه: لولا أعلم أنك آكل مني، لأدخلت لك هذا الكلام في باب النصيـحة. فلما كان الغد، وأعاد عليه القول قـال له: يا عبد الله معك رغيف ومعي رغيـف، ولولا أنك تريد أكـثر، ما كـان حرصك على مـؤاكلتي! تريد الحديث والمـؤانسة؟ اجـعل الطبق واحداً ويكون رغـيـف كـل منا قدام صـاحـبه. ومـا أشك أنك إذا

أكلت رغيفك ونصف رغيفي ستجده مباركًا! إنما كان ينبغي أن أكون أجده أنا، لا أنت.

* * *

حديث ابن صبيح

وقال خاقان بن صبيح: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً، وإذا هو قد أتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الدقة، وإذا قد ألقى في دهن المسرجة شيئًا من ملح، وقد علّق على عمود المنارة عودًا بخيط، وقد حز فيه، حتى صار فيه مكان للرباط، فكان المصباح إذا كان ينطفئ، أشخص رأس الفتيلة بذلك، قال: فقلت له: ما بال العود مربوطًا؟ قال: هذا عود قد تشرب الدهن، فإن ضاع ولم يحفظ احتجنا إلى واحد عطشان، فإذا كان هذا دأبنا ودأبه، ضاع من دهننا في الشهر، بقدر كفاية ليلة!

قال: فبينا أنا أتعجب في نفسي، وأسأل الله -جل ذكره- العافية والستر، إذ دخل شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود فقال: يا أبا فلان فررت من شيء ووقعت في شبيه به، أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء؟ أوليس قد كان البارحة عند إطفاء السراج أروى، وهو عند إسراجك الليلة أعطش؟ فقد كنت أنا جاهلاً مثلك، حتى وفقني الله إلى ما هو أرشد أربط عافاك الله بدل العود إبرة أو مسلة صغيرة، وعلى أن العود والخلال والقصبة، ربما تعلقت بها الشعرة من قطن الفتيلة إذا سويناها بها، فتشخص معها، وربما كان ذلك سببًا لانطفاء السراج، والحديد أملس، وهو مع ذلك غير نشاف.

قال خاقان: في تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس، وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان!

* * *

قال مثنى بن بشير: دخل أبو عبد الله المروزي، على شيخ من أهل خراسان، وإذ هو قد استصبح في مسرجة خزف من هذه الخزفية الخضر، فقال له الشيخ: لا يجيء، والله منك أمر صالح أبدًا! عاتبتك في مسارج الحجارة فأعتبتني بالخزف، أو ما علمت أن الخزف والحجارة يحسوان الدهن حسوًا؟ قال: جعلت

فداك دفـعتها إلى صـديق لى دهان، فألقاها فى المصـفاة شهـرًا، حتى رويت من الدهن ريًّا لا تحتـاج معه أبدًا إلى شىء، قال: ليس هذا أريد، هذا دواؤه يسـير، وقد وقعت عليـه ولكن ما علمت أن موضع النار من المسرجـة فى طرف الفتيلة لا ينفك من إحراق النار، وتجفيفه وتنشيف مـا فيه ومتى ابتل بالدهن وتسقاه، عادت النار عليه فـأكلته. هذا دأبهمـا، فلو قست ما يشـرب ذلك المكان من الدهن، بما يستمـده طرف الفتيلة منه، لعلمت أن ذلك أكثـر. وبعد هذا فإن ذلك الموضع من الفتـيلة والمسرجـة لا يزال سائلاً جاريًا، ويـقال إنك متى وضـعت مسـرجة فيـها مصبـاح، وأخرى لا مصبـاح فيها، لم تلبث إلا ليلة أو ليلتين حـتى ترى السفلى ملآنة دهـنًا، واعتبـر ذلك بالملح الذى يوضع تحت المسـرجة والنخـالة التى توضع هناك لتسويتها وتصويبها، فكيف تجدهما ينعصران دهنًا، وهذا كله خسران وغبن، لا يتهاون به إلا أصحاب الفساد. على أن المفسدين، إنما يطعمون الناس، ويسقون الناس، وهم على حال لا يسـتخلفون شـيئًا، وإن كـانت روثًا، وأنت تطعم النار وتسقى النار، ومن أطعم النار جعله الله يوم القيامة طعامًا للنار.

قال الشـيخ: فكيف أصنع جعلت فداك! قـال: تتخذ قنديلاً، فـإن الزجاج أحفظ من غيره، والزجاج لا يعرف الرشح ولا النشف، ولا يقبل الأوساخ التى لا تزول إلا بالدلك الشـديد، أو بإحراق النار. وأيهمـا كان فإنه يـعيد المسـرجة إلى العطش الأول، والزجاج أبقى على الماء والتراب من الذهب الإبريز، وهو مع ذلك مـصنوع، والذهب مـخلوق، فـإن فـضلت الذهب بالصـلابة، فـضلت الزجـاج بالصفاء. والزجـاج مجل والذهب ستار، ولأن الفتـيلة إنما تكون فى وسطه، فلا تحمى جوانبه بوهج المصباح، كما يحمى بموضع النار من المسرجة، وإذا وقع شعاع النار على جوهر الزجاج، صار المصباح والقنديل مـصباحًا واحدًا، ورد الضياء كل واحد منهما على صـاحبه. واعتبر ذلك بالشعـاع الذى يسقط على وجه المرآة، أو على وجه الماء أو على الزجـاجة، ثم انظر كيف يتـضاعف نوره وإن كان سـقوطه على عين إنسان غشاه، وربما أعماه.

وقال جل ذكره: ﴿**الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درى، يوقد من شجرة مباركة زيتونة، لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدى الله لنوره من**

يشاء﴾ والزيت فى الزجاجـة نور على نور وضوء على ضوء مـضاعف، هذا مع فضل حسن القنديل على حسن مسارج الحجارة والخزف.

وأبو عبد الله هذا كان من أطيب الخلق وأملحهم بخلاً، وأشدهم أدبًا، دخل على ذى اليمينين طاهر بن الحسين، وقد كان يعـرفه بخراسان بسبب الكلام. فقال له: منذ كم أنت مقيم بالعراق يا أبا عبد الله؟ فقال: أنا بالعراق منذ عشرين سنة، وأنا أصوم الدهر منذ أربعين سنة. قال: فضـحك طاهر وقال: سألناك أبا عبد الله عن مسألة وأجبتنا عن مسألتين.

* * *

العراقى والمروزى

ومن أعاجيب أهل مرو ما سـمعناه من مشايخنا على وجه الدهر، وذلك أن رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتـجر، وينزل على رجل من أهل العراق، فيكرمه ويكفيـه مؤنته. ثم كان كثيراً ما يقـول لذلك العراقى: ليت أنى قد رأيتك بمرو، حتى أكـافيك لقديم إحـسانك، وما تجدد لى من الـبر فى كل قدمة، فـأما هاهنا فقد أغناك الله عنى.

قال: فعـرضت لذلك العراقى بعد دهر طويل فى حاجـة فى تلك الناحية، فكان مما هون عليه مكابدة السـفر، ووحشة الاغتـراب، مكان المروزى هناك، فلما قدم مـضى نحوه فى ثياب سفـره، وفى عمامتـه وقلنسوته وكسـائه، ليحط رحله عنده، كما يصنع الرجل بثقته، وموضع أنسه، فلما وجده قاعداً فى أصحابه أكبَّ عليه وعـانقه فلم يره أثبـته، ولا سأل به سـؤال من رآه قط، قال فى نفـسه: لعل إنكاره إياى لمكان القناع، فرمى بقناعه وابتدأ مـساءلته، فكان له أنكر، فقال: لعله أن يكون إنما أوتى من قبل العمـامة، فنزعها. ثم انتسب وجدد مسـاءلته، فوجده أشد ما كان إنكاراً، قال: فلعله إنما أوتى من قبل القلنسوة. وعلم المروزى، أنه لم يبقَ شىء يتعلق به المتغافل والمتجاهل، فقال لو خرجت من جلدك لم أعرفك!

* * *

المشاركة فى اللحم

وزعموا أنهم ربما ترافقوا وتزاملوا، فـتناهدوا وتلازموا فى شراء اللحم، فإذا

اشتروا اللحم قسـموه قبل الطبخ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبـه فشكه بخوصة أو بخيط، ثم أرسله فى خل القدر والتوابل، فإذا طبخوا تناول كل إنسان خيطه، وقد علمه بعـلامة، ثم اقتسـموا المرق، ثم لا يزال أحدهم يسل من الخيط القطعـة بعد القطعة، حتى يبقى الحـبل لا شىء فيه ثم يجمعون خيـوطهم، فإن أعادوا الملازمة أعادوا تلك الخيوط لأنها قد تشربت الدسم ورويت.

وليس تناهدهم من طريق الرغبة فى المشاركـة، ولكن لأن بضاعة كل واحد منهم، لا يبلغ مـقدار الذى يحتـمل أن يطبخ وحده، ولأن المؤنة تخـف أيضًا فى الحطب والخل والثوم والتـوابل، ولأن القدر الواحدة أمكن من أن يقـدر كل واحد منهم على قدر، ويختارون السكباج لأنه أبقى على الأيام وأبعد من الفساد.

* * *

مقلى الخراسانى

حدثنى أبو إسحـاق إبراهيم بن السيار النظام، قال: قلت مـرة لجار كان لى من أهل خراسان: أعرنى مقلاكم، فإنى أحتاج إليه، قال: قد كان لنا مقلى ولكنه سرق، فاستعرت من جار لى آخر، فلم يلبث الخراسانى أن سمع نشيش اللحم فى المقلى، وشم الطباهج، فقال لى كالمغضب: ما فى الأرض أعجب منك، لو كنت أخبرتنى أنك تريده للحم أو لشحم، لوجـدتنى أسرع إليك به، إنما خشيتك تريده للباقلى، وحـديد المقلى يحترق، إذا كـان الذى يقلى فيـه ليس بدسم، وكيف لا أعيرك إذا أردت الطباهج، والمقلى بعد الرد من الطباهج أحسن حالاً منه، وهو فى البيت.

* * *

طلاق بسبب غسل الخوان

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، دعانا جار لنا فأطعمنا تمرًا وسمن سلاء، ونحن على خـوان ليس عليه إلا ما ذكـرت. والخراسانى معنا يأكل فـرأيته يقطر السمن على الخوان، حتى أكثـر من ذلك، فقلت لرجل إلى جانبى: ما لأبى فلان يضـع سمن القوم، ويـسىء المؤاكلة، ويغرف فـوق الحق، قال: ومـا عرفت علته؟ قلت: لا والله، قال: الخـوان خوانه فهو يريد أن يدسمـه ليكون كالدبغ له

ولقد طلق امرأته وهى أم أولاده، لأنه رآها غسلت خوانًا له بماء حار، فقال لها: هل مسحته؟!

* * *

الأكل مع الجماعة تكلف

وقال أبو نواس: كان معنا في السفينة ونحن نريد بغداد، رجل من أهل خراسان، وكان من عقلائهم وفهمائهم، وكان يأكل وحده، فقلت له: لِمَ تأكل وحدك؟ قال: ليس على فى هذا الموضع مسألة، إنما المسألة على من أكل مع الجماعة، لأن ذلك هو التكلف، وأكلى وحدى هو الأصل. وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل.

* * *

كلام بكلام لا كلام بفعال

وحدثنى إبراهيم بن السندى، قال: كان على ربع الشاذروان شيخ لنا من أهل خراسان، وكان مصححًا بعيدًا من الفساد ومن الرشاء، ومن الحكم بالهوى، وكان حفيًا جدًا، وكذلك كان فى إمساكه، وفى بخله وتدنيقه فى نفقاته وكان لا يأكل إلا ما لابد منه، ولا يشرب إلاَّ ما لابد له منه.

غير أنه كان فى غداة كل جمعة يحمل معه منديلاً فيه جرذقتان وقطع لحم سكباج مبرد، وقطع جبن، وزيتونات، وصرة فيها ملح، وأخرى فيها أشنان، وأربع بيضات ليس منها بد، ومعه خلال، ويمضى وحده حتى يدخل بعض بساتين الكرخ، ويطلب موضعًا تحت شجرة وسط خضرة، وعلى ماء جار، فإذا وجد ذلك جلس وبسط بين يديه المنديل، وأكل من هذا مرة ومن هذا مرةً، فإن وجد قيم ذلك البستان، رمى إليه بدرهم، ثم قال: اشتر لى بهذا أو أعطنى بهذا رطبًا، إن كان فى زمان الرطب، أو عنبًا إن كان فى زمان العنب، ويقول له إياك أن تحابينى، ولكن تجود لى، فإنك إن فعلت لم آكله ولم أعد إليك، واحذر الغبن، فإن المغبون لا محمود ولا مأجور.

فإن أتاه به أكل كل شيء معه، وكل شيء أتى به، ثم تخلل وغسل يديه، ثم يمشى مقدار مائة خطوة، ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة، ثم ينتبه فيغتسل ويمضى إلى المسجد، هذا كان دأبه كل جمعة.

قال إبراهيم: فـبينما هو يومًا من أيامـه، يأكل فى بعض المواضع، إذ مر به رجل فسلم عليه فـرد السلام، ثم قال: هلمَّ عافاك الله، فـلمَّا نظر إلى الرجل قد انثنى راجعًا يريد أن يظفر الجدول، أو يعـدى النهر قال له: مكانك فإن العجلة من عمل الشيطان. فوقف الرجل، فأقبل عليه الخراسانى وقال: تريد ماذا؟ قال: أريد أن أتغـدى. قال: ولـم ذاك؟ وكيف طمـعت فى هذا ومن أباح لـك مالى، قـال الرجل: أوليس قـد دعوتنى؟ قـال: ويلك! لو ظننت أنك هكذا أحمـق ما رددت عليك السلام الأحـسن فيما نحن فيـه، أن تكون إذا كنت أنا الجالس وأنت المار، تبدأ أنت فتسلم، فـأقول أنا حينئذ مجيبًـا لك: وعليكم السلام، فإن كنت لا آكل شيئًا سكتّ أنا، وسكتّ أنت، ومضـيت أنت، وقعدت أنا على حالى! وإن كنت آكل فها هنا بيـان آخر: وهو أن أبدأ أنا فأقول: هلم، وتجيب أنت فتـقول: هنيًا، فيكون كلام بكلام، فأما كلام بفعال، وقول بأكل، فهذا ليس من الإنصاف، وهذا يخرج علينا فضلاً كثيرًا.

قال: فـورد على الرجل شىء لم يكن فى حـسابه، فـشهـر بذلك فى تلك الناحية، وقيل له: قد أعـفيناك من السلام ومن تكلف الرد، قال: ما بى إلى ذلك حاجة، إنما هو أن أعفى أنا ونفسى من هلم وقد استقام الأمر.



كـــذب بكـــذب

ومثل هذا الحديث ما حدثنى به محـمد بن بشير، عن وال كان بفارس، إما أن يكون خالدًا خو مهرويه أو غيره، قال:

بينا هو يومًا فى مجلس، وهو مشغول بحسابه وأمره، وقد احتجب جهده، إذ نجم شاعر من بين يديه، فـأنشده شعرًا مدحـه فيه، وقرظه ومجـده، فلما فرغ قال: قد أحـسنت، ثم أقبل على كاتبـه، فقال: أعطه عشـرة آلاف درهم، ففرح الشاعر فـرحًا قد يستطار له، فلما رأى حاله قـال: وإنى لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع، اجعلهـا عشرين ألف درهم، وكاد الشاعـر يخرج من جلده فلما رأى فرحه قد تضـاعف، قال: وإن فرحك ليتضاعف على قـدر تضاعف القول، أعطه يا فلان أربعين ألفًا. فكاد الفرح يقتله، فلما رجعت إليه نفسه، قال له:

أنت (جـعلت فداك) رجـل كريم، وأنا أعلم أنك كلـما رأيتنى قـد ازددت

فرحًا، زدتنى فى الجائزة، وقبول هذا منك، لا يكون إلا من قلة الشكر له، ثم دعا له وخرج.

قال: فأقبل عليه كاتبه فقال: سبحان الله هذا كان يرضى منك بأربعين درهمًا، تأمر له بأربعين ألف درهم! قال: ويلك! وتريد أن تعطيه شيئًا، قال: ومن إنفاذ أمرك بد؟ قال: يا أحمق إنما هذا رجل سرنا بكلام وسررناه بكلام، هو حين زعم أنى أحسن من القمر، وأشد من الأسد، وأن لسانى أقطع من السيف، وأن أمرى أنفذ من السنان، جعل فى يدى من هذا شيئًا أرجع به إلى شىء؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ ولكنه قد سرنا حين كذب لنا، فنحن أيضًا نسره بالقول، ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذبًا، فيكون كذب بكذب وقول بقول، فأما أن يكون كذب بصدق، وقول بفعل فهذا هو الخسران الذى ما سمعت به!!

ويقال إن هذا المثل الذى قد جرى على ألسنة العوام من قولهم: ينظر إلىَّ شزرًا، كأنى أكلت اثنين وأطعمته واحدًا، إنما هو لأهل مرو.

* * *

قال: وقلت لأحمد بن هشام، وهو يبنى داره ببغداد: إذا أراد الله ذهاب مال رجل، سلط عليه الطين والماء، قال: وما يصنع بذكر الطين والماء؟ إنما إذا أراد الله ذهاب مال رجل جعله يرجو الخلف! والله ما أهلك الناس ولا أقفر بيوتهم ولا ترك دورهم بلاقع إلا الإيمان بالخلف! وما رأيت جنة قط أوقى من اليأس!

* * *

ما نقص مال قط من زكاة

قال: وسمع رجل من المراوزة الحسن وهو يحث الناس على المعروف، ويأمر بالصدقة، ويقول: ما نقص مال قط من زكاة، ويعدهم سرعة الخلف، فتصدق بماله كله فافتقر، فانتظر سنة وسنة فلما لم يَر شيئًا بكر على الحسن فقال: حسن ما صنعت بى! ضمنت لى الخلف، فأنفقت على عدتك وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة أنتظر ما وعدت لا أرى منه قليلاً ولا كثيرًا، هذا يحل لك؟ اللص كان يصنع بى أكثر من هذا؟.

والخلف يكون معجلاً ومؤجلاً ومن تصدق وتشرط الشروط استحق

الحرمـان، ولو كان هذا على ما توهمـه المروزى لكانت المحنة فيه سـاقطة، ولترك الناس التجارة، ولما بقى فقير، ولذهبت العبادة.

* * *

أصبح ثمـامة شديد الغم حين احتـرقت داره، وكان كلما دخل عليـه إنسان قال: الحريق سريع الخلف! فلما كثـر ذلك القول منهم قال: فلنستحرق الله! اللهم إنى أستحرقك فأحرق كل شىء لنا.

وليس هذا الحديث من حديث المراوزة، ولكنا ضممناه إلى ما يشاكله.

* * *

قال سجادة وهو أبو سعيد سـجادة: إن أناسًا من المراوزة، إذا لبسوا الخفاف فى الستة أشـهر التى لا ينزعون فيهـا خفافهم، يمشون على صـدور أقدامهم ثلاثة أشهر، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حـتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر، مخافة أن تنجرد نعال خفافهم أو تنقب!.

وحكى أبو إسحاق إبراهيم بن سـيار النظام، عن جاره المروزى، أنه كان لا يلبس خـفًّـا ولا نعـلاً، إلى أن يذهب النبق الـيابس، لـكثرة الـنوى فى الطريق والأسواق، قال: ورآنى مرة مـصصت قصب سكر، فجمعت مـا مصصت ماءه، لأرمى به، فقال: إن كنت لا تنور لك ولا عيال، فـهبه لمن له تنور، وعليه عيال، وإياك أن تعود نفسك هذه العادة، فى أيام خفة ظهرك فإنك لا تدرى ما يأتيك من العيال!

* * *

أهل البصرة من المسجديين

قال أصحابنا من المسجديين: اجتمع ناس فى المسجد ممن ينتحل الاقتصاد فى النفقة، والتنمية للمال، من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب، صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب، وكالحلف الذى يجمع على التناصر، وكانوا إذا التقوا فى حلقهم، تذاكروا هذا الباب، وتطارحوه وتدارسوه، «التماسًا للفائدة واستمتاعًا بذكره».

* * *

ماء البئر

فقال شيخ منهم: ماء بئرنا «كما قد علمتم» ملح أجاج، لا يقربه الحمار، ولا تسيغه الإبل، وتموت عليه النخل، والنهر منا بعيد، وفى تكلف العذب علينا مؤنة. فكنا نمزج منه للحمار فاعتل منه وانتفض علينا من أجله، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفًا، وكنت أنا والنعجة كثيراً ما نغتسل بالعذب، مخافة أن يعترى جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار، فكان ذلك الماء العذب الصافى، يذهب باطلاً!

ثم انفتح لى فيه باب من الإصلاح، فعمدت، إلى ذلك المتوضأ، فجعلت فى ناحية منه حفرة وصهرجتها وملستها، حتى صارت كأنها صخرة منقورة. وصوبت إليها المسيل، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيًا، لم يخالطه شيء. ولولا التعبد لكان جلد المتغوِّط أحق بالنتن من جلد الجنب، فمقادير طيب الجلود واحدة، والماء على حاله. والحمار أيضًا لا تقزز له من ماء الجنابة وليس علينا حرج فى سقيه منه، وما علمنا أن كتابًا حرمه ولا سنة نهت عنه، فربحنا هذه منذ أيام، وأسقطنا مؤنة على النفس والمال. قال القوم: وهذا بتوفيق الله ومنِّه.

* * *

مريم الصنّاع

فأقبل علـيهم شيخ فقال: هل شـعرتم بموت مريم الصناع؟ فإنـها كانت من ذوات الاقتـصاد، وصاحـبة إصلاح، قـالوا: فحدثنا عنهـا. قال: نوادرها كثـيرة وحديثـها طويل، ولكنى أخبركـم عن واحدة فيهـا كفاية. قالوا: ومـا هي؟ قال: زوجت ابنتهـا وهى بنت اثنتى عشرة، فـحلتها الذهب والفـضة، وكستـها المرويّ والوشى والقز والخـز، وعلقت المعصفر، ودقـت الطيب، وعظمت أمرها فى عين الختن، ورفعت من قدرها عند الأحماء.

فقـال لها زوجهـا: أنَّى هذا يا مريم؟ قالت: هـو من عند الله، قال: دعى عنك الجملة وهاتى التـفسير، والله مـا كنت ذا مال قديمًا، ولا ورثته حـديثًا، وما أنت بخائنة فى نفـسك، ولا فى مال بعلك، إلا أن تكونى قـد وقعت على كنز، وكيف قد وقعت علـى كنز؟ وكيف دار الأمر، فقد أسقطت عنى مـؤنة، وكفيتنى هذه النائبة.

قالت: اعلم أنى منذ يوم ولدتها، إلى أن زوجتها، كنت أرفع من دقيق كل عجنة حـفنة، وكنا كما قد علمت، نخـبز فى كل يوم مرة، فإذا اجـتمع من ذلك مكوك بعته، قـال زوجها: ثبت الله رأيك، وأرشدك ولقـد أسعد الله من كنت له سكنًا، وبارك لمن جعـلت له إلفًا. ولهذا وشـبهه، قـال رسول الله -ﷺ-: «**من الذود إلى الذود إبل**»، وإنى لأرجو أن يخرج ولدك، على عـرقك الصالح وعلى مذهبك المحمود. وما فرحى بهذا منك بأشد من فرحى بما يثبت الله بك فى عقبى من هذه الطريقة المرضية.

فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتهـا، وصلوا عليها، ثم انكفأوا إلى زوجها فعزوه على مصيبته وشاركوه فى حزنه.

* * *

ثم اندفع شيخ منهم فقال: يا قوم لا تحقروا صغار الأمور، فإن أول كل كبير صغير، ومـتى شاء الله أن يعظِّم صغيراً عظَّمه، وأن يكثر قليـلاً كثّرة، وهل بيوت الأموال إلا درهـم إلى درهم؟ وهل الذهب إلا قيـراط إلى جنب قيـراط، أوليس كذلك رمل عالج، ومـاء البحر، وهل اجتمعت أمـوال بيوت الأموال، إلا بدرهم من ها هنا ودرهم من ها هنا.

فقد رأيت صاحب سقط قد اعتقد مائة جريب فى أرض العرب ولربما رأيته يبيع الفلفل بقيراط، والحمص بقيراط، فأعلم أنه لا يربح فى ذلك الفلفل إلا الحبة والحبتين من خشب الفلفل، فلم يزل يجمع من الصغار الكبار، حتى اجتمع ما اشترى به مائة جريب.



ثم قال: اشتكيت أيامًا صدرى من سعال كان أصابنى، فأمرنى قوم بالفانيذ السكرى وأشار علىّ آخرون بالحزيرة تتخذ من النشاشج والسكر ودهن اللوز وأشباه ذلك. فاستثقلت المؤنة، وكرهت الكلفة، ورجوت العافية، فبينا أنا أدافع الأيام إذ قال لى بعض الموفقين: عليك بماء النخالة، فأحسه حارًا، فحسوت. فإذا هو طيب جدًّا، وإذا هو يعصم، فما جعت ولا اشتهيت الغداء فى ذلك اليوم إلى الظهر، ثم ما فرغت من غدائى وغسل يدى، حتى قاربت العصر. فلما قرب وقت غدائى من وقت عشائى، طويت العشاء وعرفت قصدى.

فقلت للعجوز: لِمَ لا تطبخين لعيالنا كل غداة نخالة فإن ماءها جلاء للصدر، وقوتها غذاء وعصمة، ثم تجففين بعد النخالة، فتعود كما كانت. فتبيعين إذا الجميع بمثل الثمن الأول، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين. قالت: أرجو أن يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التى فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك، وما أشك أن تلك المشورة، كانت من التوفيق.

قال القوم: صدقت مثل هذا لا يكتسب بالرأى، ولا يكون إلا سماويًّا.



ثم أقبل عليهم شيخ فقال: كنا نلقى من الحراق والقداحة جهدًا، لأن الحجارة كانت إذا انكسرت حروفها واستدارت كلت، ولم تقدح قدح خير، واصلدت فلم تورِ وربما أعجلنا المطر والوكف، وقد كان الحجر أيضًا يأخذ من حروف القداحة، حتى يدعها كالقوس، فكنت أشترى المرقشيتا بالغلاء، والقداحة الغليظة بالثمن الموجع.

وكان علينا أيضًا فى صنعة الحراق، وفى معالجة القطنة مؤنة، وله ريح كريهة، والحراق لا يجيء من الخرق المصبوغة، ولا من الخرق الوسخة، ولا من

الكتان، ولا من الخلقان فكنا نشتريه بأغلى الثمن، فتذاكرنا منذ أيام، أهل البدو والأعراب، وقدحهم النار بالمرخ والعفار. فزعم لنا صديقنا الثورى، وهو ما علمت، أحد المرشدين أن عراجين الأعذاق، تنوب عن ذلك أجمع، وعلمنى كيف تعالج، ونحن نؤتى بها من أرضنا بلا كلفة، فالخادم اليوم لا تقدح ولا تورى، إلا بالعرجون.

قال القوم: قد مرت بنا اليوم فوائد كثيرة، ولهذا قال الأول: «مذاكرة الرجال تلقح الألباب».

معاذة العنبرية

ثم اندفع شيخ منهم، فقال: لم أرَ فى وضع الأمور مواضعها، وفى توفيتها غاية حقوقها، كمعاذة العنبرية، قالوا: وما شأن معاذة هذه؟ قال: أهدى إليها العام، ابن عم لها أضحية، فرأيتها كئيبة حزينة، مفكرة مطرقة، فقلت لها: ما لك يا معاذة؟ قالت: أنا امرأة أرملة وليس لى قيم، ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه، ويقومون بحقه، وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة، ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها، وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئًا لا منفعة فيه، ولكن المرء يعجز لا محالة، ولست أخاف من تضييع القليل، إلا أنه يجر تضييع الكثير.

أما القرن فالوجه فيه معروف، وهو أن يجعل فيه كالخطاف ويسمر فى جذع من جذوع السقف، فيعلق عليه الزبل والكيزان، وكل ما خيف عليه من الفار والنمل والسنانير، وبنات وردان والحيات، وغير ذلك. وأما المصران فإنه لأوتار المندفة وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة. وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام، فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق ثم يطبخ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام، وللعصيدة، ولغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها، فلم ير الناس وقودًا قط أصفى ولا أحسن لَهبًا منه، وإذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر، لقلة ما يخالطها من الدخان، وأما الإهاب فالجلد نفسه جراب، وللصوف وجوه لا تعد، وأما الفرث والبعر فحطب إذا جفف عجيب.

ثم قالت: بقى علينا الانتفاع بالدم، وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح، إلا أكله وشربه، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها، وإن

أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به، صار كيّة فى قلبى وقذى فى عينى، وهمًّا لا يزال يعاودنى، فلم ألبث أن رأيتها قد طلقت وتبسمت، فقلت: ينبغى أن يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم، قالت: أجل ذكرت أن عندى قدورًا شامية جددًا، وقد زعموا أنه ليس شىء أدبغ ولا أزيد فى قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم، وقد استرحت الآن إذ وقع كل شىء موقعه.

قال: ثم لقيتها بعد ستة أشهر، فقلت لها: كيف كان قديد تلك الشاة؟ قالت: بأبى أنت، لم يجئ وقد القديد بعد، لنا فى الشحم والإلية والجنوب والعظم المعرق وغير ذلك معاش، ولكل شىء إبَّان.

فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصى، ثم ضرب بها الأرض، ثم قال: لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين!

* * *

زبيدة بن حميد

وأما زبيدة بن حميد الصيرفى فإنه استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطًا، فلما قضاه بعد ستة أشهر، قضاه درهمين وثلاث حبات شعير، فاغتاظ البقال فقال: سبحان الله أنت رب مائة ألف دينار، وأنا بقال لا أملك مائة فلس، وإنما أعيش بكدى، وباستفضال الحبة والحبتين، صاح على بابك حمال، والمال لم يحضرك، وغاب وكيلك، فنقدت عنك درهمين وأربع شعيرات، فقضيتنى بعد ستة أشهر درهمين وثلاث شعيرات؟ فقال زبيدة: يا مجنون أسلفتنى فى الصيف فقضيتك فى الشتاء، وثلاث شعيرات شتوية ندية، أرزن من أربع شعيرات يابسة صيفية، وما أشك أن معك فضلاً!

* * *

وحدثنى أبو الإصبغ بن ربعى قال: دخلت عليه بعد أن ضرب غلمانه بيوم، فقلت له: ما هذا الضرب المبرح؟ وهذا الخلق السيء، هؤلاء غلمان، ولهم حرمة وكفاية وتربية، وإنما هم ولد، هؤلاء كانوا إلى غير هذا أحوج، قال: إنك لست تدرى أنهم أكلوا كل جوارشن كان عندى! قال أبو الإصبغ: فخرجت إلى رئيس غلمانه فقلت: ويلك ما لك وللجوارشن؟ وما رغبتك فيه؟ قال: جعلت فداك! ما

أقدر أن أكلمك من الجوع، إلا وأنا متكئ! الجـوارشن ما أصنع به؟ هو نفسه ليس يشبع، ولا نحتاج إلى الجوارشن؟ ونحن الذين إنما نسـمع بالشبح سماعًا من أفواه الناس، فما نصنع بالجوارشن.

واشتـد على غلمانه فى تصفيـة الماء وفى تبريده وتزميله لأصـحابه وزواره، فقال له غازى أبو مجـاهد: جعلت فداك مر بتزميل الخبز وتكثـيره فإن الطعام قبل الشراب.

وقال مرة: يا غلام هات خوان النرد وهو يريد تخت النرد، فقال له غازى: نحن إلى خوان الخبز أحوج.

وسكر زبيدة ليلة فكسـا صديقًا له قمـيصًا، فلما صار القـميص على النديم خاف البـدوات، وعلم أن ذلك من هفوات السكر، فـمضى من ساعـته إلى منزله فجعله برنكانًا لامرأتـه، فلما أصبح سأل عن القميص وتفقـده، فقيل له: إنك قد كسوته فـلانًا! فبعث إليه ثم أقـبل عليه فقال: ما علمـت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز؟ وبعد فإنى أكره أن لا يكون لى حمد، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر، فرده عـلى حتى أهبه لك صاحـيًا، عن طيب نفس، فإنى أكره أن يذهب شىء من مالى باطلاً.

فلما رآه قد صمم، أقبل عليه فـقال: يا هناه إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشىء من ذلك، فـرد القميص عافاك الله، قـال له الرجل: إنى والله قد خفت هذا بعينه، فلم أضع جنبى إلى الأرض حتى جـيبته لامرأتى، وقد زدت فى الكمين وحـذفت المقاديم، فإن أردت بعـد هذا كله أن تأخذه فـخذه، فـقال: نعم آخذه لأنه يصلح لامـرأتى كمـا يصلح لامرأتك، قال: فـإنه عند الصبـاغ. قال: فهاته، قال: ليس أنا أسلمته إليه.

فلمـا علم أنه قـد وقع قال: بأبى وأمى رسـول الله -ﷺ- حيث يـقول: «**جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه فكان مفتاحه السكر**».

* * *

ليـلى الناعطيـة

وأما ليلى الناعطية، صاحـبة الغالية من الشيعة، فإنها مـا زالت ترقع قميصًا

لها وتلبسه حتى صار القميص الرقاع، وذهب القميص الأول، ورفت كساءها ولبسته، حتى صارت لا تلبس إلا الرفو، وذهب جميع الكساء! وسمعت قول الشاعر:

إلبس قميصك ما اهتديت لجيبه فإذا أضلَّك جيبه فاستبدل

فقالت: إنى إذًا لخرقاء، أنا والله أحوص الفتق، وفتق الفتق، وأرقع الخرق وخرق الخرق.

* * *

وليد القرشى

ومضيت أنا وأبو إسحاق النظام، وعمرو بن نهيوى نريد الحديث فى الجفاف ولنتناظر فى شىء من الكلام، فمررنا بمجلس وليد القرشى، وكان على طريقنا، فلما رآنا تمشى معنا، فلما جاوزنا الخندق، وجلسنا فى فناء حائطه، وله ظل شديد السواد، بارد ناعم، وذلك لثخن الساتر واكتناز الأجزاء، ولبعد مسقط الشمس من أصل حائطه، فطال بنا الحديث فجرينا فى ضروب من الكلام، فما شعرنا إلا والنهار قد انتصف، ونحن فى يوم قائظ.

فلما صرنا فى الرجوع، ووجدت مس الشمس ووقعها على الرأس، أيقنت بالبرسام، فقلت لأبى إسحاق، والوليد إلى جنبى يسمع كلامى: الباطنة منا بعيدة، وهذا يوم منكر، ونحن فى ساعة تذيب كل شىء، والرأى أن نميل إلى منزل الوليد فنقيل فيه، ونأكل ما حضر، فإنه يوم تخفيف، فإذا أبردنا تفرقنا، وإلا فهو الموت ليس دونه شىء.

قال الوليد رافعًا صوته: أما على هذا الوجه فلا يكون، والله أبدًا، فضعه فى سويداء قلبك، فقلت له: ما هذا الوجه الذى أنكرته علينا رحمك الله، هل هاهنا إلا الحاجة والضرورة، قال: إنك أخرجته مخرج الهزء، وقلت: وكيف أخرجه مخرج الهزء وحياتى فى يدك مع معرفتى بك؟ فغضب ونتر يده من أيدينا وفارقنا. ولا والله ما اعتذر إلينا مما ركبنا به إلى الساعة، ولم أرَ من يجعل الأسى حجة فى المنع إلا هو، وإلا ما كان من أبى مازن إلى جبل العَمّىّ.

* * *

جبـل وأبـو مـازن

وكـان جبل خـرج ليـلاً من موضع كـان فـيه، فـخـاف الطائف ولـم يأمن المستقفى. فقال: لو دققت الباب على أبى مازن. فبت عنده فى أدنى بيت، أو فى دهليزه، ولـم ألزمه من مـؤنتى شيئًا، حتى إذا انصدع عمـود الصبح، خرجت فى أوائل المدلجين. فـدق عليه البـاب دق واثق ودق مـدل ودق من يخاف أن يدركـه الطائف، أو يقفوه المستقفى، وفى قلبه عز الكفاية والثقة بإسقاط المؤنة.

فلم يشك أبو مـازن أنه دق صاحب هدية. فنزل سريعًـا. فلما فـتح الباب وبصر بجبل بصـر بملك الموت. فلما رآه جبل واجمًا لا يحيـر كلمة. قال له: إنى خفت مـعرة الطائف. وعجلة المسـتقفى. فـملت إليك لأبيت عندك. فتسـاكر أبو مازن وأراه أن وجومه إنمـا كان بسبب السكر. فخلع جوارحه وخـبل لسانه وقال: سكران والله أنا سكران. قال له جـبل: كن كيف شئـت نحن فى أيام الفصل. لا شتاء ولا صيف. ولست أحتاج إلى سطح. فأغم عيالك بالحر. ولست أحتاج إلى لحاف فـأكفلك أن تؤثرنى بالدثار. وأنا كـما ترى ثمل من الشـراب، شبـعان من الطعام ومن منزل فلان خـرجت، وهو أخصب الناس رحلاً، وإنما أريد أن تدعنى أغفى فى دهليزك إغفاءه واحدة ثم أقوم فى أوائل المبكرين.

. قال أبو مازن وأرخى عينيه. وفكيه ولسانه. ثم قال: سكران والله أنا سكران لا والله ما أعقل أين أنا. والله ما أفهم مـا تقول. ثم أغلق الباب فى وجهه ودخل لا يشك أن عذره قد وضح، وأنه قد ألطف النظر، حتى وقع هذه الحيلة.

* * *

وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحنًا، أو كلامًا غـير معرب، ولفظًا معدولاً عن جهـته، فاعلمـوا إنما تركنا ذلك، لأن الأعراب يبـغض هذا الباب. ويخـرجه من حده، إلا أن أحكى كلامًا من كلام متعاقلى البخلاء، وأشحاء العلماء، كسهل بن هارون وأشباهه.

* * *

أحمد بن خلف اليزيدى

ومن طياب البخلاء، أحمد بن خلف اليزيدى. ترك أبوه فى منزله يوم مات

ألفى ألف درهم، وستمائة ألف درهم، وأربعين ومائة ألف دينار، فاقتسمها هو وأخوه حاتم قبل دفنه، وأخذ أحمد وحده ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم وسبعين ألف دينار ذهبًا عينًا، مثاقيل وزنة جيادًا، سوى العروض، فقلت له وقد ورث هذا المال كله: ما أبطأك الليلة؟ قال: لا والله إنى تعشيت البارحة فى البيت! فقلت لأصحابنا: لولا أنه بعيد العهد بالأكل فى بيته، وأن ذلك غريب منه، لما احتاج إلى هذا الاستثناء، وإلى هذه الشريطة، وأين يتعشى الناس إلا فى منازلهم، وإنما يقول الرجل عند مثل هذه المسألة: لا والله إلا أن فلانًا حبسنى، ولا والله إلا أن فلانًا عزم علىَّ، فأما ما يستثنى ويشترط، فهذا ما لا يكون إلا على ما ذكرناه قبل.

وقال لى مبتدئًا مرة عن غير مشورة، وعن غير سبب جرى: أنظر أن تتخذ لعيالك فى الشتاء من هذه المثلثة. فإنها عظيمة مبركة كثيرة النزل، وهى تنوب عن الغداء، ولها نفخة تغنى عن العشاء، وكل شىء من الإحساء فهو يغنى عن طلب النبيذ، وشرب الماء، ومن تحسى الحار عرق، والعرق يبيض الجلد، ويخرج من الجوف وهى تملأ النفس وتمنع من التشهى، وهى أيضًا تدفئ فتقوم لك فى أجوافهم مقام فحم الكانون، من خارج، وحسو طارئ يغنى عن الوقود وعن لبس الحشو. والوقود يسوِّد كل شىء وييبسه، وهو سريع فى الهضم، وصاحبه يعرض حريق، ويذهب فى ثمنه المال العظيم. وشر شىء فيه أن من تعوَّده لم يدفئه شىء سواه. فعليك يا أبا عثمان بالمثلثة، واعلم أنها لا تكون إلا فى منازل المشيخة، وأصحاب التجربة فخذها من حكيم مجرب، ومن ناصح مشفق.

وكان لا يفارق منازل إخوانه، وإخوانه مخاصيب مناويب أصحاب نفخ وترف، وكانوا يتحفونه ويدللونه ويفكهونه ويحكمونه، ولم يشكوا أنه سيدعوهم مرة، وأن يجعلوا بيته نزهة ونشوة، فلما طال تغافله وطالت مدافعته، وعرضوا له بذلك فتغافل، صرحوا له، فلما امتنع قالوا: اجعلها دعوة ليس لها أخت.

فلما بلغ منه ومنهم المجهود، اتخذ لهم طعيمًا شهيًا مليحًا، لا ثمن له ولا مؤنة فيه، فلما أكلوا وغسلوا أيديهم، أقبل عليهم فقال: أسألكم بالله الذى لا شىء أعظم منه، أنا الساعة أيسر وأغنى أو قبل أن تأكلوا طعامى، قالوا: ما نشك أنك حين كنت والطعام فى ملكك أغنى وأيسر، قال: فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة؟ قالوا: بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر، قال: فمن يلومنى على

ترك دعوة قوم قربونى من الفقر، وباعدونى من الغنى، وكلما دعوتهم أكثر، كنت من الفقر أقرب، ومن الغنى أبعد.

وفى قياسه هذا، أن من رأيه أن يهجر كل من استسقاه شربة ماء، أو تناول من حائطه تينة، ومن خليط دابته عوداً.

* * *

ومر بأصحاب الجداء وذلك فى زمان التـوليد، فأطعمه الزمان فى الرخص، وتحركت شهوته على قدر إمكانه عنده، فبعث غلاماً يقال له: ثقف وهو معروف ليشترى له جدياً، فوقف غير بعيد، فلم يلبث أن رجع الغلام يحضر، وهو يشير بيده، ويومى برأسه، أن أذهب ولا تقف، فلم يبرح، فلما دنا منه، قال: ويلك تهزأ بى كأنى مطلوب! قال: هذا أطرفه، الجدى بعشرة! أأنت.. من ذى البابة؟ مر الآن مر مر.

فإذا غلامه يرى أن من المنكر، أن يشترى جدى بعشرة دراهم، والجدى بعشرة إنما ينكر عندنا بالبصرة، لكثرة الخير ورخص السعر فأما فى العساكر فإن أنكره ذلك منكر، فإنما ينكره من طريق رخصه وقلة ثمنه، لا لغير ذلك.

ولا تقولوا الآن: قد والله أساء أبو عثمان إلى صديقه، بل ما تناوله بالسوء حتى بدأ بنفسه، ومن كانت هذه صفته، وهذا مذهبه، فغير مأمون على جليسه وأى الرجال المهذب؟ هذا والله الشنوع والتبوع، والبذاء وقلة الوفاء.

واعلموا أنى لم ألتمس بهذه الأحاديث عنه، إلا موافقته، وطلب رضاه ومحبته ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيساً من قبله، وكميناً من كمنائه، وذلك أن أحب الأصحاب إليه، أبلغهم قولاً فى أيأس الناس من قبله، وأجودهم حسماً لأسباب الطمع فى ماله.

على إنى أحسنت بجهدى، فسيجعل شكرى موقوفاً، وإن جاوز كتابى هذا حدود العراق شكر، وإلا أمسك، لأن شهوته بالقبيح عند نفسه فى هذا الإقليم، فقد أغناه عن التنويه والتنبيه على مذهبه، وكيف وهو يرى أن سهل بن هارون وإسماعيل بن غزوان، كانا من المسرفين، وأن الثورى والكندى يستوجبان الحجر.

وبلغنى أنه قال: لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله، إلا أنه لم يبتلهم بالنفقة، ولا قول العيال: هات، لعرفتم حالهم ومنزلتهم.

أجهـز علـى الجـرحـى

وحـدثنـى صـاحب لى قـال: دخـلت على فـلان بن فــلان، وإذا المائدة موضوعة، بعد، وإذا القوم قد أكلوا ورفـعوا أيديهم، فمددت يدى لآكل، فقال: أجهز على الجرحى ولا تـتعرض للأصحاء، يقول: أعرض للدجـاجة التى قد نيل منها، وللفرخ المنزوع الفخذ، فأما الصحيح فلا يتعرض له، وكذلك الرغيف الذى قد نيل منه وأصابه بعض المرق.

وقال لى هذا الرجل: أكلنا عنده يومًا وأبوه حاضر، وبنى له يجىء ويذهب فـاختلف مـرارًا. كل ذلك يرانا نأكل، فـقال الصـبى: كم تأكلون؟ لا أطعم الله بطونكم، فقال أبوه وهو جد الصبى: ابنى ورب الكعبة!

* * *

وحدثنى صـاحب مسلحة باب الكرج فـقال: قال لى صاحب الحـمام، ألا أعجبك من صالح بن عفان، كان يجىء كل سـحر فيدخل الحمام، فإذا غبت عن إجانة النورة مسح به عـانته وارفاغه، ثم يتسـتر بالمئزر، ثم يقوم فيغـسله فى غمار الناس، ثم يجىء بعـد فى مثل تلك الساعـة، فيطلى سـاقيه وبعض فـخذيه، ثم يجلس ويتزر بالمئزر، فإذا وجد غفلة أغسله، ثم يعود فى مثل ذلك الوقت فيمسح قطعة أخـرى من جسده، فلا يـزال يطلى فى كل سحر، حـتى ذهب منى بطلية، وكان لا يرى الطبخ فى القدور الشامية، ولا تبريد الماء فى الجرار المذارية، لأن هذه ترشح وتلك تنشف.

* * *

حدثنى أبو الجهجاه النوشروانى، قـال: حدثنى أبو الأحوص الشاعر، قال: كنا نفطر عند البـاسانى فكان يرفع يديه قبلنا، ويـستلقى على فراشـه ويقول: إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً.

* * *

خالـــد بـن يزيـد

وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة هو خالويه المكدي وكان قد بلغ فى البخل والتكدية، وفى كـثرة المال التى لم يبلغـها أحد، وكـان ينزل فى شق بنى تميم فلم

يعرفوه، فوقف عليه ذات يوم سائل، وهو فى مجلس من مجالسهم، فأدخل يده فى الكيس ليخرج فلسًا، وفلوس البصرة كبار، فغلط بدرهم بغلى فلم يفطن حتى وضعه فى يد السائل، فلما فطن استرده وأعطاه الفلس، فقيل له: هذا لا نظنه يحل، وهو بعد قبيح عند من عنده مال. قال: قبيح عندكم، وأما أنا فإنى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم، ليس هذا من مساكين الدراهم، هذا من مساكين الفلوس، والله ما أعرفه إلا بالفراسة.

قالوا: وإنك لتعرف المكدين؟ قال: وكيف لا أعرفهم، وأنا كنت كاجار فى حداثة سنى، ثم لم يبق فى الأرض مخطرانى، ولا مستعرض إلا فقته، ولا شحاذ ولا كاغانى، ولا بانوان ولا قرسى، ولا عواء ولا مشعب ولا فلور ولا مزيدى، ولا اسطيل إلا وقد كان تحت يدى، ولقد أكلت الزكورى ثلاثين سنة ولم يبق فى الأرض كعبى ولا مكد إلا وقد أخذت العرافة عليه حتى خضع لى إسحق قتال الحر، وبنجويه شعر الجمل، وعمرو القوقيل، وجعفر كردى كلك، و. . .[1] وحمويه عين الفيل، وشهرام حمار أيوب، و. . .[2]، وإنما أراد بهذا أن يوئسهم من ماله، حين عرف حرصهم وجشعهم وسوء جوارهم، وكان قاصًا متكلمًا، بليغًا داهيًا، وكان أبو سليمان الأعور وأبو سعيد المدائنى القاصان من غلمانه.

* * *

وصية خالد بن يزيد لابنه

وهو الذى قال لابنه عند موته: إنى قد تركت لك ما تأكله إن حفظته، وما لا تأكله إن ضيعته، ولما ورثتك من العرف الصالح، وأشهدتك من صواب التدبير، وعودتك من عيش المقتصدين، خير لك من هذا المال، وقد دفعت إليك آلة لحفظ المال عليك، بكل حيلة، ثم إن لم يكن لك معين من نفسك، لما انتفعت بشىء من ذلك، بل يعود ذلك النهى كله اعتزالاً لك وذلك المنع تهجينًا لطاعتك.

قد بلغت فى البر منقطع التراب، وفى البحر أقصى مبلغ السفن. فلا عليك ألا ترى ذا القرنين، ودع عنك مذاهب ابن شربة فإنه لا يعرف إلا ظاهر الخبر، ولو رآنى تميم الدارى لأخذ عنى صفة الروم، ولأنا أهدى من القطا، ومن دعيميص ومن رافع المخش.

---

(١) جملة بذيئة. (٢) جملة بذيئة.

إنى قد بت بالقفر مع الغول، وتزوجت السعلاة، وجاوبت الهاتف، ورغت عن الجن إلى الحن، واصطدت الشق وجاوبت النسناس وصحبنى الرئى وعرفت خدع الكاهن وتدسيس العراف، وإلى ما يذهب الخطاط والعياف، وما يقول أصحاب الأكتاف، وعرفت التنجيم والزجر والطرق والفكر. إن هذا المال لم أجمعه من القصص والتكدية، ومن احتيال النهار ومكابدة الليل. ولا يجمع مثله أبدًا إلا من معاناة ركوب البحر، أو من عمل السلطان، أو من كيمياء الذهب والفضة. قد عرفت الرأس حق معرفته وفهمت كسر الإكسير على حقيقته.

ولولا علمى بضيق صدرك، ولولا أن أكون سببًا لتلف نفسك، لعلمتك الساعة الشيء الذى بلغ بقارون، وبه تبنكت خاتون. والله ما يتسع صدرك عندى لسر صديق، كيف ما لا يحتمله عزم ولا يتسع له صدر. وخزن سر الحديث وحبس كنوز الجواهر أهون من خزن العلم.

ولو كنت عندى مأمونًا على نفسك، لأجريت الأرواح فى الأجساد، وأنت تبصر ما كنت لا تفهمه بالوصف، ولا تحقه بالذكر، ولكنى سألقى عليك علم الإدراك، وسبك الرخام، وصنعة الفسيفساء وأسرار السيوف القلعية، وعقاقير السيوف اليمانية، وعمل الفرعونى وصنعة التلطيف على وجهه، إن أقامنى الله من صرعتى هذه.

ولست أرضاك وإن كنت فوق البنين، ولا أثق بك وإن كنت لاحقًا بالآباء، لأنى لم أبالغ فى محبتك

إنى قد لابست السلاطين والمساكين، وخدمت الخلفاء والمكدين. وخالطت النساك والفتاك، وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذكر. وحلبت الدهر أشطره، وصادفت دهرًا كثير الأعاجيب.

فلولا أنى دخلت من كل باب، وجريت مع كل ريح، وعرفت السراء والضراء، حتى مثلت لى التجارب عواقب الأمور، وقربتنى من غوامض التدبير، لما أمكننى جمع ما أخلفه لك، ولا حفظ ما حبسته عليك، ولم أحمد نفسى على جمعه، كما حمدتها على حفظه، لأن بعض هذا المال لم أنله بالحزم والكيس.

قد حفظته عليك من فتنة الأبناء، ومن فتنة النساء، ومن فتنة الثناء، ومن فتنة الرياء، ومن أيدى الوكلاء فإنهم الداء العياء.

ولست أوصيك بحفظه لفضل حبى لك، ولكن لفضل بغضى للقاضى. إن الله جل ذكره لم يسلط القضاة على أموال الأولاد، إلا عقوبة للأولاد، لأن أباه إن كان غنيًّا قادرًا أحب أن يريه غناه وقدرته، وإن كان فقيرًا عاجزًا أحب أن يستريح من شينه، ومن حمل مؤنته، وإن كان خارجًا من الحالين أحب أن يستريح من مداراته.

فلا هم شكروا من جمع لهم وكفاهم ووقاهم وغرسهم، ولا هم صبروا على من أوجب الله حقه عليهم. والحق لا يوصف عاجله بالحلاوة، كما لا يوصف عاجل الباطل بالمرارة، فإن كنت منهم فالقاضى لك، وإن لم تكن منهم فالله لك.

فإن سلكت سبيلى، صار مال غيرك وديعة عندك، وصرت الحافظ على غيرك، وإن خالفت سبيلى صار مالك وديعة عند غيرك. وصار غيرك الحافظ عليك، وإنك يوم تطمع أن تضيع مالك ويحفظه غيرك، لجشع الطمع مخذول الأمل.

احتال الآباء فى حبس الأموال على أولادهم بالوقف، فاحتالت القضاة على أولادهم بالاستبحاث. ما أسرعهم إلى إطلاق الحجر، وإلى إيناس الرشد إذا أرادوا الشراء منهم، وأبطأهم عنهم إذا أرادوا أن تكون أموالهم جائزة لصنائعهم.

يا ابن الخبيثة! إنك وإن كنت فوق أبناء هذا الزمن، فإن الكفاية قد مسختك ومعرفتك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك، وزاد فى ذلك أن كنت بكرى وعجزة أمك.

أنا لو ذهب مالى لجلست قاصًّا، أو طفت فى الآفاق -كما كنت- مكديًا اللحية وافرة بيضاء، والحلق جهير طل، والسمت حسن، والقبول علىّ واقع. إن سألت عينى الدمع أجابت. والقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير، وصرت محتالا بالنهار، واستعملت صناعة الليل، أو صرت قاطع طريق، أو صرت للقوم عينا، ولهم مجهزا!.

سل عنى صعاليك الجبل، وزواقيل الشام، وزط الآجام، ورعوم الأكراد، ومردة الأعراب، وفتاك نهر بط، ولصوص القفص.

وسل عنى القيقانية والقطرة وسل عنى المتشبهة وذباحى الجزيرة كيف بطشى

ساعة البطش، وكيف حيلتى ساعة الحيلة، وكيف أنا عند الجولة، وكيف ثبات جنانى عند رؤية الطليعة، وكيف يقظتى إذا كنت ربيئة، وكيف كلامى عند السلطان إذا أخذت، وكيف صبرى إذا جلدت، وكيف قلة ضجرى إذا حبست، وكيف رسفانى فى القيد إذا أثقلت!.

فكم من ديماس قد نقبته.. وكم من مطبق قد أفضيته، وكم من سجن قد كابدته. لم تشهدنى وكردويه الأقطع أيام سندان، ولا شهدتنى فى فتنة سرنديب، ولا رأيتنى أيام حرب المولتان، سل عنى الكتيفية والخليدية والخربية والبلالية، وبقية أصحاب صخر ومصخر، وبقية أصحاب فاس وراس ومقلاس، ومن لقى أزهر أبا النقم. كان آخر من صادفنى حمدويه أبو الأرطال. وأنا مجيب مردويه بن أبى فاطمة، وأنا خلعت بنى هانئ. وأنا أول من شرب الغربى حارًا، والبزيل باردًا، وأول من ضرب الشاهسبرم على ورق القرع، وأول من لعب باليرمع فى البدو، وأسقط الدفّ المربّع من بين الدّفاف. وما كان النقاب إلا هدًّامًا حتى نشأت، وما كان الاستقفاء إلا استلابًا حتى بلغت.

وأنت غلام لسانك فوق عقلك، وذكاؤك فوق حزمك، لم تعجمك الضراء، ولم تزل فى السراء، والمال واسع، وذرعك ضيق، وليس شىء أخوف عليك عندى، من حسن الظن بالناس، فإنهم شمالك على يمينك. وسمعك على بصرك، وخف عباد الله، على حسب ما ترجو الله، فأول ما وقع، فى روعى، أن مالى محفوظ على، وأن النماء لازم لى، وأن الله سيحفظ عقبى من بعدى.

إنى لما غلبتنى يومًا شهوتى. وأخرجت يومًا درهمًا لقضاء وطرى، ووقعت عينى على سكته وعلى اسم الله المكتوب عليه، قلت فى نفسى: إنى إذًا لمن الخاسرين الضالين، لئن أنا أخرجت من يدى ومن بيتى، شيئًا عليه لا إله إلا الله، أخذت بدله شيئًا ليس عليه شىء، والله إن المؤمن لينزع خاتمه لأمر يريده، وعليه «حسبى الله» أو «توكلت على الله» فيظن أنه قد خرج من كنف الله جل ذكره، حتى يرد الخاتم فى موضعه وإنما هو خاتم واحد، وأنا أريد أن أخرج فى كل يوم درهمًا عليه الإسلام كما هو! إن هذا لعظيم!.

ومات من ساعته وكفنه ابنه ببعض خلقانه، وغسله بماء البئر، ودفنه من غير أن يضرح له أو يلحد له، ورجع.

فلما صار فى المنزل، نظر إلى جرة خضراء معلقة، قال: أى شىء فى هذه الجرة؟ قالوا: ليس اليوم فيها شىء، قال: فأى شىء كان فيها قبل اليوم؟ قالوا: سمن، قال: وما كان يصنع به؟ قالوا: كنا فى الشتاء نلقى له فى البرمة شيئًا من دقيق نعمله له، فكان ربما برقه بشىء من سمن، قال: تقولون ولا تفعلون! السمن أخو العسل، وهل أفسد الناس أموالهم إلا فى السمن والعسل! والله لولا أن للجرة ثمنًا لما كسرتها إلا على قبره! قالوا: فخرج فوق أبيه وما كنا نظن أن فوقه مزيدًا!!



المخطرانى الذى يأتيك فى زى ناسك، ويريك أن بابك قد قور لسانه من أصله، لأنه كان مؤذنًا هناك، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب، فلا ترى له لسانًا ألبتة، ولسانه فى الحقيقة كلسان الثور، وأنا أحد من خدع بذلك، ولابد للمخطرانى، أن يكون معه واحد يعبر عنه، أو لوح أو قرطاس، قد كتب فيه شأنه وقصته.

والكاغانى الذى يتجنن ويتصارع ويزبد، حتى لا يشك أنه مجنون لا دواء له، لشدة ما ينزل بنفسه، وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته.

والبانوان الذى يقف على الباب ويسل الغلق، ويقول: بانوا، وتفسير ذلك بالعربية: يا مولاى!.

والقرسى الذى يعصب ساقه وذراعه عصبًا شديدًا، ويبيت على ذلك ليلة، فإذا تورم واختنق الدم، مسحه بشىء من صابون ودم الأخوين، وقطر عليه شيئًا من سمن، وأطبق عليه خرقة، وكشف بعضه، فلا يشك من رآه أن به الأكلة أو بلية شبه الأكلة.

والمشعب الذى يحتال للصبى حين يولد، بأن يعميه أو يجعله أعشم أو أعضد، ليسأل الناس به أهله، وربما جاءت به أمه وأبوه، ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل، لأنه يصير حينئذ عقدة وغلة، فإما أن يكتسبا به، وإما أن يكرياه بكراء معلوم، وربما أكروا أولادهم ممن يمضى إلى إفريقية. فيسأل بهم الطريق أجمع، بالمال العظيم، فإن كان ثقة مليئًا، وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً.

والفلور الذى يحتال لخصيته، حتى يريك أنه آدر. وربما أراك أن بها سرطانًا أو خراجًا أو غربًا. أو ربما أرى ذلك فى دبره بأن يدخل منه حلقومًا ببعض الرئة.

والكاغان الغلام المكدى إذا واجر، وكان عليه مسحة جمال، وعمل العملين جميعًا.

والعـواء الذى يسأل بـين المغرب والعـشـاء، وربما طرب إن كان له صـوت حسن، وحلق شجى.

والأسطيل هو المتعامى، إن شاء أراك أنه منخسف العينين، وإن شاء أراك أن بهما ماء، وإن شاء أراك أنه لا يبصر للخسف ولريح السبل.

والمزيدى الذى يدور، ومعه الدريهمات، ويقول: هذه دراهم قد جمعت لى فى ثمن قطيفة فـزيدونى فيها يرحـمكم الله، وربما احتمل صبيًّا على أنه لقيط، وربما طلب فى الكفن.

والمستعرض الذى يستعرضك وهو ذو هيـئة وفى ثياب صالحة وكأنه قد هاب من الحياء، ويخاف أن يراه معرفة ثم يعترضك اعتراضًا ويكلمك خفيًا.

والمقدس الذى يقف على الميت، يسأل فى كفنه، ويقف فى طريق مكة على الحمار الميت، والبعير الميت، يدعى أنه كان له، ويزعم أنه قد أحصر وقد تعلم لغة الخراسانية، واليـمانية والإفريقية، وتعـرف تلك المدن والسكك والرجال وهو متى شاء كـان من إفريقـيا، ومتى شـاء كان من أهل فرغـانة، ومتى شـاء كان من أى مخاليف اليمن شاء!

والمكدى صاحب الكداء.

والكعبى أضيفُ إلى أبى كعب الموصلى وكان عَريفهمْ بعد خالويه سنة على ماء.

والزكورى هو خبز الصدقة كان على سجنى أو على سائل.

هذا تفسير ما ذكر خالويه فقط، وهم أضعاف ما ذكرنا فى العدد، ولم يكن يجوز أن نتكلف شيئًا، ليس من الكتاب فى شىء.

* * *

طرف شتى

رفع يحيى بن عبد الله بن خالد بن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد رغيفًا من خوانه بيده، ثم رطله والقوم يأكلون. ثم قال: يزعمون أن خبزى صغار أى ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين؟.

* * *

وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام. وقطرب النحوى، وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد، على خوان فلان بن فلان، والخوان من جزعة، والغضار صينى ملمع أو خلنجية كيماكية، والألوان طيبة شهية، وغذية قدية، وكل رغيف فى بياض الفضة، كأنه البدر، وكأنه مرآة مجلوة. ولكنه على قدر عدد الرءوس.

فأكل كل إنسان رغيفه إلا كسرة. ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم. ولم يغذوا بشىء فيتموا أكلهم. والأيدى معلقة، وإنما هم فى تنقير وتنتيف.. فلما طال ذلك عليهم، أقبل الرجل على أبى الفتح، وتحت القصعة رقاقة، فقال: يا أبا الفتح خذ ذلك الرغيف فقطعه وقسمه على أصحابنا، فتغافل أبو الفتح، ثم أعاد عليه القول فتغافل، فلما أعاد القول الرابعة، قال: ما لك ويلك لا تقطعه بينهم؟ قطع الله أوصالك، قال: تبتلى على يدى غيرى أصلحك الله، فخجلناه مرة وضحكنا مرة وما ضحك صاحبنا ولا خجل.

* * *

وزرته أنا والمكى وكنت أنا على حمار مكارى، والمكى على حمار مستعار فصار الحمار إلى أسوأ من حال المذود فكلم المكى غلمانه، فقال: لا أريد منكم التبن فما فوقه، أسقوه ماء فقط، فسقوه ماء بئر فلم يشربه الحمار، وقد مات عطشًا.

فأقبل المكى عليه فقال: أصلحك الله إنهم يسقون حمارى ماء بئر، ومنزل صاحب الحمار على شارع دجلة، فهو لا يعرف إلا العذب، قال: فأمزجوه له يا

غلام، فمزجوه فلم يشربه، فأعاد المسألة، فأمكنه من أذن من لا يسمع إلا ما يشتهى.

* * *

وقال لى مرة: يا أخى إن ناسًا من الناس يغمسون اللقمة إلى أصبارها فى المرى فأقول: هؤلاء قوم يحبون الملوحة ولا يحبون الحامض، فما ألبث أن أرى أحدهم يأخذ حرف الجرذقة، فيغمسها فى الخل الحاذق، ويغرقها فيه، وربما رأيت أحدهم يمسكها فى الخل بعد التغرق ساعة، فأقول هؤلاء قوم يجمعون حب الحموضة إلى حب الملوحة، ثم لا ألبث أن أراهم يصنعون مثل ذلك بالخردل، والخردل لا يرام، قل لى: أى شىء طبائع هؤلاء، وأى ضرب هم، وما دواءهم؟ وأى شىء علاجهم؟

فلما رأيت مذهبه وحمقه، وغلبة البخل عليه، وقهره له، قلت: ما لهم عندى علاج هو أنجح فيهم من أن يمنعوا الصباغ كله قال: لا والله إن هو غيره؟

* * *

وصديق لنا آخر كنا قد ابتلينا بمؤاكلته، وقد كان ظن أنَّا قد عرفناه بالبخل على الطعام، وهجس ذلك فى نفسه وتوهم أنَّا قد تذاكرنا أمره، فكان يتزيد فى تكثير الطعام. وفى إظهار الحرص، على أن يؤكل، حتى قال: من رفع يده قبل القوم غرمناه ديناراً، فيرى بعضهم إن غرم ديناراً أولى، فذلك منه محتمل فى رضا نفسه وما يرجو من نفع ذلك له.

* * *

ولقد خبرنى خباز لبعض أصحابنا، أنه جلده على إنضاج الخبز، وأنه قال له: أنضج خبزى الذى وضع بين يدى، وأجعل خبز من يأكل معى، على مقدار بين المقدارين، وأما خبز العيال والضيف فلا تقربنه من النار، إلا بقدر ما يصير العجين رغيفًا، وبقدر ما يتماسك فقط. فكلفه العويص، فلما أعجزه ذلك جلده جلد الزانى الحر!.

فحدثت بهذا الحديث عبد الله العروضى، فقال: ألم تعرف شأن الجدى؟ ضرب الشواء ثمانين سوطًا لمكان الإنضاج! وذلك أنه قال له: ضع الجدى فى

التنور حين تضع الخوان، حتى أستبطئك أنا فى إنضاجه، وتقول أنت: بقى قليل! ثم تجيئنا به وكأنى قد أعجلتك! فإذا وضع بين أيديهم غير منضج، احتسبت عليهم بإحضار الجدى. فإذا لم يأكلوه، أعدته إلى التنور، ثم أحضرتناه الغد باردًا. فيقوم الجدى الواحد مقام جديين! فجاء به الشواء يومًا نضيجًا. فعمل فيه القوم. فجلده ثمانين جلدة جلد القاذف الحرة.

* * *

عـــلى الأســـوارى

حدثنى أحمد بن المثنى عن صديق لى وله، ضـخم البدن، كثير العلم فاشى الغلة، عظيم الولايات، أنه إذا دعى على مائدته بفضل دجـاجة أو بفضل رقاق أو غيـر ذلك رد الخادم مع الخـباز إلى القـهرمـان حتى يصك له بذلك إلـى صاحب المطبخ!

ولقد رأيته مرة وقد تناول دجاجة فشقها نصفين. فألقى نصفها إلى الذى عن يمينه. ونصفهـا إلى الذى عن شماله ثم قال: يا غلام جئنى بواحـدة رخصة، فإن هذه كانت عضلة جدًّا، فحسبت أن أقل مـا عند الرجلين، أن لا يعود إلى مائدته أبدًا فوجدتهما قد فخرا على بما حباهما به من ذلك دونى.

وكانوا ربما خصوه. فوضعوا بين يديه الدُّرَّاجة السمينة، والدجاجة الرخصة، فانطفأت الشمعة فى ليلة من تلك الـليالى فأغار على الأسوارى على بعض ما بين يديه، واغتنم الظلمة وعمل على أن الليل أخفى للويل! ففطن له وما هو بالفطن، إلا فى هذا الباب. وقال: كذلك الملوك كانت لا تأكل مع السوقة.

وحدثـنى أحمد بـن المثنى أنهم كانوا يعـمدون إلى الجـراذق التى ترفع عن مائدته فما كان منها ملطخًا دلك دلـكًا شديدًا، وما كان منها قد ذهب جانب منه، قطع بسكين من ترابيـع الرغيف مـثل ذلك، لئـلا يشك من رآه أنهم قـد تعمـدوا ذلك، وما كان من الأنصاف والأرباع، جعل بعضـه للثريد وقطع بعضه كالأصابع وجعل مع بعض القلايا.

* * *

ولقد رأيت رجلاً ضـخمًا، فخم اللفظ، فخم المعـانى، تربية فى ظل ملك

مع علم جم، ولسان عضب ومعرفة بالغامض من العيوب، والدقيق من المحاسن مع شدة تسرع إلى أعراض الناس، وضيق صدر بما يعرف من عيوبهم، وأن ثريدته لبلقاء، إلا أن بياضها ناصع، ولونها الآخر أصهب، فرأيت ذلك مرة أو مرتين.

وكنت قد هممت قبل ذلك، أن أعاتبه على الشيء يستأثر به، ويخص به وأن أحتمل ثقل تلك النصيحة وبشاعتها في حظه، وفي النظر له. ورأيت أن ذلك لا يكون إلا من حاق الإخلاص، ومن فرط الإخاء بين الإخوان. فلما رأيت البلقة هان على التحجيل والغرة. ورأيت أن ترك الكلام أفضل، وأن الموعظة لغو.

وقد زعم أبو الحسن المدائنى، أن ثريدة مالك بن المنذر، كانت بلقاء، ولعل ذلك أن يكون باطلاً. وأما أنا، فقد رأيت بعينى من هذا الرجل ما أخبرك به وهو شيء لم أره إلا فيه، ولا سمعت به فى غيره.

ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين، ولا غيرهم من المستورين فى شيء. أما الصاحب فإنا لا نسميه لحرمته، وواجب حقه، والآخر لا نسميه ليستر الله عليه، ولما يجب لمن كان فى مثل حاله، وإنما نسمى من خرج من هاتين الحالين ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً ورأيناه يتظرف، ويجعل ذلك الظرف سلماً إلى منع شينه.

* * *

أبى جعفر الطرسوسى

ولم أرَ مثل أبى جعفر الطرسوسى، زار قوماً فأكرموه وطيبوه، وجعلوا فى شاربه وسبلته غالية فحلك بها شفته العليا، فأدخل إصبعه، فحكها من باطن الشفة مخافة أن يأخذ إصبعه من الغالية شيئاً إذا حكها من فوق. وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينك، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ولا يأتى لك على كنهه وعلى حدوده وحقائقه.

* * *

أبو محمد الخزامى

وأما أبو محمد الخزامى، عبد الله بن كاسب، كاتب مويس، وكاتب داود ابن أبى داود، فإنه كان أبخل من برأ الله، وأطيب من برأ الله، وكان له فى البخل

كلام، وهو أحـد من ينصره ويفضله ويـحتج له، ويدعو إليـه. وأنه رآني مرة في تشرين الأول وقد بكر البرد شيـئًا، فلبست كساءً لي قومسيًا خـفيفًا، قد نيل منه، فقال لي: مـا أقبح السرف بالعاقل، وأسمج الجهـل بالحكيم، ما ظننت أن إهمال النفس وسوء السـياسة، بلغ بك ما أرى، قلت: وأي شيء أنكرت منـا مذ اليوم؟ وما كان هذا قولك فينا بالأمس، فقـال: لبسك هذا الكساء قبل أوانه، قلت: وقد حدث من البـرد بمقداره، ولو كان هذا البرد الحـادث في تموز وآب لكان إبَّانًا لهذا الكساء، قال: إن كان ذلك كذلك فاجعل بدل هذه المبطنة جبة محشوة، فإنها تقوم هذا المقام، وتكون قـد خرجت من الخطأ فأما لبس الصـوف اليوم فهو اليـوم غير جائز.

قلت: ولِمَ؟ قال: لأن غـبار آخر الصيف يتـداخله، ويسكن في خلله، فإذا أمطر الناس وندى الهواء، وابـتل كل شيء، ابتل ذلك الغبار، وإنما الغـبار تراب، إلا أنه لبـاب التراب، وهو مـالح وينقبض عنـد ذلك عليه الكسـاء ويتكرش لأنه صوف فتنضم أجـزاؤه عليه فيأكله أكل القـادح، ويعمل فيه عـمل السوس، ولهو أسرع فـيه من الأرضـة، في الجزوع النجـرانية، ولكن آخـر لبسه، حـتى إذا مطر الناس، وسكن الغـبار وتلبـد التراب، وحط المطر مـا كان في الهـواء من الغـبار وغسله وصفاه، فألبسه حينئذ على بركة الله.

وكان يقع إلى عـياله بالكوفة كل سنة مرة، فـيشترى لهم من الحـب مقدار طبـيخـهم، وقوت سـنتهم، فـإذا نظر إلى حب هذا وإلى حب هذا، وقـام على سعره، اكتال من كل واحد منها كيلة مـعلومة بالميزان، واشترى أثقلها وزنًا، وكان لا يختار على البلدى والموصلي شيئًا، إلا أن يتقارب السعر، وكان على كل حال، يفر من الميسـاني إلا أن يضطر إليه، ويقول: هو ناعم ضعـيف ونار المعدة شيطان فإنما ينبغي لنا أن نطعم الحجر وما أشبه الحجر!

وقلت له مـرة: علمت أن خبـز البلدى ينبت عليـه شبيه بالطين والتـراب والغبار المتراكم؟ قـال: حبذا ذلك من خبز، وليته قد أشـبه الأرض بأكثر من هذا المقدار! وكان إذا كـان جديد القميص ومغـسوله، ثم أتوه بكل بخور في الأرض، لم يتبخر! مخافة أن يسود دخان العود بياض قميصه، فإن اتسخ فأتى بالبخور، لم يرض بالتبـخر واستـقصاء ما في العـود من القتار، حـتى يدعو بدهن فـيمسح به صدره وبطنه، وداخلة إزارة، ثم يتبـخر ليكون أعلق للبخور! وكان يقـول: حبذا

الشتاء فإنه يحفظ عليك رائحة البخور، ولا يحمض فيه النبيذ إن ترك مفتوحًا، ولا يفسد فيه مرق إن بقى أيامًا، وكان لا يتبخر إلا فى منازل أصحابه، فإذا كان فى الصيف دعا بثيابه فلبسها على قميصه، لكيلا يضيع من البخور شيء.

وقال مرة: إن للشيب سهكة وبياض الشعر هو موته، وسواده حياته، إلا أن موضع دبرة الحمار الأسود لا ينبت إلا أبيض، والناس لا يرضون منا فى هذا العسكر إلا بالعناق واللثام، والطيب غال وعادته رديئة، وينبغى لمن كان أيضًا عنده أن يحرسه ويحفظه من عياله، وإن العطار ليختمه على أخص غلمانه.

فلستت أرى شيئًا هو خير من اتخاذ مشط صندل، فإن ريحه طيبة، والشعر سريع القبول منه، وأقل ما يصنع أن ينفى سهك الشيب، فصرنا فى حال لا لنا ولا علينا، فكأن عطر الحزامى إلى أن فارق الدنيا مشط صندل، إلا أن يطيبه صديق!.

واستسلف من على الأسوارى مائة درهم، فجاءنى وهو حزين منكسر، فقلت له: إنما يحزن من لا يجد بدًا من إسلاف الصديق، مخافة ألا يرجع إليه ماله، ولا يعد ذلك هبة منة، أو رجل يخاف الشكية، فهو إن لم يسلف كرمًا أسلف خوفًا. وهذا باب، الشهرة فيه هى قرة عينك، وأنا واثق باعتزامك وتصميمك، وبقلة المبالاة بتبخيل الناس لك، فما وجه انكسارك واغتمامك؟

قال: اللهم غفرًا ليس ذاك بى، إنما بى أنى قد كنت أظن أن أطماع الناس قد صارت بمعزل عنى، وآيسة منى. وإنى قد أحكمت هذا الباب وأتقنته وأودعت قلوبهم اليأس، وقطعت أسباب الخواطر، فأرانى واجدًا منهم..(١)، إن من أسباب إفلاس المرء، طمع الناس فيه، لأنهم إذا طمعوا فيه احتالوا له الحيل ونصبوا له الشرك، وإذا يئسوا منه فقد أمن وهذا المذهب من على استضعاف شديد، وما أشك أنى عنده غمر، وأنى كبعض من يأكل ماله، وهو مع هذا خليط وعشير، وإذا كان مثله لم يعرفنى، ولم يتقرر عنده مذهبى، فما ظنك بالجيران؟ بل ما ظنك بالمعارف، أرانى أنفخ فى غير فحم، وأقدح بزند مصلد ما أخوفنى أن أكون قد قصد إلى بقول، ما أخوفنى أن يكون الله فى السماء قد قصد إلى أن يفقرنى!

---

(١) العبارة ناقصة فى أصول الكتاب.

قال: ويقولون ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك، فما يقولون إن كان أقصر منى أليس يتخبل فى قميصى، وإن كان طويلاً جداً وأنا قصير جداً فلبسه أليس يصير آية للسائلين، فمن أسوأ أثر على صديقه، ممن جعله ضحكة للناس، ما ينبغى لى أن أكسوه، حتى أعلم أنه فيه مثلى، ومتى يتفق هذا؟ وأنى ذلك محيا وممات!.

وكان يقول: أشتهى اللحم الذى قد تهرأ، وأشتهى أيضًا الذى فيه بعض الصلابة، وقلت له مرة: ما أشبهك بالذى قال: أشتهى لحم دجاجتين، قال: وما تصنع بذلك القائل: هو ذا أنا أشتهى لحم دجاجتين، واحدة خلاسة مسمنة، وأخرى خوامزكه رخصة.

وقلت له مرة: قد رضيت بأن يقال: عبد الله بخيل، قال: لا أعدمنى الله هذا الاسم، قلت: وكيف؟ قال: لا يقال فلان بخيل، إلا وهو ذو مال، فسلم إلىَّ المال وادعنى بأى اسم شئت، قلت: ولا يقال أيضًا فلان سخى، إلا وهو ذو مال، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال، واسم البخل يجمع المال والذم، فقد اختار أخسهما وأوضعهما، قال: وبينهما فرق، قلت: فهاته، قال: فى قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال فى ملكه، وفى قولهم سخى إخبار عن خروج المال من ملكه، واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم، واسم السخى اسم فيه تضييع وحمد، والمال زاهر نافع مكرم لأهله معز، والحمد ريح وسخرية، واستماعك له ضعف وفسولة. وما أقل غناء الحمد والله عنه، إذا جاع بطنه وعرى جلده، وضاع عياله، وشمت به كل من كان يحسده!.

وكنا عند داود بن أبى داود بواسط، أيام ولايته كسكر، فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق دبس، فقسمها بيننا، فكل ما أخذ منها الخزامى أعطى غيره، فأنكرت ذلك من مذهبه، ولم أعرف جهة تدبيره، فقلت للمكى: قد علمت أن الخزامى يجزع من الإعطاء وهو عدوه، فأما الأخذ فهو ضالته وأمنيته، وأنه لو أعطى أفاعى سجستان، وثعابين مصر، وحيات الأهواز، لأخذها إذا كان اسم الأخذ واقعًا عليها. فعساه أراد التفضيل فى القسمة. قال: أنا كاتبه وصداقتى أقدم، وما ذلك به. وإن ها هنا أمرًا ما نقع عليه. فلم يلبث أن دخل علينا، فسألته عن ذلك فتعصر قليلاً. ثم باح بسره، قال: وضيعته أضعاف ربحه، وأخذ

عندى من أسباب الإدبار، قلت: أول وضائعه احتمال الشكر، قال: هذا لم يخطر لى قط على بال، قلت: فهات إذًا ما عندك.

قال: أول ذلك كراء الحمال، ثم هو على خطر حتى يصير إلى المنزل، فإذا صار إلى المنزل، صار سببًا لطلب العصيدة والأرز، والبستندود فإن بعته فرارًا من هذا صيرتمونى شهرة، وتركتمونى عنده آية، وإن أنا حبسته فى العصائد وأشباه العصائد، وجذب ذلك شراء السمن، ثم جذب السمن غيره، وصار هذا الدبس أضر علينا من العيال.

وإن أنا جعلته نبيذًا احتجت إلى كراء القدور، وإلى شراء الحب وإلى شراء الماء وإلى كراء من يوقد تحته، وإلى التفرغ له فإن وليت ذلك الخادم أسود ثوبها وغرمنا ثمن الأشنان والصابون، وازداد فى الطمع على قدر الزيادة فى العمل، فإن فسد ذهبت النفقة باطلاً، ولم نستخلف منها عوضًا، بوجه من جميع الوجوه لأن خل الداذى يخضب اللحم، ويغير الطعم ويسود المرق، ولا يصلح إلا للاصطباغ، وهذا إذا استحال خلاً وأكثر ذلك أن يحول عن النبيذ ولا يصير إلى الخل، وإن سلم. وأعوذ بالله، وجاد وصفًا، لم نجد بدًّا من شربه، ولم تطب أنفسنا بتركه.

فإن قعدت فى البيت أشرب منه لم يكن إلا بترك سلاف الفارسى المعسل، والدجاج المسمن، وجداء كسكر، وفاكهة الجبل، والنقل الهش، والريحان الغض، عند من لا يغيض ماله، ولا تنقطع مادته، وعند من لا يبالى على أى قطرية سقط، مع فوت الحديث المؤنس، والسماع الحسن.

وعلى أنى إن جلست فى البيت أشربه، لم يكن لى بد من واحد، وذلك الواحد لابد له من دريهم لحم، ومن طسوج نقل، وقيراط ريحان، ومن أبزار للقدر، ومن حطب للوقود، وهذا كله غرم، وهو بعد هذا شؤم وحرفة، وخروج من العادة الحسنة.

فإن كان ذلك النديم غير موافق، فأهل الحبس أحسن حالاً منى، وإن كان «وأعوذ بالله»! موافقًا فقد فتح الله على مالى بابًا من التلف، لأنه حينئذ يسير فى مالىَ كسيرى فى مال من هو فوقى.

وإذا علم الصديق أن عندى زائرًا ونبيذًا، دق الباب دق المدل، فإن حجبناه فبلاء، وإن أدخلناه فشقاء، وإن بدا لى فى استحسان حديث الناس، كما يستحسنه

منى من أكــون عنده، فقــد شــاركت المسرفين، وفــارقت إخــوانى من المصلحين، وصرت من إخوان الشياطين.

فإذا صرت كذلك، فقد ذهب كسبى مــن مال غيرى، وصار غيرى يكتسب منى، وأنا لو ابتليت بأحــدهما، لم أقم له فكيف إذا ابتليــت بأن أعطى ولا آخذ، أعوذ بالله من الخــذلان بعد العــصمــة، ومن الحور بعد الكور، ولــو كان هذا فى الحداثة كــان أهون! هذا الدوشاب، دســيس من الحرفــة، وكيد من الــشيطان، أو خدعة من الحسود، هو الحلاوة التى تعقب المرارة ما أخوفنى أن يكون أبو سليمان، قد ملَّ منادمتى، فهو يحتال إلى الخيل.

* * *

وكنا مرة فى موضع حــشمة، وفى جماعة كثــيرة، والقوم سكوت والمجلس كبير وهو بعيد المكان منى، وأقبل على المكى والقوم يسمعون فقال: يا أبا عثمان، من أبخل أصــحــابنا؟ قلت: أبــو الهذيــل، قال: ثــم من؟ قلت: صــاحب لنا لا أسميه، فقال الخزامى من بعيد: إنما يعنينى.

ثم قال: حــسدتم للمقــتصدين تدبيــرهم، ونماء أموالهم، ودوام نعمــتهم، فالتمســتم تهجينهم بهذا اللقب، وأدخلتم المكر عليهم بهــذا النبز، تظلمون المتلف لماله، باسم الجود، إدارة له عن شينه، وتظلمــون المصلح لماله باسم البخل، حسداً منكم لنعمته، فلا المفسد ينجو، ولا المصلح يسلم.

* * *

خالد بن عبد الله القسرى

قال أبو عــبيدة: بلغ خــالد بن عبد الله القــسرى، أن الناس يرمــونه بالبخل على الطعام، فتكلم يومًــا، فما زال يدخل كلامًا فى كلام، حــتى أدخل الاعتذار من ذلك فى عرض كــلامه، فكان مما احــتج به فى شدة رؤية الأكيــل عليه، وفى نفوره منه أن قال: نظر خالد المهزول فى الجاهلية يومًا، إلى ناس يأكلون وإلى إبل تجتر، فقال لأصــحابه: أترونى بمثل هذه العين التى أرى بها الناس والإبل؟ قالوا: نعم فحلف بإلهــه أن لا يأكل بقلاً، وإن مات هزالاً، وكان يغتــذى اللبن ويصيب من الشــراب، فأضــمره ذلك وأيبــسه، فلمــا دق جســمه، واشــتد هزاله، ســمى

المهـزول، ثم قال خـالد: ها أنذا مبـتلى بالمضغ ومـحمـول على تحريك اللحـيين ومضطر إلى مناسبة البـهائم، ومحتمل ما فى ذلك من السـخف والعجز، ما بالى احـتملتـه فيـمن لى منه بد، ولى عنه مـذهب، ليأكل كل امـرئ فى منزله، وفى موضع أمنه وأنسه، ودون ستره وبابه.

هذا ما بلغنا عن خالد بن عبد الله القسرى واحتجاجه.

* * *

خـالـد المهـــزول

فأما خالد المهزول فهو أحد الخـالدين، وهما سيدا بنى أسد وفيه وفى خالد ابن نضله يقول الأسود بن يعفر:

وقبلك مـات الخالدان كـلاهما عميد بنى جحوان وابن المضلل

* * *

الحــارثــى

وقيل للحــارثى بالأمس: والله إنك لتصنع الطعــام فتجـيده، وتعظم عليك النفقة وتكثر منه، وإنك لتغالى بالخباز والطباخ والشواء والخباص، ثم أنت مع هذا كله لا تشهده عدواً لتغمه، ولا وليًا فتـسره، ولا جاهلاً لتعرفه، ولا زائرًا لتعظمه ولا شاكرًا لتـثبته، وأنت تعلم حين يتنحى من بين يديك، ويغيب عن عـينيك فقد صار نهبًا مقـسمًا، ومتوزعًا مستهلـكًا، فلو أحضرته من ينفع شكره، ويبقى على الأيام ذكره، ومن يمتعك بالحـديث الحسن والاستمتاع، ومن يمتـد به الأكل ويقصر به الدهر، لكان ذلك أولى بك، وأشبه بالذى قدمته يدك. فلِمَ تبيح مصون الطعام لمن لا يحمدك، ومن إن حمدك لم يحـسن أن يحمدك؟ ومن لا يفصل بين الشهى القدِّى، وبين الغليظ الزهم.

قال: يمنعنى مـن ذلك ما قال أبو الفـاتك، قالوا: ومن أبو الفـاتك؟ قال: قاضى الفتـيان، وإنى لم آكل مع أحد قط إلا رأيت منه بعض مـا ذمه، وبعض ما شنعه وقـبحه، فشىء يقـبح بالشطار، فما ظنك به إذا كان فى أصـحاب المروءات وأهل البيوتات؟

قالوا: فما قال أبو الفاتك؟ قـال: قال أبو الفاتك: الفتى لا يكون نشافًا ولا نشالاً ولا مـرسالاً ولا لكامًـا ولا مصـاصًا ولا نفاضًـا ولا دلاكًا ولا مـقورًا ولا مغربلاً ولا محلقمًا ولا مسوغًا ولا مبلغًا ولا مخضرًا.

فكيف لـو رأى أبو الفـاتـك، اللطاع والقطاع والـنهـاش والمداد والـدفـاع والمحول؟

والله إنى لأفضل الدهاقين حين عابوا الحسو، وتقززوا من التعرق، وبهرجوا صاحب التـمشـيش، وحين أكلوا بالبارجين وقطعـوا بالسكين ولزموا عنـد الطعام السكتة، وتركوا الخوض، واختاروا الزمزمة.

أنا والله أحتـمل الضيف والضـيفن، ولا أحتـمل اللعمـوظ، ولا الجردبيل والواغل أهون علىَّ من الراشن ومن يشك أن الوحدة خير من جليس السوء، وأن

جليس السوء خير من أكيل السوء، لأن كل أكيل جليس، وليس كل جليس أكيلاً. فإن كان لابد من المؤاكلة، ولابد من المشاركة، فمع من لا يستأثر على بالمخ ولا ينتهز بيضة البقيلة ولا يلتهم كبد الدجاجة، ولا يبادر إلى دماغ رأس السلاءة، ولا يختطف كلية الجدى، ولا يزدرد قانصة الكركى، ولا ينتزع شاكلة الحمل، ولا يقتطع سرة الشيصان، ولا يعرض لعيون الرءوس ولا يستولى على صدور الدجاج، ولا يسابق إلى أسقاط الفراخ، ولا يتناول إلا ما بين يديه، ولا يلاحظ ما بين يدى غيره، ولا يشتهى الغرائب، ولا يمتحن الإخوان بالأمور الثمينة، ولا يهتك أستار الناس، بأن يشتهى ما عسى ألا يكون موجودًا.

وكيف تصلح الدنيا، وكيف يطيب العيش؟ مع من إذا رأى جزورية التقط الأكباد والأسنمة، وإذا عاين بقرية استولى على المرق والقطنة، وإن أتوا بجنب شواء، اكتسح كل شىء عليه، لا يرحم ذا سن لضعفه، ولا يرق على حدث لحدة شهوته، ولا ينظر للعيال، ولا يبالى كيف دارت بهم الحال، وإن كان لابد من ذلك، فمع من لا يجعل نصيبه فى مالى أكثر من نصيبى.

وأشد من كل ما وصفنا وأخبث، من كل ما عددنا، أن الطباخ ربما أتى باللون الطريف، وربما قدم الشىء الغريب، والعادة فى مثل ذلك اللون، أن يكون لطيف الشخص، صغير الحجم، وليس كالطفشيلية ولا كالهريسة، ولا كالفجلية ولا كالكرنبية، وربما عجل عليه فقدمه حاراً ممتنعًا، وربما كان من جوهر بطىء الفتور، وأصحابى فى سهولة ازدراد الحار عليهم فى طباع النعام، وأنا فى شدة الحار على فى طباع السباع. فإن انتظرت إلى أن يمكن أتوا على آخره، وإن بدرت مخافة الفوت، وأردت أن أشاركهم فى بعضه، لم آمن من ضرره والحار ربما قتل، وربما أعقم، وربما أبال الدم.

ثم قال: هذا على الأسوارى، أكل مع عيسى بن سليمان بن على، فوضعت قدامهم سمكة عجيبة، فائقة السمن، فجلط بطنها جلطة، فإذا هو يكتنز شحمًا، وقد كان غص بلقمة، وهو المستسقى، ففرغ من الشراب وقد غرف من بطنها كل إنسان منهم بلقمته غرفة، وكان عيسى ينتخب الأكلة، ويختار منهم كل منهوم فيه، ومفتون به.

فلما خاف على الأسوارى الإخفاق، وأشفق من القوت، وكان أقربهم إليه

عيسى، استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازى، وانحدار العقاب، من غير أن يكون أكل عنده قبل مرته، فقيل له: ويحك استلبت لقمة الأمير من يده، وقد رفعها إليه، وشحا لها فاه، من غير مؤانسة ولا ممازحة سالفة.

قال: لم يكن الأمر كذلك، وكذب من قال ذلك، ولكننا أهوينا أيدينا معًا فوقعت يدى فى مقدم الشحمة، ووقعت يده فى مؤخر الشحمة معًا، والشحم ملتبس بالأمعاء، فلما رفعنا أيدينا معًا، كنت أنا أسرع حركة، وكانت الأمعاء متصلة غير متباينة، فتحول كل شيء كان فى لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتى، لاتصال الجنس بالجنس، والجوهر بالجوهر، وأنا كيف أؤاكل أقوامًا يصنعون هذا الصنيع، ثم يحتجون له بمثل هذه الحجج؟

ثم قال: إنكم تشيرون على بملابسة شرار الخلق، وأنذال الناس، وبكل عياب متعتب، ووثاب على أعراض الناس متسرع، وهؤلاء لم يرضوا إلا أن يدعوهم الناس ولا يدعوا الناس، يأكلوا ولا يطعموا، وأن يتحدثوا عن غيرهم، ولا يبالون أن يتحدث عنهم، وهم شرار الناس.

ثم قال: أجلس معاوية (وهو فى مرتبة الخلافة، وفى السطح من قريش، وفى نبل الهمة، وأصالة الرأى، وجودة البيان، وكمال الجسم، وفى تمام النفس عند الجولة، وعند تقصف الرماح وتقطع السيوف) رجلاً على مائدته، مجهول الدار، غير معروف النسب، ولا مذكور بيوم صالح. فأبصر فى لقمته شعرة، فقال: خذ الشعرة من لقمتك، ولا وجه لهذا القول منه إلا محض النصيحة، وإلا الشفقة. فقال الرجل: وإنك لتراعينى مراعاة من يبصر معها الشعرة؟ لا جلست لك على مائدة ما حييت، ولأحكينها عنك ما بقيت، فلم يدر الناس أى أمرى معاوية كان أحسن وأجمل، تغافله عنه أم شفقته عليه، فكان هذا جزاؤه منه وشكره له.

ثم قال: وكيف أطعم من إن رأيته يقصر فى الأكل، فقلت له: كل ولا تقصر فى الأكل فقال: يفطن لفضل ما بين التقصير وغيره، وإن قصر فلم أنشطه ولم أحثه، قال: لولا أنه وافق هواه (لما سكت).

ثم قال: ومد رجل من بنى تميم يده إلى صاحب الشراب يستسقيه، وهو على خوان المهلب، فلم يره الساقى، فلم يفطن له. ففعل ذلك مرارًا، والمهلب

يراه، وقد أمسك عن الأكل إلى أن يسيغ لقمته بالشراب، فلما طال ذلك على المهلب، قال: أسقه يا غلام ما أحب من الشراب، فلما سقاه استقله وطلب الزيادة منه، وكان المهلب أوصاهم بالإقلال من الماء، والإكثار من الخبز، قال التميمى: إنك لسريع إلى السقى سريع إلى الزيادة، وحبس يده عن الطعام، فقال المهلب: الْهُ عن هذا أيها الرجل فإن هذا لا ينفعك، ولا يضرنا، أردنا أمرًا وأردت خلافه.

وقد علمت أنى دون معاوية ودون المهلب بن أبى صفرة، وأنهم إلى أسرع، وفى لحمى أرتع، ثم قال: وفى الجارود بن أبى سبرة لكم واعظ، وفى أبى الحارث جمين زاجر، فقد كانا يدعيان إلى الطعام وإلى الإكرام لظرفهما، وحلاوتهما، وحسن حديثهما، وقصر يومهما، وكان يتشهيان الغرائب، ويقترحان الطرائف، ويكلفان الناس المؤن الثقال، ويمتحنان ما عندهم بالكلف الشداد، فكان جزاؤهم من إحسانهم ما قد علمتم.

* * *

بلال بن أبى بردة

قال ومن ذلك أن بلال بن بردة، كان رجلاً عيابًا، وكان إلى أعراض الأشراف متسرعًا فقال للجارود: كيف طعام عبد الله بن أبى عثمان؟ قال: يعرف وينكر، قال: كيف هو عليه؟ قال: يلاحظ اللقم وينتهر السائل. قال: فكيف طعام سلم بن قتيبة؟ قال: طعام ثلاثة وإن كانوا أربعة جاعوا قال: فكيف طعام تسنيم بن الحوارى؟ قال: نقط العروس. قال: فكيف طعام المنجاب بن أبى عبينة؟ قال: يقول لا خير فى ثلاث أصابع فى صحفة، حتى أتى على عامة أهل البصرة، وعلى كل من كان يؤثره بالدعوة، وبالأنسة، والخاصة، ويحكمه فى ماله. فلم ينج منه إلا من كان يبعده، كما لم يبتل به إلا من كان يقربه!!.

* * *

أبو شعيب القلال ومويس

وهذا أبو شعيب القلال، فى تقريب مويس له، وأنسه به، وفى إحسانه إليه مع سخائه على المأكول، وغض طرفه عن الأكيل، وقلة مبالاته بالحفظ وقلة احتفاله بجمع الكثير. سئل عنه أبو شعيب، فزعم أنه لم ير قط أشح منه على

الطعام، قيل: وكيف؟ قال: يدلك على ذلك أنه يصنعه، صنعة، ويهيئه تهيئة من لا يريد أن يمس! فضلاً على غير ذلك! وكيف يجترئ الضرس على إفساد ذلك الحسن، ونقض ذلك النظم، وعلى تفريق ذلك التأليف، وقد علم أن حسنه يحشم، وأن جماله يهيب منه، فلو كان سخيًا لم يمنع منه بهذا السلاح، ولم يجعل دونه الجنن، فحول إحسانه إساءة، وبذله منعًا واستدعائه إليه نهيًا.

* * *

قال: ثم قيل لأبى الحارث جمين: كيف وجه محمد بن يحيى على غدائه؟ قال: أما عيناه فعينا مجنون! وقال فيه أيضًا: لو كان فى كفه كر خردل، ثم لعب به لعب الإبلى بالأكرة، لما سقطت من بين أصابعه حبة واحدة.

وقيل له أيضًا: فكيف سخاؤه على الخبز خاصة؟ قال: والله لو ألقى إليه من الطعام بقدر ما إذا جدس، نزف السحاب لو ثرّ لما تجافى عن رغيف.

* * *

وفاء أبو نواس

وكان أبو نواس يرتعى على خوان إسماعيل بن نيبخت، كما ترتعى الإبل فى الحمض بعد طول الخلة، ثم كان جزاؤه منه أنه قال:

خبز إسماعيل كالوشى ... إذا ما شق يرفا

وقال:

وما خبزه إلا كليب بن وائل ... ليالى يحمى عزه منبت البقل

* * *

أبو الشمقمق

وكان أبو الشمقمق يعيب فى طعام جعفر بن أبى زهير، وكان له ضيفًا وهو مع ذلك يقول:

رأيت الخبز عز لديك حتى ... حسبت الخبز فى جو السحاب
وما روحتنا لتذب عنا ... ولكن خفت مرزئة الذباب

* * *

وقيل للجمار: رأيناك فى دهليز فلان، وبين يديك قصعة، وأنت تأكل. فمن أى شيء كانت القصعة؟ وأى شيء كان فيها؟ قال: قيء كلب، فى قحف خنزير!!.

وقيل لرجل من العرب: قد نزلت بجميع القبائل فكيف رأيت خزاعة؟ قال: جوع وأحاديث!.

* * *

ونزل عمرو بن معدى كرب برجل من بنى المغيرة، وهم أكثر قريش طعامًا، فأتاه بما حضر، وقد كان فيما أتاه به فضل، فقال لعمر بن الخطاب وهم أخواله: لئام بنى المغيرة يا أمير المؤمنين! قال: وكيف؟ قال: نزلت بهم فما قرونى غير قوس وكعب ثور. قال عمر: إن ذلك لشبعة.

* * *

وكم قد رأينا من الأعراب من نزل برب صرمة، فأتاه بلبن وتمر وحيس وخبز وسمن سلاء، فبات ليلته ثم أصبح يهجوه، كيف لم ينحر له! وهو لا يعرفه، بعيراً من ذوده، أو من صرمته، ولو نحر هذا البائس لكل كلب مر به بعيراً، من مخافة لسانه، لما دار الأسبوع، إلا وهو يتعرض للسابلة، يتكفف الناس ويسألهم العلق!!

* * *

وسأل زياد عن رجل من أصحابه فقيل: إنه لملازم، وما يغيب غداء الأمير، فقال زياد: فيلغبه فإن ذلك مما يضر بالعيال. فألزموه الغب. فعابوا زيادًا بذلك. وزعموا أنه استثقل حضوره فى كل يوم، وأراد أن يزجر به غيره، فيسقط عن نفسه وعن ماله مؤنة عظيمة.

وإنما كان ذلك من زياد، على جهة النظر للعيالات، وكما ينظر الراعى للرعية. وعلى مذهب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-. وقد قال الحسن: تشبه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس، فجعلتم ذلك عنتًا منه.

* * *

وقال يوسف بن عمر لقوام موائده: أعظموا الثريدة فإنها لقمة الدرداء فقد

يحضر طعامكم الشيخ الذى قد ذهب فمه، والصبى الذى لم ينبت فمه، وأطعموه ما تعرفون فإنه أنجح وأشفى للقرم.

فقلتم إنما أراد العجلة والراحة بسرعة الفراغ وأن يكيدهم بالثريد ويملأ صدورهم بالعراق.

* * *

حديث الرسول

وقد قال رسول الله -ﷺ-: «**سيد الطعام الثريد**». «**ومثل عائشة فى النساء، مثل الثريد فى الطّعام**». ولعظم صفة الثريد فى أعين قريش، سموا عمروبن عبد مناف بهاشم، حين هشم الخبز، واتخذ منه الثريد، حتى غلب عليه الاسم المشتق له من ذلك.

* * *

عوف بن القعقاع

وقال عوف بن القعقاع لمولاه: اتخذ لنا طعامًا يشبع فضله أهل الموسم.

قلتم: فلما رأى الخبز الرقاق، والغلاظ والشواء، والألوان، واستطراف الناس اللون بعد اللون، ودوام أكلهم لدوام الطرف، وأن ذلك لو كان لونًا واحدًا فكان أقل أكلهم، قال: فهلا جعلته، طعام يد ولم تجعله طعام يدين.

فقلتم: اتسع ثم ضاق، حين أراد إطعامهم الثريد والحيس، وكل ما يؤكل بيد دون يدين.

والقعقاع عربى، كره لمولاه أن يرغب عن طعام العرب، إلى طعام العجم وأراد دوام قومه، على مثل ما كانوا عليه، وعلى أن الترفه تفتّخهم وتفسدهم وأن الذى فتح عليهم من باب الترفه، أشد عليهم مما أغلق عليهم من باب فضول اللذة.

وقد فعل عمر من جهة التأديب أكثر من ذلك، حين دعى إلى عرس فرأى قدرًا صفراء، وأخرى حمراء، واحدة مرة، وأخرى حلوة، وواحدة محمضة، فكلذرها كلها فى قدر عظيمة، وقال: إن العرب إذا أكلت هذا قتل بعضها بعضًا.

تفسير كلام أبى فاتك

أما قـوله: الفتـى لا يكون نشالاً، «فـالنشال» عنده الذى يتناول من الـقدر ويأكل قبل النضج، وقبل أن تنزل القدر ويتتام القوم.

و«النشال» الذى يأخذ حـرف الجرذقة فيفـتحه، ثم يغمـسه فى رأس القدر، ويشربه الدسم، ويستأثر بذلك دون أصحابه.

و«المرسال» رجـلان، أحدهمـا إذا وضع فى فمـه لقمة هريـسة أو ثريدة أو حيسة أو أرزة، أرسلها فى جوف حلقه إرسالاً، والوجه الآخر، هو الذى إذا مشى فى أشب من فسـيل أو شجر، قـبض على رأس السعفـة، أو على رأس الغصن، ليتنحيهـا عن وجهه، فإذا قضى وطره أرسلها من يده، فـهى لا محالة تصك وجه صاحبه الذى يتلوه لا يحفل بذلك ولا يعرف ما فيه!!.

و«اللكَّام» الذى فى فيـه اللقمة، ثم يلكمـها بأخرى قـبل إجادة مضغـها أو ابتلاعها!.

و«المصاص» الذى يمص جوف قصبة العظم، بعد أن اسـتخرج مخه واستأثر به دون أصحابه.

و«النفَّـاض» الذى إذا فـرغ من غـسل يده فى الطشت نـفض يديه فى الماء، فنضح على أصحابه.

و«الدلاَّك» الذى لا يجيـد تنقيه يديه بالأشنان، ويجيـد دلكها بالمنديل، وله أيضًا تفسير آخر، وليس هو الذى تظنه وهو مليح وسيقع في موضعه إن شاء الله.

و«المقور» الذى يقور الجراذق ويستأثر بالأوساط ويدع لأصحابه الحروف.

و«المغربل» الذى يأخذ وعاء الملح فيديره إدارة الغربال، يستأثر ليجمع أبازيره به دون أصحابه لا يبالى أن يدع ملحهم بلا أبزار.

و«المحلقم» الذى يتكلم واللقـمة قد بلغت حلقـومه نقول لهذا: قـبيح! دع الكلام إلى وقت إمكانه.

و«المسوِّغ» الذى يعظم اللقم فلا يزال قد غص، ولا يزال يسيغه بالماء.

و«الملغّم» الذى يأخذ حروف الرغيف، أو يغمز ظهر التمرة بإبهامه، ليحملا له من الزبد والسمن، ومن اللباء واللبن، ومن البيض النيمبرشت أكثر.

و«المخضر» الذى يلك يده بالأشنان من الغمر والودك حتى إذا اخضرّ واسودّ من الدرن، دلك به شفته.

هذا تفسير ما ذكر الحارثى عن كلام أبى فاتك، فأما ما ذكره هو:

فإن «اللطّاع» معروف وهو الذى يلطع إصبـعه، ثم يعيدها فى مرق القوم أو لبنهم أو سويقهم، وما أشبه ذلك.

و«القطّاع» الذى يعض على اللقمة فيقطع نصـفها، ثم يغمس النصف الآخر فى الصباغ.

و«النهّاش» وهو معروف، وهو الذى ينهش اللحم كما ينهش السبع.

و«المدّاد» الذى ربما عض على العصب التى لم تنضج، وهو يمدها بفمه ويده توترها له، فربما قطعها بنترة فـيكون لها انتضاح على ثوب المؤاكل، وهو الذى إذا أكل مع أصحابه الرطب أو التمر أو الهـريسة أو الأرزة، فأتى على ما بين يديه مد ما بين أيديهم إليه.

و«الدفّاع» الذى إذا وقع فى القـصعة عظم فصـار مما يليه، نحاه بلقمـته من الخبز، حتى تصير مكانه قطعـة من لحم، وهو فى ذلك كأنه يطلب بلقمته تشريب المرق دون إراغة اللحم.

و«المحوّل» هو الذى إذا رأى كثرة النوى بين يديه احتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه.

وأما ما ذكره من «الضيـف» و«الضيفن» فإن الضيفن ضيف الضيف وأنشد أبو زيد:

إذا جـاء ضـيف جاء للـضيف ضـيـفن

فـأودى بما يقـرى الضـيـوف الضـيـافن

يقـول: الأكيل لا يكـون إلا بالمعاينة، وقـد يكون الضـيـف وإن كـان معـه الضيفن، لا يؤاكل من أضافه. يقول: فأكل الكثير من حيث لا أراه أهون علىّ.

وأما قوله: «الواغل» أهون علىّ من «الراشن» فإنه يزعم أن طفيلى الشراب، أهون علىّ من طفـيلى الطعام، وقـول الناس: فـلان طفيلى، ليس له من أصـول كلام العرب، ليس كالراشن واللعموظ، وأهل مكة يسمونه البرقى.

وكان بالكوفة رجل من بنى عبد الله بن غطفان، يسمى طفيلاً وكان أبعد الناس نجعة فى طلب الولائم والأعراس، فقيل له لذلك: طفيل العرائس، وصار ذلك نبزًا له ولقبًا، لا يعرف بغيره، فصار كل من كانت تلك طعمته، يقال له: طفيلى. هذا من قول أبى اليقظان.

ثم قال الحارثى: وأعجب من كل عجب، وأطرف من كل طريف، أنكم تشيرون علىَّ بإطعام الأكلة، ودفعى إلى الناس مالى وأنتم أترك لهذا منى، فإن زعمتم أنى أكثر مالاً، وأعد عدة، فليس من حالى وحالكم فى التقارب، أن أطعم أبدًا، وأنتم تأكلون أبدًا، فإذا أتيتم فى أموالكم من البذل والإطعام، على قدر احتمالكم، عرفت بذلك أن الخير أردتم، وإلى تربيتى ذهبتم، وإلا فإنكم إنما تحلبون حلبًا لكم شطره، بل أنتم كما قال الشاعر:

يحب الخمر من مال الندامى ويكره أن تفارقه الفلوس

* * *

ثم قال: والله إنى لو لم أترك مؤاكلة الناس وإطعامهم، إلا لسوء رعة على الإسوارى، لتركته، وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقًا فبلع ضرسه وهو لا يعلم! فعل ذلك عند إبراهيم بن الخطاب مولى سليم.

وكان إذا أكلَ ذهب عقله، وجحظت عينه، وسكر، وسدر، وانبهر، وتربد وجهه، وعصب ولم يسمع، ولم يبصر، فلما رأيت ما يعتريه، وما يعترى الطعام منه، صرت لا آذن له، إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلى، ولم يفجأنى قط وأنا آكل تمرًا إلا استفه سفًا، وحساه حسوًا، وذرى به ذروًا، ولا وجده كثيرًا إلا تناول القصعة كجمجمة الثور، ثم يأخذ بحضنيها ويقلها من الأرض، ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضا ورفعًا وخفضًا، حتى يأتى عليها جميعًا، ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث.

ولم يفصل تمرة قط من تمرة، وكان صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق، ولا رمى بنواة قط، ولا نزع قمعًا، ولا نفى عنه قشرًا، ولا فتشه مخافة

السوس والدود!! ثم ما رأيته قط، إلا وكأنه طالب ثأر، وشحشان صاحب طائلة! وكأنه عاشق مغتلم أو جائع مقرور!.

والله يا إخـوتى لو رأيت رجلاً يفـسـد طين الردغة، ويضـيع مـاء البحـر، لصرفت عنه وجهى! فإذا كان أصحاب النظر وأهل الديانة والفلسفة هذه سيرتهم، وهكذا أدبهم، فـمـا ظنكم بمن لا يعـد مـا يعـدون، ولا يبلغ من الأدب حـيث يبلغون!!

* * *

الكنـــدى

حدثنى عمــرو بن نهيوى، قال: كان الكندى لا يـزال يقول للساكن، وربما قال للجـار: إن فى الدار امرأة بها حـمل، والوحمى ربما أسـقطت من ريح القدر الطيبة! فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة! فإن النفس يردها اليسير، فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامى إياك، فكفارتك إن أسـقطت غرة، عبد أو أمة، ألزمت ذلك نفسـك أم أبيت!! قـال: فكان ربما يوافـى إلى منزله من قـصـــاع السكان والجيران، ما يكفيه الأيام، وإن كان أكثرهم يفطن ويتغافل.

وكان الكندى يقول لعياله: أنتم أحـسن حالاً من أرباب هذ الضياع إنما بكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان.

قـال: وكنت أتغدى عنــده يومًا، إذ دخل عليــه جـار له، وكان الجـار لى صديقًا، فلم يعرض عليــه الغداء، فاستحييت أنا منه، فـقلت: لو أصبت معنا مما نأكل، قال: قد والله فعلت، قال الكندى: مـا بعد الله شىء، قال: فكتفه والله يا أبا عثـمان كتفـا، لا يستطيع معــه قبضـا ولا بسطًا، وتركه ولو أكل لشهـد عليه بالكفر، ولكان عنده قد جعل مع الله شيئًا.

قال عمــرو: بينا أنا ذات يوم عنده، إذ سمع صوت انقــلاب جرة من الدار الأخرى، فصاح: أى قصاف، فقالت مـجيبة له: بئر وحياتك، فكانت الجارية فى الذكاء أكثر منه فى الاستقصاء.

قـال معــبد: نزلنا دار الـكندى أكثـر من سنة، نروج له الكراء ونقـضى له الحوائج ونفى له بالشرط، قلت: قد فهمت ترويج الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشــرط، قال: فى شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة وبعـر الشاة ونشوار العلوفة، وأن لا يخــرجوا عظمًا ولا يخرجوا كـساحة، وأن يكون له نوى التمر، وقشــور الرمان والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى فـى بيته! وكان فى ذلك يتنزل عليهم، فكانوا لطيبه وإفراط بخله، وحسن حديثه يحتملون ذلك!

قال معبد: فبينا أنا كـذلك، إذ قدم ابن عم لى ومعه ابن له، وإذا رقعة منه

قد جاءتني: إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك، وإن كان إطماع السكان في الليلة الواحدة، يجر علينا الطمع في الليالي الكثيرة. فكتبت إليه: ليس مقامها عندنا إلا شهراً أو نحوه. فكتب إليّ: إن دارك بثلاثين درهمًا، وأنتم ستة، لكل رأس خمسة، فإذا قد زدت رجلين، فلابد من زيادة خمستين، فالدار عليك من يومك هذا بأربعين. فكتبت إليه وما يضرك من مقامهما، وثقل أبدانهما على الأرض، التي تحمل الجبال، وثقل مؤنتهما عليّ دونك، فاكتب إليّ بعذرك لأعرفه.

ولم أدر أني أهجم على ما هجمت، وأني أقع منه فيما وقعت، فكتب إليّ: الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة، وهي قائمة معروفة، من ذلك، سرعة امتلاء البالوعة، وما في تنقيتها من شدة المؤنة، ومن ذلك، أن الأقدام إذا كثرت، كثر المشي على ظهور السطوح المطينة، وعلى أرض البيوت المجصصة، والصعود على الدرج الكثيرة، فينقشر لذلك الطين، وينقلع الجص، وينكسر العتب، مع انثناء الأجذاع لكثرة الوطء، وتكسرها لفرط الثقل.

وإذا كثر الدخول والخروج والإغلاق والإقفال وجذب الأقفال، تهشمت الأبواب وتقلعت الرزّات. وإذا كثر الصبيان، وتضاعف البوْش نزعت مسامير الأبواب، وقلعت كل ضبَّة، ونزعت كل رزَّة، وكسرت كل حوزة، حفر فيها آبار الزدو، وهشموا بلاطها بالمداحي. هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد وخشب الرفوف.

وإذا كثر العيال والزوار والضيفان والندماء، احتيج من صب الماء واتخاذ الحببة القاطرة، والجرار الراشحة، إلى أضعاف ما كانوا عليه، فكم من حائط قد تآكل أسفله، وتناثر أعلاه، واسترخى أساسه، وتداعى بنيانه، من قطر حب ورشح جر، ومن فضل ماء البئر ومن سوء التدبير.

وعلى قدر كثرتهم، يحتاجون من الخبيز والطبيخ، ومن الوقود والتسخين، والنار لا تبقي ولا تذر، وإنما الدور حطب لها، وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها. فكم من حريق قد أتى على أصل الغلة، فكلفتهم أهلها أغلظ النفقة. وربما كان ذلك عند غاية العسرة، وشدة الحال، وربما تعدت تلك الجناية إلى دور الجيران، وإلى مجاورة الأبدان والأموال.

فلو ترك الناس حينئذ رب الدار، وقدر بليته، ومقدار مصيبته، لكان عسى ذلك أن يكون محتملاً، ولكنهم يتشاءمون به، ولا يزالون يستثقلون ذكره، ويكثرون من لائمته وتعنيفه.

نعم، ثم يتخذون المطابخ فى العلالى على ظهور السطوح، وإن كان فى أرض الدار فضل، وفى صحنها متسع، مع ما فى ذلك من الخطار بالأنفس، والتغرير بالأموال، وتعرض الحرم ليلة الحريق، لأهل الفساد، وهجومهم مع ذلك على سر مكتوم، وخبىء مستور، من ضيف مستخف، ورب دار متوار، ومن شراب مكروه، ومن كتاب متهم، ومن مال جم أريد دفنه، فأعجل الحريق أهله عن ذلك فيه، ومن حالات كثيرة، وأمور لا يحب الناس أن يعرفوا بها.

ثم لا ينصبون التنانير، ولا يمكنون للقدور، إلا على متن السطوح، حيث ليس بينها وبين القصب والخشب إلا الطين الرقيق، والشىء الذى لا يقى، هذا مع خفة المؤنة فى أحكامها، وأمن القلوب من المتآلف بسببها.

فإن كنتم تقدمون على ذلك منا ومنكم، وأنتم ذاكرون، فهذا عجب! وإن كنتم لم تحفلوا بما عليكم فى أموالنا، ونسيتم ما عليكم فى أموالكم، فهذا أعجب.

ثم إن كثيراً منكم يدافع بالكراء، ويماطل بالأداء، حتى إذا جمعت أشهر عليه، فرّ وخلىّ أربابها جياعًا يتندمون على ما كان من حسن تقاضيهم وإحسانهم، فكان جزاؤهم وشكرهم، اقتطاع حقوقهم، والذهاب بأقواتهم.

ويسكنها الساكن حين يسكنها، وقد كسحناها ونظفناها، لتحسن فى عين المستأجر وليرغب فيها الناظر، فإذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابًا، لا تصلحه إلا النفقة الموجعة.

ثم لا يدع مترسًا إلا سرقه، ولا سلمًا إلا حمله، ولا نقضًا إلا أخذه، ولا برادة إلا مضى بها معه، ولا يدع دق الثوب، والدق فى الهاون والمنجان فى أرض الدار، ويدق على الأجذاع والحواضن الرواشن.

وإن كانت الدار مقرمدة، أو بالآجر مفروشة، وقد كان صاحبها جعل فى ناحية منها صخرة، ليكون الدق عليها، ولتكون واقية دونها دعاهم التهاون والقسوة والغش والفسولة، إلى أن يدقوا حيث جلسوا، وإلى ألا يحفلوا بما

أفسدوا، لم يعط قط لذلك أرشًا، ولا استحل صاحب الدار، ولا استغفر الله منه في السر.

ثم يستكثر من نفسه في السنة إخراج عشرة دراهم، ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشهر، يذكر ما يصير إلينا مع قلته، ولا يذكر ما يصير إليه مع كثرته.

هذا والأيام التي تنقض المبرم، وتبلي الجدة، وتفرق الجمع المجتمع، عاملة في الدور، كما تعمل في الصخور، وتأخذ من المنازل، كما تأخذ من كل رطب ويابس وكما تجعل الرطب يابسًا هشيمًا، والهشيم مضمحلاً.

ولانهدام المنازل غاية قريبة، ومدة قصيرة. والساكن فيها هو كان المتمتع بها، والمنتفع بمرافقها، وهو الذي أبلى جدتها وتحلاها، وبه هرمت وذهب عمرها لسوء تدبيرها.

فإذا قسنا الغرم عند انهدامها بإعادتها، وبعد ابتدائها، وغرم ما بين ذلك من مرمتها، وإصلاحها، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها وارتفقنا به من إكرائها، خرج على المسكن من الخسران، بقدر ما حصل للساكن من الربح، إلا أن الدراهم التي أخرجناها من النفقة، كانت جملة، والتي أخذناها على جهة الغلة، جاءت مقطعة.

وهذا مع سوء القضاء والإحواج إلى طول الاقتضاء، ومع بغض الساكن للمسكن، وحب المسكن للساكن، لأن المسكن يحب صحة بدن الساكن، ونفاق سوقه، إن كان تاجرًا، وتحرك صناعته إن كان صانعًا ومحبة الساكن أن يشغل الله المسكن كيف شاء، إن شاء شغله بعينه، وإن شاء بزمانه، وإن شاء بحبس وإن شاء بموت.

ومدار مناه أن يشغل عنه، ثم لا يبالي كيف كان ذلك الشغل! إلا أنه كلما كان أشد، كان أحب إليه، وكان أجدر أن يأمن، وأخلق لأن يسكن. وعلى أنه إذا فترت سوقه، أو كسدت صناعته، ألحّ في طلب التخفيف من أصل الغلة. والحطيطة، مما حصل عليه من الأجرة، وعلى أنه إن أتاه الله بالأرباح في تجارته، والنفاق في صناعته، لم ير أن يزيد قيراطًا في ضريبته، ولا أن يعجل فلسًا قبل وقته!

ثم إن كانت الغلة صحاحًا، دفع أكثرها مقطعة، وإن كانت أنصافًا وأرباعًا، دفعها قراضة مفتتة. ثم لا يدع مزيقًا ولا مكحلاً ولا زائفًا ولا ديناراً بهرجًا إلا دسه فيه. ودلسه عليه. واحتال بكل حيلة. وتأتى له بكل سبب، فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئًا، حلف بالغموس أنه ليس من دراهمه، ولا من ماله، ولا رآه قط ولا كان فى ملكه!!

فإن كان الرسول جارية رب الدار، أفسدها وربما أحبلها، وإن كان غلامًا خدعه وربما شطر به. هذا مع التشرف على الجيران، والتعرض للجارات، ومع اصطياد طيورهم وتعريضنا لشكاياتهم.

وربما استضعف عقولهم، وطمع فى فسادهم وعيبهم، فلا يزال يضرب لهم بالأسلاف ويغريهم بالشهوات، ويفتح لهم أبوابًا من النفقات، ليعيبهم ويربح عليهم، حتى إذا استوثق منهم، أعجلهم وحزق بهم، حتى يتقوه ببيع الدار، أو باسترهان الجميع ليربح مع الذهاب بالأصل، السلامة، مع طول مقامه من الكراء، وبما جعله بيعًا فى الظاهر، ورهنًا فى الباطن، فحينئذ يقتضيهم دون المهلة ويدعيها قبل الوقت.

وربما بلغ من استضعافه واستثقاله لأداء الكراء، أن يدعى أن له شقيصًا وأن له يدًا، ليصير خصمًا من الخصوم، ومنازعًا غير غاصب.

وربما أخذهم ومعه امرأة يفجر بها، فيجعل استئجار البيوت وتصفح المنازل، علة لدخولها والمقام ساعة فيها. فإذا استقر فى المنزل، قضى حاجته منها، ورد المفتاح.

وربما اكترى المنزل وفيه مرمة، فاشترى بعض ما يصلحها ثم يتوخى عاملاً جيد الكسوة، وجيرانًا أصحاب آنية وآلة، فإذا شغل العامل وغفل، اشتمل على كل ما قدر له وتركهم يتسكعون.

وربما استأجر إلى جنب سجن، لينقب أهله إليه، وإلى جنب صراف لينقب عليه طلبًا لطول المهلة والستر، ولطول المدة والأمن، وربما جنى الساكن ما يدعو إلى هدم دار المسكن بأن يقتل قتيلاً، أو يجرح شريفًا، فيأتى السلطان الدار، وأربابهم إما غيب وإما أيتام وإما ضعفاء، فلا يصنع شيئًا دون أن يسويها بالأرض.

وبعد فالدور ملقاة، وأربابها منكوبون وملقون، وهم أشد الناس اغتراراً

بالناس، وأبعدهم غاية من سلامة الصدور، وذلك أن من دفع داره ونقضها وساجها وأبوابها مع حديدها، وسقوفها إلى مجهول لا يعرف، فقد وضعها فى مواضع الغرر، وعلى أعظم الخطر، وقد صار فى معنى المودع، وصار المكترى فى موضع المودع، ثم ليست الخيانة وسوء الولاية، إلى شىء من الودائع، أسرع منها إلى الدور.

وأيضًا إن أصلح السكان حالاً، من إذا وجد فى الدار مرمة، ففوضوا إليه النفقة، وأن يكون ذلك محسوبًا له عند الأهلة، يشفف فى البناء، ويزيد فى الحساب، فما ظنك بقوم. هؤلاء أصلحهم وهم خيارهم؟؟ وأنتم أيضًا إنما اكتريتم مستغلات غيركم بأكثر مما اكتريتموها منه، فسيروا فينا كسيرتكم فيهم، وأعطونا من أنفسكم مثل ما تريدونه منهم.

وربما بنيتم فى الأرض، فإذا صار البناء بنياكم، وإن كانت الأرض لغيركم، ادعيتم الشركة، جعلتموه كالإجارة، وحتى تصيروه كتلاد مال، أو موروث سلف.

وجرم آخر وهو أنكم أهلكتم أصول أموالنا، وأخربتم غلاتنا، وحططتم بسوء معاملتكم، أثمان دورنا ومستغلاتنا، حتى سقطت غلات الدور من أعين المياسير وأهل الثروة، ومن أعين العوام والحشوة، وحتى تدافعوكم بكل حيلة، وصرفوا أموالهم فى كل وجه، وحتى قال عبيد الله بن الحسن قولاً أرسله مثلاً، وعاد علينا حجة وضرراً وذلك أنه قال: غلة الدار مسكة وغلة النخل كفاف، وإنما الغلة غلة الزرع والنسولتين.

وإنما جرَّ ذلك علينا حسن اقتضائنا، وصبرنا على سوء قضائكم وأنتم تقطعونها علينا وهى عليكم مجملة، وتلوونا بها وهى عليكم حالة، فصارت لذلك غلات الدور، وإن كانت أكثر ثمنًا ودخلاً، أقل يمنًا وأخبث أصلاً من سائر الغلات.

وأنتم شر علينا من الهند والروم، ومن الترك والديلم، إذ كنتم، أحضر أذى وأدوم شرًا، ثم كانت هذه صفتكم وحيلتكم ومعاملتكم، فى شىء لابد لكم منه، فكيف كنتم لو امتحنتم، بما لكم عنه مندوحة، والوجوه لكم فيه معرضة، وأنتم فيها بالخيار، وليس عليكم طريق الاضطرار؟

وهذا مع قولكم إن نزول دور الكراء، أصوب من نزول دور الشراء، وقلتم

لأن صاحب الشراء قد أغلق رهنه، وأشرط نفسه، وصار بها ممتحنًا، وبثمنها مرتهنًا، ومن اتخذ دارًا، فقد أقام كفيلاً لا يخفر، وزعيمًا لا يغرم، وإن غاب عنها حن إليها، وإن أقام فيها ألزمته المؤن، وعرضته للفتن، إن أساءوا جواره، وأنكر مكانه، وبعد مصلاه، ونأت عنه سوقه، وتفاوتت حوائجه، ورأى أنه قد أخطأ في اختيارها على سواها، وأنه لم يوفق لرشده حين آثرها على غيرها وأن من كذلك فهو عبد داره، وخول جاره.

وأن صاحب الكراء الخيار في يده، والأمر إليه، فكل دار هي له متنزه، إن شاء، ومتجر إن شاء، ومسكن إن شاء لم يحتمل فيها اليسير من الذل، ولا القليل من الضيم، ولا يعرف الهوان ولا يسأم السخف، ولا يحترس من الحساد، ولا يداري المتعللين.

وصاحب الشراء يجرع المرار، ويسقى بكأس الغيظ، ويكد لطلب الحوائج، ويحتمل الذلة، وإن كان ذا انفة، إن عفا، على كظم، ولا يوجه منه إلا أن العجز وإن رام المكافأة تعرض لأكثر مما أنكره، قال رسول الله -ﷺ-: «**الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق**».

وزعمتم أن تسقط الكراء أهون إذ كان شيئًا بعد شيء، وأن الشدائد إذا وقعت جملة، جاءت غامرة للقوة، فأما إذا تقطع وتفرق، فليس يكترث لها، إلا من يفقدها ويذكرها.

ومال الشراء يخرج جملة، وثلمته في المال واسعة، وطعنته نافذة، وليس كل خرق يرقع، ولا كل خارج يرجع، وأنه قد أمن من الحرق والغرق، وميل أسطوان وانقصاف سهم، واسترخاء أساس، وسوء جوار، وحسد مشاكل، وأنه إما لا يزال في بلاء، وإما أن يكون متوقعًا لبلاء.

وقلتم إن كان تاجرًا، فتصريف ثمن الدار في وجوه التجارات أربح، وتحويله في أصناف البيعات أكيس، وإن لم يكن تاجرًا ففي ما وصفناه له ناه، وفيما عددنا له زاجر، فلم تمنعكم حرمة المساكنة، وحق المجاورة والحاجة إلى السكنى، وموافقة المنزل، أن أشرتم على الناس بترك الشراء، وفي كساد الدور فساد لأثمان الدور، وجرأة للمستأجر، واستحطاط من الغلة، وخسران في أصل المال.

وزعمتم أنكم قد أحسنتم إلينا حين حثثتم الناس على الكراء، لما فى ذلك من الرخاء والنماء، فأنتم لم تريدوا نفعًا بترغيبهم فى الكراء، بل إنما أردتم أن تضرونا بتزهيدكم فى الشراء!

وليس ينبغي أن يحكم على كل قوم إلا بسبيلهم، وبالذى يغلب عليهم من أعمالهم، فهذه الخصال المذمومة، كلها فيكم، وكلها حجة عليكم، وكلها داعية إلى تهمتكم وأخذ الحذر منكم، وليست له خصلة محمودة، ولا خلة فيما بيننا وبينكم مرضية. وقد أريناكم أن حكم النازلين، كحكم المقيمين، وأن كل زيادة، فلها نصيب من الغلة، ولو تغافلت لك يا أخا أهل البصرة عن زيادة رجلين، لم أبعدك على قدر ما رأيت منك، أن تلزمنى ذلك، فيما يتبين، حتى يصير كراء الواحد ككراء الألف، وتصير الإقامة كالظعن والتفريغ كالشغل، وعلى أنى لو كنت أمسكت عن تقاضيك، وتغافلت عن تعريفك ما عليك، لذهب الإحسان إليك باطلاً، إن كنت لا ترى للزيادة قدرًا، وقد قال الأول:

والكفر مخبثة لنفس المنعم

وقال الآخر:

تبدلت بالمعروف نكرًا وربما تنكر للمعروف من كان يكفر

أنت تطالبنى ببغض المعتزلة للشيعة، وبما بين أهل الكوفة والبصرة، وبالعداوة التى بين أسد وكندة، وبما فى قلب الساكن من استثقال المسكن. وسيعين الله عليك والسلام.

* * *

قال إسماعيل بن غزوان: لله در الكندى ما كان أحكمه، وأحضر حجته وأنصح جيبه، وأدوم طريقته! رأيته وقد أقبل على جماعة، ما فيها إلا مفسد، أو من يزين الفساد لأهله، من شاعر بوده أن الناس كلهم، قد جاوزوا حد المسرفين إلى حدود المجانين! ومن صاحب تفقيع واستئكال ومن ملاق متقرب فقال: تسمون من منع المال من وجوه الخطأ، وحصنه خوفًا من الغيلة، وحفظه إشفاقًا من الذلة، بخيلاً!! يريدون بذلك ذمه وشينه! وتسمون من جهل فضل الغنى، ولم يعرف ذلة الفقر، وأعطى فى السرف وتهاون بالخطأ، وابتذل النعمة وأهان نفسه بإكرام غيره، جوادًا! تريدون بذلك حمده ومدحه.

فاتهموا على أنفسكم، من قدمكم على نفسه، فإن من أخطأ على نفسه فهو أجدر أن يخطئ على غيره، ومن أخطأ فى ظاهر دنياه، وفيما يوجد فى العين، كان أجدر أن يخطئ فى باطن دينه، وفيما يوجد بالعقل فمدحتم، من مدح صنوف الخطأ وذممتم من جمع صنوف الصواب، فاحذروهم كل الحذر، ولا تأمنوهم على حال.

قال إسماعيل: وسمعت الكندى يقول: إنما المال لمن حفظه، وإنما الغنى لمن تمسك به ولحفظ المال بنيت الحيطان، وغلقت الأبواب، واتخذت الصناديق وعملت الأقفال، ونقشت الرسوم والخواتيم، ويعلم الحساب والكتاب.

فلمَ يتخذون هذه الوقايات دون المال، وأنتم آفته، وأنتم سوسه وقادحه، وقد قال الأول: أحرس أخاك إلا من نفسه، ولكن أحسب أنك قد أخذته فى الجواسق وأودعته الصخور، ولم يشعر به صديق، ولا رسول ولا معين، من لك بأن لا تكون أشد عليه من السارق، وأعدى عليه من الغاصب، وأجعلك قد حصنته من كل يد لا تملكه، كيف لك من أن تحصنه من اليد التى تملكه، وهى عليه أقدر ودواعيها أكثر.

وقد علمنا أن حفظ المال، أشد من جمعه، وهل يأتى الناس إلا من أنفسهم ثم ثقاتهم؟ والمال لمن حفظه، والحسرة لمن أتلفه، وإنفاقه هو إتلافه، وإن حسنتموه بهذا الاسم، وزينتموه بهذا اللقب، وزعمتم إنما سمينا البخل صلاحًا، والشح اقتصادًا، كما سمى قوم الهزيمة انحيازًا، والبذاء عارضة، والعزل عن الولاية صرفًا، والجائر على أهل الخراج مستقصيًا، بل أنتم الذين سميتم السرف جودًا، والنفح أريحية، وسوء نظر المرء لنفسه ولعقبه كرمًا. قال رسول الله -ﷺ-: «**إبدأ بمن تعول**» وأنت تريد أن تغنى عيال غيرك، بإفقار عيالك، وتسعد الغريب بشقوة القريب، وتتفضل على من لا يعدل عنك، ومن لو أعطيته أبدًا لأخذ أبدًا!

وقد علمتم ما قال صاحبنا لأخى تغلب، فإنه قال: يا أخا تغلب، إنى والله كنت أجرى ما جرى هذا الغيل، وأجرى وقد انقطع النيل، إنى والله لو أعطيتك، لما وصلت إليك، حتى أتجاوز من هو أحق بذلك منك، إنى لو أمكنت الناس من مالى، لنزعوا دارى طوبة طوبة! إنه والله ما بقى معى منه إلا ما منعته الناس، ولكنى أقول: والله لو أمكنت الناس من نفسى، لا دعوا رقى بعد سلب نعمتى.

قال إسماعيل: وسمعته يقول: عجبت لمن قلت دراهمه كيف ينام، ولكن لا يستوى من لم ينم سروراً، ومن لم ينم غمًا.

ثم قال: قال رسول الله -ﷺ- فى وصية المرء يوم فقره وحاجته وقبل أن يغرغر: «**الثلث، والثلث كثير**». فاستحسنت الفقهاء، وتمنى الصالحون أن نغضّ من الثلث شيئًا، لاستكثار رسول الله -ﷺ- الثلث، ولقوله: «**إنك إن تدع عيالك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس**».

ورسول الله -ﷺ-، لم يرحم عيالنا إلا بفضل رحمته لنا، فكيف تأمروننى أن أوثر أنفسكم على نفسى، وأقدم عيالكم على عيالى، وأن أعتقد الثناء بدلاً من الغنى، وأن أكنز الريح وأصطنع السراب بدلاً من الذهب والفضة؟

قال إسماعيل: وسمعته يقول لعياله وأصحابه: اصبروا على الرطب عند ابتدائه وأوائله، وعن باكورات الفاكهة، فإن للنفس عند كل طارف نزوة، وعند كل هاجم بدوة، وللقادم حلاوة وفرحة، وللجديد بشاشة وغرة فإنك متى رددتها ارتدت ومتى ردعتها ارتدعت.

والنفس عزوف ونفور ألوف، وما حملتها احتملت، وإن أهملتها فسدت فإن لم تكف جميع دواعيها، وتحسم جميع خواطرها فى أول ردة، صارت أقل عدداً وأضعف قوة، فإذا أثر ذلك فيها فعظها فى تلك الباكورة بالغلاء والقلة، فإن ذكر الغلاء والقلة، حجة صحيحة، وعلة عاملة فى الطبيعة.

فإذا أجابتك فى الباكورة، فسمها مثل ذلك فى أوائل كثرتها، واضرب نقصان الشهوة، ونقصان قوة الغلبة، بمقدار ما حدث لها من الرخص والكثرة، فلست تلقى على هذا الحساب من معالجة الشهوة فى غدك، إلا مثل ما لقيت منها فى يومك، حتى تنقضى أيام الفاكهة، وأنت على مثل ابتداء حالك، وعلى أول مجاهدتك لشهوتك.

ومتى لم تعد أيضًا الشهوة فتنة، والهوى عدواً، اغتررت بهما، وضعفت عنهما، وائتمنتهما على نفسك، وهما أخطر عدو وشر دخيل.

فاضمنوا لى النزوة الأولى، أضمن لكم تمام الصبر، وعاقبة اليسر، وثبات العز فى قلوبكم، والغنى فى أعقابكم، ودوام تعظيم الناس لكم، فإنه لو لم يكن من منفعة الغنى، إلا أنك لا تزال معظمًا عند من لم ينل منك قط درهمًا، ولكن

الفضـل فى ذلك بيِّنا، والربح ظاهراً، ولو لم يكن من بركـة الثروة، ومن منفـعة اليسر، إلا أن رب المال الكثـير لو اتصل بملك كبيـر وفى جلسائه، من هو أوجب حرمـة، وأقدم صحبـة وأصدق محبـة وأمتع إمتـاعًا وأكثر فـائدة وصوابًا، إلا أنه خفـيف الحال، قليل ذات اليد، ثم أراد ذلك الملك، أن يقـسم مالاً أو يوزع بينهم طرفًا، لجعل حـظ الموسر أكثر وإن كان فى كل شىء دون أصـحابه، وحظ المخف أقل وإن كان فى كل شىء فوق أصحابه.

* * *

لقـد ذكرنا رسـالة سهل بن هارون، ومـذهب الخزامى وقـصص الكندى، وأحاديث الحارثى، واحتجاجاتهم، وطرائف نحلهم وبدائع حيلهم.

محمد بن أبي المؤمل

قلت لمحمد بن أبى المؤمل: أراك تطعم الطعام وتتخذه، وتنفق المال وتجود به، وليس بين قلة الخبز وكثرته، كثير ربح، الناس يبخلون من قل عدد خبزه، ورأوا أرض خوانه، وعلى أنى أرى جماجم من يأكل معك، أكثر من عدد خبزك.

وأنت لو لم تتكلف، ولم تحمل على مالك بإجادته، والتكثير منه، ثم أكلت وحدك لم يلمك الناس، ولم يكترثوا لذلك منك، ولم يقضوا عليك بالبخل، ولا بالسخاء، وعشت سليمًا موفورًا، وكنت كواحد من عرض الناس.

وأنت لم تنفق الحرائب، وتبذل المصون، إلا وأنت راغب فى الذكر والشكر وإلا لتحرز الأجر، فقد صرنا لقلة عدد خبزك من بين الأشياء، نرضى لك من الغنيمة بالإياب، ومن غنم الحمد والشكر، بالسلامة من الذم واللؤم!! فزد فى عدد خبزك شيئًا، فإن بتلك الزيادة القليلة، ينقلب ذلك اللؤم شكرًا، وذلك الذم حمدًا.

أعلمت أنك تخرج من هذا الأمر، بعد الكلفة العظيمة، سالمًا لا لك ولا عليك؟ فانظر فى هذا الأمر رحمك الله!

قال: يا ابن عثمان أنت تخطئ، وخطأ العاقل أبدًا يكون عظيمًا، وإن كان فى العذر قليلاً، لأنه إذا أخطأ بتفقه وإحكام. فعلى قدر التفكر والتكلف، يبعد من الرشاد، ويذهب عن سبيل الصواب، وما أشك أنك قد نصحت بمبلغ الرأى منك ولكن خف ما خوفتك، وأنه مخوف! بل الذى أصنع أدل على سخاء النفس بالمأكول وأدل على الاحتيال ليبالغوا، لأن الخبز إذا كثر على الموائد، ورث ذلك النفس صدودًا، ولأن كل شيء من المأكول وغير المأكول، إذا ملأ العين ملأ الصدر، وفى ذلك موت الشهرة، وتسكين الحركة.

ولو أن رجلاً جلس على بيدر تمر فائق، وعلى كدس كمثرى منعوت، وعلى مائة قنو موز موصوف، لم يكن أكله إلا على قدر استطرافه، ولم يكن أكله

إلا على قدر أكله، إذا أتى بذلك فى طبق نظيف، مع خادم نظيف، عليه منديل نظيف.

وبعد فأصحابنا آنسون واثقون مسترسلون، يعلمون أن الطعام لهم اتخذ، وأن أكلهم له أوفق من تمزيق الخدم والاتباع له، ولو احتاجوا لدعوا به، ولم يحتشموا منه، ولكان الأقل منهم أن يجربوا ذلك المرة والمرتين، وأن لا يقضوا علينا بالبخل دون أن يروه، فإن كانوا محتشمين وقد بسطناهم، وساء ظنهم بنا، ما ما يرون من الكلفة لهم، فهؤلاء أصحاب تجن وتسرع، وليس فى طاقتى أعتاب المتجنى ولا رد المتسرع.

قلت له: إنى قد رأيت أكلهم فى منازلهم، وعند إخوانهم، وفى حالات كثيرة ومواضع مختلفة، ورأيت أكلهم عندك، فرأيت شيئًا متفاوتًا، وأمرًا متفاقمًا، فأحسب أن البخل عليهم غالب، وأن الضعف لهم شامل، وأن سوء الظن يسرع إليهم خاصة، ثم لا نداری هذا الأمر بما لا مؤنة فيه، وبالشيء الذى لا أقدر له، أو تدع دعاءهم والإرسال إليهم، والحرص على إجابتهم؟

والقوم ليس يلقون أنفسهم عليك، وإنما يجيئونك بالاستحباب منك، فإن أحببت أن تمتحن ما أقول، فدع مواترة الرسل والكتب، والتغضب عليهم إذا أبطأوا، ثم انظر.

قال: فإن الخبز إذا كثر على الخوان، فالفاضل مما يأكلون، لا يسلم من التلطيخ والتغمير، والجرذقة الغمرة، والرقاقة المتلطخة، لا أقدر أن أنظر إليها، وأستحى أيضًا من إعادتها، فيذهب ذلك الفضل باطلاً، والله لا يحب الباطل!

قلت: فإن ناسًا يأمرون بمسحه. ويجعلون الثريدة منه، فلو أخذت بزيهم، وسلكت سبيلهم، أتى ذلك على ما تريد ونريد.

قال: أفلست أعلم كيف الثريدة ومن أى شيء هى، وكيف أمنع نفسى التوهم، وأحول بينهم وبين التذكير؟ ولعل القوم أن يعرفوا ذلك على طول الأيام، فيكون هذا قبيحًا.

قلت: فتأمر به للعيال، فيقوم الحوارى المتلطخ، مقام الخشكار النظيف وعلى أن المسح والدلك، يأتى على ما تعلق به الدسم.

قال: عيالى يرحمك الله عيـالان: واحد أعظمه عن هذا وأرفعه عنه، وآخر لم يبلغ عندى أن يترف بالحوارى!

قلت: فاجـعل إذًا جميع خبـزك الخشكار، فإن فضل مـا بينه الحوارى، فى الحسن والطيب، لا يقوم بفضل ما بين الحمد والذم.

قال: فهـا هنا رأى هو أعدل الأمور وأقصدها، وهو أنـا نحضر هذه الزيادة من الخبز، على طبق، ويكون قريبًا حيث تناوله اليد، فلا يحتاج أحد مع قربه منه إلى أن يدعو به، ويكون قربه من يده، كثرة على مائدته.

قلت: فالمانع من طلبـه هو المانع من تحويله، فأطعـمنى وأخرج هذه الزيادة من مالك كـيف شئت، واعلم أن هذه المقايسة، وطول هذه المذاكـرة أضر علينا مما نهيتك عنه، وأردتك على خلافه.

فلما حـضر وقت الغـداء، صوت بغلامـه وكان ضـخمًا جـهيـر الصوت، صاحب تقعير وتفخيم وتشديق، وهمـز وجزم، يا مبشر! هات من الخبز تمام عدد الرءوس!

قلت: ومن فرض لهم هذه الفريضة؟ ومن جزم عليهم هذا الجزم؟ أرأيت إن لم يشبع أحدهم رغيفه أليس لابد له مـن أن يعوِّل على رغيف صاحبه، أو يتنحى وعليه بقيَّة، ويعلق يده منتظرًا للعادة فقد عاد الأمر وبطل ما تناظرنا فيه.

قال: لا أعلم إلا ترك الطعام ألبتة؛ أهون علينا من هذه الخصومة.

قلت: هذا ما لا شك فـيه، وقد عملت عندى بالصـواب، وأخذت لنفسك بالثقة، إن وفيت بهذا القول.

وكان كثـيرًا ما يقول: يا غلام هات شـيئًا من قلية وأقلّ منهـا وأعد لنا ماء باردًا وأكثـر منه. وكان يقول: قد تغـير كل شىء من أمر الدنيا، وحـال عن أمره وتبدل، حتى المؤاكلة. قاتل الله رجالاً كنا نؤاكلهم، ما رأيت قصعة قط رفعت من بين أيديهم إلا وفيها فضل. وكانوا يعلمون أن إحضار الجدى إنما هو شىء من آيين الموائد الرفيعـة، وإنما جعل كالعاقبـة والخاتمة، وكالعلامة لليـسر وللفراغ، وأنه لم يحضر للتمزيق والتخريب، وأن أهله لو أرادوا به السوء لقدَّموه قبل كل شىء لتقع الحدَّة به. بل مـا يأكل منه إذا جىء به إلا العابث، وإلا الذى لو لم يره لقـد كان

رفع يده ولم ينتظر غيره. ولذلك قال أبو الحارث جُمّين، حين رآه لا يمس: «هذا المدفوع عنه». ولولا أنه على ذلك شاهد الناس، لما قال ما قال. ولقد كانوا يتحامون بيضة البقَيلة، ويدعها كل واحد منهم لصاحبه حتى أن القصعة لقد كانت ترفع وأن البيض خاصة لعلى حاله وأنت اليوم إذا أردت أن تمتع عينك بنظرة واحدة منها، ومن بيض السُلاءة لم تقدر على ذلك. لا جرمَ لقد كان تركه ناس كثير، ما بهم إلا أن يكونوا شركاء من ساءت رِعته.

وكان يقول: الآدام أعداء للخبز. وأعداها له المالح. فلولا أن الله انتقم منه وأعان عليه بطلب صاحبه الماء وإكثاره منه، لظننت أنه سيأتى على الحرث والنسل. وكان مع هذا يقول: لو شرب الناس الماء على الطعام ما اتخموا، وأقلهم عليه شربًا أكثرهم منه تخمًا. وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء. وربما كان شبعان وهو لا يدرى. فإذا ازداد على مقدار الحاجة بشِم. وإذا نال الماء شيئًا بعد شيء! عرّفه ذلك مقدار الحاجات، فلم يزد إلا بقدر المصلحة. والأطباء يعلمون أن ما أقول حق، ولكنهم يعلمون أنهم لو أخذوا بهذا الرأى لتعطلوا، ولذهب المكسب. وما حاجة الناس إلى المعالجين إذا صحّت أبدانهم؟ وفى قول جميع الناس أن ماء دجلة أمرأ من الفرات وأن ماء مهران أمرأ من ماء نهر بلخ، وفى قول العرب: «هذا ماء نمير يصلح عليه المال»، دليل على أن الماء يمرئ، حتى قالوا: «إن الماء الذى يكون عليه التفاطات أمرأ من الماء الذى يكون عليه القيّارات. فعليكم بشرب الماء على الغداء، فإن ذلك أمرأ».

وكان يقول: ما بال الرجل إذا قال: «يا غلام اسقنى ماء أو اسق فلانًا ماء»، أتاه بقُلة على قدر الرى، فإذا قال: «أطعمنى شيئًا»، أو قال: «هات لفلان طعامًا»، أتاه من الخبز بما يفضل عن الجماعة، والطعام والشراب أخوان متحالفان ومتوازران؟ وكان يقول: لولا رخص الماء وغلاء الخبز، لما كلبوا على الخبز وزهدوا فى الماء. والناس أشد شيء تعظيمًا للمأكول إذا كثر ثمنه، أو كان قليلاً فى أصل منبته وموضع عنصره. هذا الجزر الصافى، وهذا الباقلى الأخضر العباسى، أطيب من كمثرى خراسان، ومن المؤز البستانى. ولكنهم لقصر همّتهم لا يتشهّون إلا على قدر الثمن، ولا يحنون إلا على قدر القلة وهذه العوام فى شهوات الأطعمة إنما تذهب مع التقليد، أو مع العادة، أو على قدر ما يعظم عندها من شأن الطعام. وأنا لست أطعم الجزر المسلوق بالخل والزيت والمرّىّ، دون الكمأة بالزّبد

والفلفل، لمكان الرّخص، أو لموضع الاستفضال، ولكن لمكان طيبه فى الحقيقة، ولأنه صالح للطبيعة. علِم ذلك من علم، وجهل ذلك من جهل.

وكان إذا كان فى منزله، فربما دخل عليه الصديق له، وقد كان تقدّمه الزائر أو الزائران، وكان يستعمل على خوانه من الخُدَع والمكايد والتدبير ما لم يبلغ بعضه قيس بن زُهير، والمهلَّب بن أبى صفرة، وخازم بن خزيمة، وهَرْثمة بن أعين؛ وكان عندَه فيه من الاحتيال ما لا يعرفه عمرو بن العاص، ولا المغيرة بن شُعبة؛ وكان كثيرًا ما يُمْسك الخلال بيده، ليوئس الداخل عليه من غدائه؛ فإذا دخل عليه الصديق له، وقد عزم على إطعام الزائر الزائرين قبله، وضاق صدره بالثالث، وإن كان قد دعاه وطلب إليه، أراد أن يحتال له، أو الرابع إن ابتُلى كُلٌّ واحد منهما بصاحبه، فيقول عند أول دخوله وخَلْعِ نعله وهو رافعٌ صوته بالتنويه وبالتشنيع: «هات يا مبشِّر لفلان شيئًا يطعَم منه، هات لنا شيئًا ينال منه، هات له شيئًا»، اتّكالاً على خجله أو غضبه أو أنفته، وطمعًا فى أن يقول: «قد فعلتُ».

فإن أخطأ ذلك الشقىّ وضَعُفَ قَلْبُهُ وحُصِرَ، وقال: «قد فعلت»، وعَلِمَ أنه قد أحرزه وحصَّله وألقاه وراء ظهره، لم يرض أيضًا بذلك حتى يقول: «بأى شىء تغديت؟» فلابد له من أن يكذب، أو ينتحل المعاريض. فإذا استَوْثَقَ منه رباطًا، وتركه لا يستطيع أن يترمرم، لم يرضَ بذلك حتى يقول فى حديث له: «كنا عند فلان، فدخل عليه فلانٌ فدعاه إلى غدائه، فامتنع. ثم بدا له، فقال: فى طعامكم بُقَيلةٌ أنتم تجيدونها، ثم تناوله». فلا يزال يزيد فى وثاقه، وفى سد الأبواب عليه، وفى منعه البَدَوات حتى إذا بلغ الغاية قال: «يا مبشر أما إذ تغدَّى فلان واكتفى، فهات لنا شيئًا نعبث به».

فإذا وضعوا الطعام، أقبل على أشدِّهم حياءً، أو على أشدهم أكلاً، فسأله عن حديث حَسَنْ، أو عن خَبَر طويل. ولا يسأله إلا عن حديث يُحتاج فيه إلى الإشارة باليد أو الرأس كل ذلك ليشغله. فإذا هم أكلوا صَدْرًا، أظهر الفتور والتشاغل والتنقّر كالشبعان الممتلئ. وهو فى ذلك غير رافع يده ولا قاطع أكله. إنما هو النَّتْف بعد النتف، وتعليق اليَد فى خلل ذلك. فلابدّ من أن ينقبضَ بعضُهُم ويرفع يده، وربما شَمِلَ ذلك جماعتهم. فإذا عَلِمَ أنه قد أحرزهم واحتال لهم، حتى يقلَعَهم من مواضعهم من حول الخِوانِ، ويعيدهم إلى مواضعهم من

مجالسهم، ابتدأ الأكل، فأكل أكلَ الجائع المقرور، وقال: «إنما الأكل تاراتٌ والشُّراب تاراتٌ».

وكان كثيراً ما يقول لأصحابه إذا بكَروا عليه: لِمَ لا تشرب أقداحًا على الريق؟ فإنها تقتل الديدان، ونحفش لأنفسنا قليلاً، فإنها تأتى على جميع الفضول، وتشَهِّى الطعام بعد ساعة. وسُكْره أطيب من سُكر الكظَّة. والشراب على الملأة بلاء، وهو بعد ذلك دليلٌ على أنك نبيذىٌّ خالصٌ. وَمَنْ لم يشرب على الريق فهو نكْس في الفتوة ودَعِىٌّ فى أصحاب النبيذ. وإنما يخاف على كبده من سَوْرة الشرابَ على الريق، من بَعُدَ عهده باللحم. وهذه الصَّبحة تغسل عنكم الأوضار، وتنفى التُّخَم، وليس دواء الخمار إلا الشرب بالكبار. والأعشى كان أعلم به حيث يقول:

وكأسٍ شربتُ على لَذَّةٍ وأخرى تداويتُ منها بها

وهذا، حَفِظَكَ الله، هو اليوم الذى كانوا لا يُعاينون فيه لقمة واحدة، ولا يدخل أجوافهم من النقل ما يزنُ خردلة. وهو يوم سروره التامّ، لأنه قد ربح المرزئة وتمتع بالمنادَمَة.

واشترى مرة شبُّوطة وهو ببغداد وأخذها فائقةً عظيمة، وغالى بها وارتفع فى ثمنها، وكان قد بَعُدَ عَهدُه بأكل السمك، وهو بَصْرى لا يصبر عنه. فكان قد أكبر أمر هذه السَمكة، لكثرة ثمنها ولسمْنَها وعِظَمها ولِشدَّة شهوته لها. فحين ظنَّ عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفردَّ بأطايبها، وحسر عن ذراعيه وصَمَد صَمْدَها، هجمتُ عليه ومعى السِّدرىّ. فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف، ورأى الحتم المقضىَّ، ورأى قاصمَة الظهر، وأيقن بالشرِّ، وعَلِم أنه قد ابتُلى بالتنين.

فلم يلبثه السدرىّ حتى قوَّر السرّة بالمبال فأقبل علىَّ فقال لى: «يا أبا عثمان، السِّدرىّ يعجبه السُّرر»، فما فصلت الكلمة من فيه، حتى قبض على القفا فانتزع الجانبين جميعًا. فأقبل علىَّ فقال: «والسدرىّ يعجبه الأقفاء»، فما فرغ من كلامه إلا والسدرىّ قد اجترف المتن كله، فقال: «يا أبا عثمان والسدرىّ يعجبه المتون»، ولم يظن أن السدرى يعرف فضيلة ذنب الشبُّوط وعذوبة لحمه، وظنَّ أنه سيسلم له، وظنَّ معرفة ذلك من الغامض، فلم يدْر إلا والسدرى قد اكتسح ما على الوجهين جميعًا. ولولا أن السدرى أبطره وأثقله وأكمده وملأ صدره وملأه

غيظًا لقد كـان أدرك معه طرفًا، لأنه كان من الأكلة. ولكنَّ الغـيظ كان من أعوان السدرى عليه.

فلما أكل السدرىّ جميع أطايبها. وبقىَ هو فى النظارة، ولم يبقَ فى يده مما كـان يأمله فى تلك السمكة إلا الـغيظ الشـديد والغرم الثـقيل، ظن أن فى سـائر السمكة ما يشبعهُ ويشفى من قرمه. فبذلك كان عزاؤه، وذلك هو الذى كان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه. فلما رأى السـدرىّ يفرى الفَرىّ ويلتهم التهامًا قال: «يا أبا عثمان، السـدرىّ يعجبهُ كلُّ شىء». فتولَّد الغيظ فى جوفـه، وأقلقته الرِّعدة. فخبثت نفسه، فما زال يقىءُ ويسلَح. ثم ركِبته الحمَّى.

وصـحت توبته وتمَّ عـزمه، فى أن لا يـؤاكل رغيـبًا أبدًا ولا زهيـدًا، ولا يشترى سمكة أبدًا رخيصة ولا غـالية، وإن أهدوها إليه أن لا يقبلها، وإن وجدَهَا مطروحة لا يمسُّها.

* * *

فهذا مـا كان حَضَرَنِى من حديث ابن أبى المؤمَّل. وقد مـات. عفا الله عنا وعنه.

* * *

أسـد بن جانـى

فأما أسد بن جـانى. فكان يجعل سريره فى الشتاء من قـصب مقشر. لأن البراغيث تزلق عن ليط القصب. لفرط لينه وملاسته.

وكان إذا دخل الصيف وحـر عليه بيته، أثاره حتى يغـرق المسحاة ثم يصب عليه جرارًا كثيرة من ماء البئر، ويتوطأه حتى يستوى، فلا يزال ذلك البيت باردًا ما دام نديًّا. فإذا امتد به الندى، ودام برده بدوامه، اكتفـى بذلك التبريد صيفته. وإن جف قبل انقضاء الصيف، وعاد عليه الحر عاد عليه بالإثارة والصب.

وكان يقـول خيـشتى أرض، وماء خـيشـتى من بئرى، وبيتى أبـرد ومؤنتى أخف، وأنا أفضلهم أيضًا بفضل الحكمة، وجودة الآلة.

وكان طبيبًا فأكسد مرة، فـقال له قائل: السنة وبئة والأمراض فاشية، وأنت

عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، من أين تؤتى فى هذا الكساد؟ قال:

أما واحدة، فإنى عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، لا بل قبل أن أخلق. إن المسلمين لا يفلحون فى الطب! واسمى أسد، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليبًا، وجبرائيل ويوحنا، وبيرا، وكنيتى أبو الحارث، وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى، وأبو زكريا، وأبو إبراهيم، وعلى رداء قطن أبيض، وكان ينبغى أن يكون رداء حرير أسود، ولفظى لفظ عربى، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جندى سابور.

الثــــورى

قال الخليل السلولى: أقبل على يومًا الثورى، وكان يملك خمسمائة جريب، ما بين كرسى الصدقة إلى نهر مرة، ولا يشترى إلا كل غرة وكل أرض مشهورة بكريم التربة، وشرف الموضع، والغلة الكثيرة، قال: فأقبل علىَّ يومًا فقال لى: هل اصطبغت بماء الزيتون قط؟ قال: قلت: لا والله، قال: أما والله لو فعلته ما نسيته! قال: قلت: أجل إنى والله لو فعلته لما نسيته.

وكان يقول لعياله: لا تلقوا نوى التمر والرطب، وتعودوا ابتلاعه وخذوا حلوقكم بتسويغه، فإن النوى يعقد الشحم فى البطن. ويدفئ الكليتين بذلك الشحم، واعتبروا ذلك ببطون الصفايا، وجميع ما يعتلف النوى، والله لو حملتم أنفسكم على البزر والنوى، وعلى قضم الشعير، واعتلاف القت، لوجدتموها سريعة القبول! وقد يأكل الناس القت فداحًا، والشعير فريكًا، ونوى البسر الأخضر، ونوى العجوة.

فإنما بقيت الآن عليكم عقبة واحدة، لو رغبتم فى الدفء لالتمستم الشحم، وكيف لا تطلبون شيئًا يغنيكم عن دخان الوقود، وعن شناعة العسكر، وعن ثقل الغرم؟.

والشحم يفرح القلب، ويبيض الوجه، والنار تسود الوجه، أنا أقدر أن ابتلع النوى وأعلفه الشاء، ولكنى أقول ذلك بالنظر منى لكم.

وكان يقول: كلوا الباقلى بقشوره فإن الباقلى يقول: من أكلنى بقشورى، فقد أكلنى، ومن أكلنى بغير قشورى، فأنا الذى آكله! فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعامًا لطعامكم، وأكلاً لما جعل أكلاً لكم؟

وكان يعين مالاً عظيمًا، ولم يكن له وارث، فكان يسخر ببعضهم، فيقول عند الإشهاد، قد علمتم أن لا وارث لى، فإذا مت فهذا المال لفلان، فكان قوم كثير يحرصون على مبايعته لهذا، وقد رأيته أنا زمانًا من الدهر، ما رأيته قط إلا

ونعله فى يده، أو يمشى طول نهاره فى نعل مقطوعة العقب، شديدة على صاحبها، قال: فهو ذا المجوس، يرتعون البصرة وبغداد وفارس والأهواز، والدنيا كلها، بنعال سندية، فقيل له: إن المجوسى لا يستحل فى دينه المشركة فأنت لا تجده أبدًا إلا حافيًا أو لابسًا نعلاً سندية، وأنت مسلم ومالك كثير.

قال: فمن كان ماله كثيرًا، فلابد له من أن يفتح كيسه للنفقات وللسراق؟ قالوا: فليس بين هاتين منزلة؟

* * *

حديث الخليل عن الثورى

قال الخليل: جلس الثورى إلى حلقة المصلحين فى المسجد، فسمع رجلاً من مياسيرهم يقول: بطنوا كل شيء لكم، فإنه أبقى، ولأمر جعل الله دار الآخرة باقية، ودار الدنيا فانية، ثم قال: ربما رأيت المبطنة الواحدة تقطع أقمصة، والعمامة الواحدة تقطع أربعة أزر، ليس ذلك إلا لتعاون الطى، وترافد الأثناء، فبطنوا البوارى، وبطنوا الحصر، وبطنوا البسط، وبطنوا الغداء بشربة باردة!

قال: فقال له الثورى: لم أفهم مما قلت إلا لهذا الحرف وحده.

* * *

قال الخليل: حُمَّ الثورى وحُمَّ عياله وخادمه، فلم يقدروا مع شدة الحمى على أكل الخبز، فربح كيلة تلك الأيام من الدقيق، ففرح بذلك وقال:

لو كان منزلى سوق الأهواز أو نطاة خيبر، أو وادى الجحفة، لرجوت أن استفضل كل سنة مائة دينار، فكان لا يبالى أن يُحَمّ هو وأهله أبدًا، بعد أن يستفضل كفايتهم من الدقيق.

وكان يقول: إذا رأيت الرجل يشترى الجدى رحمته، فإن رأيته يشترى الدجاج حقرته، فإن رأيته يشترى الدراج لم أبايعه ولم أكلمه.

وأنه قال: أول الإصلاح وهو من الواجب، خصف النعل واستجادة الطراق، وتشحيمها فى كل الأيام، وعقد ذؤابة الشراك من زى النساك، لكيلا يطأ عليه إنسان فيقطعه، ومن الإصلاح الواجب قلب خرقة القلنسوة إذا اتسخت، وغسلها من اتساخها بعد القلب، واجعلها حبرة فإنها مما له مرجوع، ومن ذلك

اتخاذ قميص الصيف جبة في الشتاء، واتخاذ الشاة اللبون إذا كان عندك حمار. واتخاذ الحمار الجامع، خير من غلة ألف دينار، لأنه لرحلك، وبه تدرك البعيد من حوائجك، وعليه تطحن، فتستفضل ما يربحه عليك الطحان، وتنقل عليه حوائجه وحوائجك، حتى الحطب، وتستقي عليه الماء، وهذه كلها مؤن، إذا جمعت كانت في السنة مالاً كثيراً.

ثم قال: أشهد أن الرفق يمن وأن الخرق شؤم. اشتريت ملاءة مذارية فلبستها ما شاء الله رداء وملحفة، ثم احتجت إلى طيلسان فقطعتها يعلم الله، فلبسته ما شاء الله، ثم احتجت إلى جبة فجعلته يعلم الله ظهارة جبة محشوة، فلبستها ما شاء الله، ثم أخرجت ما كان فيها من الصحيح، فجعلته مخاد، وجعلت قطنها للقناديل، ثم جعلت ما دون خرق المخاد للقلانس، ثم عمدت إلى أصح ما بقي، فبعته من أصحاب الصينيات والصلاحيات، وجعلت السقاطات، وما قد صار كالخيوط وكالقطن المندوف، صمائم لرءوس القوارير.

وقد رأيته وسمعت منه في البخل كلاماً كثيراً، وكان من البصريين ينزل في بغداد مسجد ابن رغبان ولم أر شيخاً ذا ثروة اجتمع عنده وإليه من البخلاء ما اجتمع له. منهم: إسماعيل بن غزوان وجعفر بن سعيد وخاقان بن صبيح وأبو يعقوب الأعور وعبد الله العروضي والحزامي عبد الله بن كاسب.

وأبو عبد الرحمن هذا، شديد البخل شديد العارضة، عضب اللسان وكان يحتج للبخل ويوصي به، ويدعو إليه، وما علمت أن أحداً جرد في ذلك كتاباً إلا سهل بن هارون وهو.

* * *

وأبو عبد الرحمن هذا هو الذي قال لابنه: أي بني إن إنفاق القراريط، يفتح عليك أبواب الدوانيق، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير، والعشرات تفتح عليك أبواب المئين، والمئون تفتح عليك أبواب الألوف، حتى يأتي ذلك على الفرع والأصل، ويطمس على العين والأثر، ويحتمل القليل والكثير.

أي بني إنما صار تأويل الدراهم «دار الهم»، وتأويل الدينار «يدني إلى النار». إن الدرهم إذا خرج إلى غير خلف، وإلى غير بدل، دار الهم على دانق

مخرجه، وقيل: إن الدينار يدنى إلى النار، لأنه إذا أنفقه فى غير خلف، وأخرج إلى غير بدل، بقيت مخفقًا معدمًا، وفقيراً مبلطًا، متحرج المخارج، وتدعوه الضرورة إلى المكاسب الرديئة، والطعم الخبيثة، والخبيث من الكسب، يسقط العدالة، ويذهب بالمروءة ويوجب الحد ويدخل النار.

وهذا التأويل الذى تأوله للدرهم والدينار، ليس له، إنما هذا شيء كان يتكلم به عبد الأعلى القاص، فكان عبد الأعلى إذا قيل له: لِمَ سمى الكلب قليطًا؟ قال: لأنه قل ولطى، وإذا قيل له: لِمَ سمى الكلب سلوقيًا؟ قال: لأنه يستل ويلقى، وإذا قيل له: لِمَ سمى العصفور عصفوراً؟ قال: لأنه عصى وفر.

وعبد الأعلى هذا، هو الذى كان يقول فى قصصه: الفقير رداؤه علقة ومرفقته سلقة، وجرذقته فلقة، وسمكته شلقة، فى طيب له كثير.

وبعض المفسرين يزعم أن نوحًا النبى -عليه السلام-، إنما سمى نوحًا لأنه كان ينوح على نفسه، وأن آدم إنما سمى آدم لأنه حُذى من أديم الأرض، وقالوا: كان لونه فى أدمة لون الأرض، وأن المسيح إنما سمى المسيح لأنه مسح بدهن البركة، وقال بعضهم: لأنه كان لا يقيم فى البلد الواحد، وكان كأنه ماسح يمسح الأرض.

* * *

وصيته لابنه يوم الرءوس

ثم رجع الحديث عن أعاجيب أبى عبد الرحمن، وكان أبو عبد الرحمن يعجب بالرءوس ويحمدها ويصفها، وكان لا يأكل اللحم إلا يوم أضحى، أو من بقية أضحيته، أو يكون فى عرس أو دعوة أو سفرة وكان سمى الرأس عرسًا لما يجتمع فيه من الألوان الطيبة، وكان يسميه مرة الجامع، ومرة الكامل.

وكان يقول الرأس شيء واحد، وهو ألوان عجيبة وطعوم مختلفة، وكل قدر وكل شواء فإنما هو شيء واحد، والرأس فيه الدماغ، فطعم الدماغ على حدة، وفيه العينان وطعمهما شيء على حدة، وفيه الشحمة التى بين أصل الأذن ومؤخر العين، وطعمها على حدة، على أن هذه الشحمة خاصة، أطيب من المخ، وأنعم من الزبد، وأدسم من السلاء، وفى الرأس اللسان، وطعمه شيء على حدة، وفيه

الخيشوم والغضروف الذى فى الخيشوم وطعمهما شىء على حدة، وفيه لحم الخدين وطعمه شىء على حدة، حتى يقسم أسقاطه الباقية.

ويقول: الرأس سيد البدن وفيه الدماغ، وهو معدن العقل، ومنه يتفرق العصب الذى فيه الحس، وبه قوام البدن، وإنما القلب باب العقل، كما أن النفس هى المدركة، والعين باب الألوان، والنفس هى السامعة الذائقة، وإنما الأنف والأذن بابان، ولولا أن العقل فى الرأس لما ذهب العقل من الضربة تصيبه، وفى الرأس الحواس الخمس، وكان ينشد قول الشاعر:

إذا ضربوا رأسى وفى الرأس أكثرى   وغودر عند الملتقى ثم سائرى

وكان يقول: الناس لم يقولوا هذا رأس الأمر، وفلان رأس الكتيبة، وهو رأس القوم، وهم رءوس الناس وخراطيمهم وأنفهم، ويشتقوا من الرأس الرياسة والرئيس، وقد رأس القوم فلان، ألا والرأس هو المثل، وهو المقدم.

وكان إذا فرغ من أكل الرأس، عمد إلى القحف وإلى الجبين، فوضعه بقرب بيوت النمل والذر، فإذا اجتمعت فيه أخذه فنفضه فى طست فيها ماء، فلا يزال يعيد ذلك فى تلك المواضع حتى يقطع أصل النمل والذر من داره، فإذا فرغ من ذلك ألقاه فى الحطب ليوقد به سائر الحطب.

وكان إذا كان يوم الرءوس أقعد ابنه معه على الخوان، إلا أن ذلك بعد تشرط طويل، وبعد أن يقف به على ما يريده، وكان فيما يقول له: إياك ونهم الصبيان وشره الزراع، وأخلاق النوائح، ودع عنك خبط الملاحين والفعلة، ونهش الأعراب والمهنة وكل ما بين يديك، فإنما حقك الذى وقع لك، وصار أقرب إليك.

واعلم أنه إذا كان فى الطعام شىء طريف، ولقمة كريمة، ومضغة شهية، فإنما ذلك للشيخ المعظم، والصبى المدلل، ولست واحداً منهما، فأنت قد تأتى الدعوات والولائم، وتدخل منازل الإخوان. وعهدك باللحم قريب، وإخوانك أشد قرمًا إليه منك، وإنما هو رأس واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض، وتصيب بعضًا، وأنا بعد أكره لك الموالاة بين اللحم، فإن الله يبغض أهل البيت اللحمين.

وكان عمر يقول: «إياكم وهذه المجازر، فإن لها ضراوةً كضراوة الخمر».

وكان يقول: «مدمن اللحم كمدمن الخمر».

وقال المسيح ورأى رجُلاً يأكل اللحم فقال: «لحمٌ يأكل لحمًا، أفّ لـهذا عملاً».

وذكر هَرِم بن قطبة اللحم، فقال: «وإنه ليقتل السباع».

وقال المهلب: «لحمٌ وارد على غير قَرِم، هذا الموت الأحمر».

وقال الأول: «أهلك الرجال الأحمران: اللحم والخمر، وأهلك النساء الأحمران: الذهب والزعفران».

أىّ بنىّ! عوِّد نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهَش نهش الأفاعى ولا تخضم خضم البراذين، ولا تُدِمْ الأكل إدامة النعاج، ولا تلقَم لقم الجمال. قال أبو ذر لمن بدل من أصحاب رسول الله -ﷺ-: «**تخضمون ونقضم والموعد الله**».

إن الله قد فضلك، فجعلك إنسانًا فلا تجعل نفسك بهيمة، ولا سبعًا، واحذر سرعة الكظة، وسرف البطنة، وقد قال بعض الحكماء: إذا كنت بطينًا فعد نفسك فى الزمنى، وقال الأعشى:

والبطنة مما تسفه الأحلاما

واعلم أن الشبع داعية البشم، وأن البشم داعية السقم، وأن السقم داعية الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة، وهو قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره، واعجب إن أردت العجب! وقد قال الله جل ذكره: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ وسواء قتلنا أنفسنا أو قتل بعضنا بعضًا، كان ذلك للآية تأويلاً.

أى بنى إن القاتل والمقتول فى النار، ولو سألت حذاق الأطباء، لأخبروك أن عامة أهل القبور، إنما ماتوا بالتخم، واعرف خطأ من قال: أكلة وموتة، وخذ بقول من قال: رب أكلة تمنع أكلات. وقال الحسن: يا ابن آدم كل فى ثلث بطنك واشرب فى ثلث بطنك ودع الثلث للتفكر والتنفس. وقال بكر بن عبد الله المزنى: ما وجدت طعم العيش حتى استبدلت الخمص بالكظة، وحتى لم ألبس من ثيابى ما يستخدمنى، وحتى لم آكل إلا ما لا أغسل يدى منه.

يا بنى والله ما أدى حق الركوع، ولا وظيفة السجود، ذو كظة! ولا خشع

لله ذو بطنة! والصوم مصحة، والوجبات عيش الطالحين. ثم قال: لأمر ما طالت أعمار الهند، وصحت أبدان الأعراب. فلله در الحارث بن كلدة، حين زعم أن الدواء هو الأزم، وأن الداء هو إدخال الطعام فى أثر الطعام.

أى بنى، لم صفت أذهان العرب؟ ولم صدقت إحساس الأعراب؟ ولم صحت أبدان الرهبان، مع طول الإقامة فى الصوامع؟ وحتى لم تعرف النقرس ولا وجع المفاصل، ولا الأورام، إلا لقلة الرزء من الطعام، وخفة الزاد والتبليغ باليسير.

أى بنى! إن نسيم الدنيا وروح الحياة، أفضل من أن تبيت كظيظًا وأن تكون بقصر العمر خليقًا. وكيف لا ترغب فى تدبير يجمع لك صحة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح المعاد، وكثرة المال، والقرب من عيش الملائكة.

أى بنى لم صار الضبُّ أطول شىء عمرًا، إلا لأنه إنما يعيش بالنسيم، ولم قال الرسول -ﷺ-: «**إن الصوم وجاء**»، إلا ليجعل الجوع حجازًا دون الشهوات، أفهم تأديب الله، فإنه لم يقصد به إلا إلى مثلك.

أى بنى قد بلغت تسعين عامًا، ما نغض لى سن، ولا تحرك لى عظم، ولا انتشر لى عصب، ولا عرفت دنين أذن، ولا سيلان عين، ولا سلس بول، ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد، فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تحب الموت، فلا يبعد الله إلا من ظلم.

* * *

هذه كانت وصيته فى يوم الرءوس وحده، فلم يكن لعياله إلا التقمم ومص العظم!!

وكان لا يشترى الرأس إلا فى زيادة الشهر، لمكان زيادة الدماغ، وكان لا يشترى إلا رأس فتى، لوفارة الدماغ، لأن دماغ الفتى أوفر، ويكون مخه أنقص، ومخ المسن أوفر، ودماغه أنقص.

ويزعمون أن للأهلة والمحاق، فى الأدمغة والدماء، عملاً معروفًا، وبينها فى الربيع والخريف، فضلاً بيِّنًا.

وتزعم الأعراب والعرب، أن النطفة إذا وقعت فى الرحم فى أول الهلال.

خرج الولد قويًّا ضخمًا، وإذا كـان فى المحاق، خرج ضئيلاً شخـتًا، وأنشد قول الشاعر:

لقحت فى الهلال عن قبل الطهـ ـر وقـد لاح للضيـاء بشـيـر
ثـم نمـى ولـم يـراضـع فلـواً ورضـاع المجح عـيب كـبيـر!

وكان أبو عبد الرحمن، يشترى ذلك الرأس من جميع رئاسى بغداد، إلا من رئاسى مسجد ابن رغبان. وكان لا يشتريه إلا يوم سبت. واختلط عليه الأمر فيما بين الشتاء والصيف فكان مرة يشتريه فى هذا الزمان، ومرة يشتريه فى هذا الزمان.

وأما زهده فى رءوس مسجد ابن رغبان، فـإن البصريين يختارون لحم الماعز الخصى على الضأن كله، ورءوس الضأن أشحم وألحم، وأرخص رخصًا وأطيب، ورأس التيس أكـثر لحـمًا من رأس الخـصى، لأن الخصى من الماعز يـعرق جلده، ويقل لحم رأسه، ولا يبلغ جلده، (وإن كان ماعزًا)، فـى الثمن عشر ما يبلغ جلد التيس، ولا يكون رأسه إلا دونًا، ولذلك تخطاه إلى غيره.

وأما اختيـاره شراء الرءوس يوم السبت، فإن القصابين يذبحـون يوم الجمعة أكثر، فـتكثر الرءوس يوم السبت، على قـدر الفضل فيما يـذبحون، ولأن العوام والتجار والصناع، لا يقومون إلى أكل الرءوس يوم السبت، مع قرب عهدهم بأكل اللحم يوم الجمعـة، ولأن عامتهم قـد بقيت عنده فضلة، فهى تمنعـه من الشهوة، ولأن الناس لا يكادون يجمعون على خوان واحد بين الرءوس واللحم.

وأما اختـلاط التدبير عليه فى فـرق ما بين الشتاء والصـيف، فوجه ذلك أن العلل كانت تتصور له وتعرض له الدواعى على قدر قرمـه، وحركة شهوته، صيفًا وافق ذلك أم شتاء.

فإن اشـتراه فى الصـيف فلأن اللحم فى الصيف أرخـص، والرءوس تابعة للحم والناس فى الشـتاء لها آكل وهم لهـا فى القيظ أترك، فكان يخـتار الرخص على حسن الموقع، فإذا قـويت دواعيها فى الشتاء قال رأس واحـد شتوى كرأسين صيفيين، لأن المعلوفة غير الراعية.

وما أكل الكسب فى الحبس موثقًا غير مـا أكل الحشيش فى الصحراء مطلقًا وكـان على ثقة أنه سـيأتى عليـه فى الشـتاء، مع صـحتـه وبدنه، وفى شك من

استبقـائه في الصيف، ولنقصان شهوات الناس للرءوس فـى الصيف، كان يخاف جريرة تلك البقية، وجناية تلك الفضلة، وكان يقول: إن أكلتها بعد الشبع لم آمن العطب، وإن تركتها لهم فى الصيف ولم يعرفوا العلة طلبوا ذلك منى فى الشتاء.

* * *

طرائـف العنبـرى

حدثنى المكى قال: كنت يومًا عند العنبرى إذ جاءت جارية أمه، ومعها كوز فارغ، فقالت: قالت أمك بلغنى عندك مزملة، ويومنا يوم حار، فابعث إلى بشربة منهـا فى هذا الكوز. قـال: كذبتِ! أمـى أعقل من أن تبـعث بكوز فـارغ ونرده ملآن، اذهبى فاملئيه من ماء حيكم وفرغيه فى حينا ثم املئيه من ماء مزملتنا حتى يكون شىء بشىء!

قال المكى: فإذا هـو يريد أن تدفع جوهرًا لجوهر وعرضًـا بعرض، حتى لا تربح أمه إلا صـرف ما بين العـرضين، الذى هو البرد والحر، فـأما عـدد الجواهر والأعراض فمثلاً بمثل.

وقال المكى: دخلت عليه يومًا وإذا عنده جلة تمر، وإذا ظئـره جالسة قبالته، فلما أكل تمـرة رمى بنواتها إليهـا، فأخذتـها فمـصتهـا ساعة ثم عـزلتهـا. فقلت للمكى: أكان يدع على النواة من جسم الـتمر شيئًا؟ قال: والله لقـد رأيتها لاكت نواة مرة بعد أن مصتها، فصاح بها صيـحة لو كانت قتلت قتيلاً ما كان عنده أكثر من ذلك! وما كانت إلا فـى أن تبادله الأعراض وتسلم إليه الجـوهر وكانت تأخذ حلاوة النواة وتودعها ندوة الريق.

* * *

طرائـف أبـى قطبـة

قال الخليل: كان أبو قطبة يستـغل ثلاثة آلاف دينار، وكان من البخل يؤخر تنقيـة بالوعته إلى يوم المطـر الشديد، وسيل المتـاعب ليكترى رجلاً واحـدًا فقط، يخرج ما فيـها ويصبه فى الطريق، فيجترفـه السيل، ويؤديه إلى القناة، وكان بين موضع بئره والصب قدر مـائتى ذراع، فكان لمكان زيادة درهمين، يحتمل الانتظار شهرًا أو شهرين، وإن هو جرى فى الطريق وأوذى به الناس.

وقال: ونظر يومًا إلى الكساحين، وهو معنا جالس فى رجال من قريش، وهم يخرجون ما فى بالوعته، ويرمون به فى الطريق وسيل المتاعب يحتمله، فقال: أليس البط والجداء والدجاج والفراخ والدراج وخبز الشعير والصحناء والكراث والجواف جميعًا يصير إلى ما ترون؟ فلم يغالى بشىء يصير هو والرخيص فى معنى واحد؟!

وقال: والكساحون ثلاثة أخوة أبو قطبة والطيل وبانى، من ولد عتاب بن أسيد، واحد منهم كان يحج عن حمزة ويقول: استشهد قبل أن يحج، والآخر كان يضحى عن أبى بكر وعمر ويقول: أخطأ السنة فى ترك الضحية، وكان الآخر يفطر عن عائشة أيام التشريق ويقول: غلطت رحمها الله فى صومها أيام العيد فمن صام عن أبيه وأمه فأنا أفطر عن عائشة.

* * *

طرائف فيلويه

حدثتنى امرأة تعرف الأمور قالت: كان فى الحى مأتم اجتمع فيه عجائز من عجائز الحى، فلما رأين أن أهل المأتم قد أقمن المناحة، اعتزلن وتحدثن، فبينا هن فى حديثهن، إذ ذكرن بر الأبناء بالأمهات، وإنفاقهم عليهن، وذكرت كل واحدة منهن ما يوليها ابنها فقالت واحدة منهن -وأم فيلويه ساكتة، وكانت امرأة صالحة وابنها يظهر النسك ويدين بالبخل، وله حانوت فى مقبرة بنى حصن يبيع فيها الأسقاط - قالت: فأقبلت على أم فيلويه وقلت لها: ما لك لا تحدثين معنا عن ابنك كما نتحدث وكيف صنع فيلويه فى ما بينك وبينه، قالت: كان يجرى على فى كل أضحى درهمًا. ثم قالت: وقد قطعه أيضًا.

قالت المرأة: وما كان يجرى عليك إلا درهمًا؟ قالت: ما كان يجرى علىَّ إلا ذاك، وربما أدخل أضحى فى أضحى! فقالت: فقلت: يا أم فيلويه، وكيف يدخل أضحى فى أضحى قد يقول الناس إن فلانًا أدخل شهرًا فى شهر ويومًا فى يوم، أما أضحى فى أضحى فهذا شىء لابنك لا يشركه فيه أحد؟!

تمام بن جعفر

كان تمام بن جعفر بخيلاً على الطعام مفرط البخل وكان يقبل على كل من كل أخبزه بكل علة ويطالبه بكل طائلة وحتى ربما استخرج عليه أنه كان حلال الدم. وكان إن قال له نديم: ما فى الأرض أحد أمشى منى ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر منى، قال: وما يمنعك من ذلك وأنت تأكل أكل عشرة؟ وهل يحمل الرجل إلا البطن؟ لا حمد الله من يحمدك!.

فإن قال: لا والله إن أقدر أن أمشى، لأنى أضعف الخلق عنه، وإنى لأنبهر من مشى ثلاثين خطوة، قال: وكيف تمشى وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالاً! وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل؟ وأى بطين يقدر على الحركة؟ وإن الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود فكيف بالمشى الكثير؟.

فإن شكا ضرسه وقال: ما نمت البارحة مع وجعه وضربانه، قال: عجبت كيف اشتكيت واحداً وكيف لم تشتك الجميع؟! وكيف بقيت إلى اليوم فى فيك حاكة؟! وأى ضرس يقوى على الضرس والطحن والله إن الإرجاء السورية لتكل وأن المنجان الغليظ ليتبعه الدق! ولقد استبطأت لك هذه العلة!! ارفق فإن الرفق يمن، ولا تخرق بنفسك، فإن الخرق شؤم!.

وإن قال: لا والله إن اشتكيت ضرساً لى قط، ولا تحلحل لى سن عن موضعه منذ عرفت نفسى، قال: يا مجنون لأن كثرة المضغ تشد العمور وتقوى الأسنان وتدبغ اللثة، وتغذو أصولها، وإعفاء الأضراس من المضغ يريحها، وإنما الفم جزء من الإنسان. وكما أن الإنسان نفسه إذا تحرك وعمل قوى، وإذا طال سكونه تفتّح واسترخى فكذلك الأضراس. ولكن رفقاً فإن الإتعاب ينقص القوة، ولكل شىء مقدار ونهاية، فهذا ضرسك لا تشتكيه وبطنك أيضاً لا تشتكيه؟ فإن قال: والله إن أروى من الماء، وما أظن أن فى الدنيا أحداً أشرب منى للماء. قال: لابد للتراب من ماء ولابد للطين من ماء يبله ويرويه. أوليست الحاجة على قدر كثرته وقلته والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرته لك مع ما أرى من شدة أكلك

وعظم لقمك! أتدرى ما قد تصنع؟ أنت والله تلعب! أنت لست ترى نفسك! فسل عنك من يصدقك حتى تعلم أن ماء دجلة، يقصر عما فى جوفك!.

فإن قال: مـا شربت اليوم ألبتة، وما شـربت أمس بمقدار نصف رطل، وما فى الأرض إنسان أقل شربًـا منى للماء، قال: لأنك لا تدع لشرب الماء مـوضعًا، ولأنك تكنز فى جوفك لا يجد الماء معه مدخلاً، والعجب أن لا تتخم لأن من لا يشرب الماء على الخوان لا يدرى مقدار ما أكل ومن جـاوز مقدار الكفاية كان حريًا بالتخمة.

فإن قال: ما أنام الليل كله وقـد أهلكنى الأرق قال: وتدعك الكظة والنفخة والقرقرة أن تنام؟ والله لو لم يكن إلا العطش الذى ينبه الناس لما نمت، ومن شرب كثيراً بال كثيراً، ومن كان الليل كله بين شرب وبول كيف يأخذه النوم؟

فإن قال: ما هو إلا أن أضع رأسى، فإنما أنا حجر ملقى إلى الصبح، قال: ذلك لأن الطعام يسكن ويخدر ويحير، ويبل الدماغ ويبل العروق، ويسترخى عليه جميع البدن، ولو كان فى الحق، لكان ينبغى أن تنام الليل والنهار!

فإن قال: أصبحت وأنا لا أشتهى شيئًا، قال: إياك أن تأكل قليلاً ولا كثيراً، فإن أكل القليل على غير شهوة، أضر من الكثير مع الشهوة، قال الخوان: ويل لى ممن قال لا أريد! وبعد، وكيف تشتهى الطعام اليوم، وأنت قد أكلت بالأمس طعام عشرة!

وكان كثـيراً ما يقول لندمـائه: إياكم والأكل على الخمار. فـإن دواء الخمار الشراب، الخمار تخمة، والمتخم إذا أكل مات لا محالة، وإياكم والإكثار فى عقب الحجـامة والفصد والحـمام. وعليكم بالتخـفيف فى الصيف كله واجـتنبوا اللحم خاصة.

وكان يقول: ليس يفسـد الناس إلا الناس. هذا الذى يتكلم بالكلام البارد، وبالطرف المستنكرة، لو لم يصب من يضـحك له، ويعض من يشكره، ويتضاحك له وليس هو عنده إلا أن يظهـر العجب به لما تكلف النوادر إلا أهلـه. قول الناس للأكـول النهم، وللرغـيب الشره: فـلان حـسن الأكل! هو الذى أهلكه وزاد فى رغبته، حتى جعل صناعة، وحتى ربما أكل لمكان قولهم وتقريبهم وتعجبهم، ما لا يطيقـه فيقتل فلا يـزال قد هجم على قوم فأكل زادهم وتركـهم بلا زاد! فلو قالوا

بدل قـولهم: فـلان حسن الأكل، فـلان أقـبح الناس أكـلاً، كـان ذلك صلاحًـا للفريقين. ولا يزال البخيل على الطعام، قـد دعا الرغيب البطن، واتخذ له الطعام الطيب، لينفى عن نفسـه المقالة، وليكذب عن نفسه تلك الظـنون، ولو كان شدة الضرس يعد فى المناقب، ويمدح صاحبـه فى المجالس، لكانت الأنبياء آكل الخلق، ولخصَّـهم الله جل ذكره من الرغب بما لم يـعطه أحدًا من العالمـين. وكيف؟ وفى مأثور الحديث: «**إن المؤمن يأكل فى معى وإن المنافق يأكل فى سبعة أمعاء**».

أولسنا قد نراهم يشتمـون بالنهم وبالرغب وبكثرة الأكل، ويمدحون بالزهادة وبقلة الطعم؟ أوليس قد قال النبى -ﷺ-: «**من أدله على الحسناء القتين**»، وقد ساب رجل أيوب بن سليمان بن عبد الملك، فـقال فى بعض ما يسبه: ماتت أمك بغرًا وأبوك بشمًا.

وبعـد فهل سـمعـتم بأحد قط فـخـر بشدة أكل أبيـه. فقـال: أنا ابن آكل العرب؟.

بل قد رأينا أصحاب النبيذ والفتيان يمتدحون بكثرة الشرب كما يمتدحون بقلة الرزء، وكذلك قالت العرب. قال الشاعر:

تكفـيـه فلذة كبـد إن ألمَّ بهـا   من الشوا ويروى شربه الغمر

وقال:

لا يتـأرى لما فى القـدر يطلبـه   ولا تراه أمـام القـوم يـقـتـفـر

وقال:

لا يغـمز السـاق من أين ولا وضم   ولا يعض على شـرسوفـه الصفـر

والصفـر هى حيـات البطون، إنما تكون من الفضـول والتخم ومن الفـساد والبشم.

وشرب مرة النبـيذ، وغناه المغنى، فشق قميصـه من الطرب، فقال لمولى له يقال له المحلول، وهو إلى جنبه: شق أيضًا أنت ويلك قميصك! والمحلول هذا من الآيات قال: لا والله لا أشـقه، وليس لى غيـره. قال: فشـقه وأنا أكسـوك غدًا. قال: فأنا أشقه غدًا، قال: أنا ما أصنع بشقك له غدًا؟ قال: وأنا ما أرجو من شقه الساعة؟.

قلم أســمع بإنســان قط يقــايس ويناظر، فى الوقــت الذى إنما يشق فــيـه القميص، من غلبة الطرب، غيره وغير مولاه محلول!

* * *

عـلى الأعمـى

دخل على الأعمى على يوسف بن كل خـير، وقد تغدى. فـقال: يا جارية هات لأبى الحسن غداء، قالت: لم يبق عندنا شىء، قال: هات «ويلك» ما كان، فليس من أبى الحسن حشمة!

ولم يشك على أن سيـؤتى برغيف ملطخ، وبرقـاقة ملطخة، وبسكر وبقـية مرق، وبعرق وبفضلة شـواء، وببقاء ما يفضل فى الجامـات والسكرجات فجاءت بطبق ليس عليـه إلا رغيف أرز قاحـل، لا شىء غيره، فلمـا وضعـوا الخوان بين يديه، فأجـال يده فيه (وهو أعمى) فلم يقع إلا على ذلك الرغـيف، وقد علم أن قوله «ليس منه حشمة» لا يكون إلا مع القليل، فلم يظن أن الأمر بلغ ذلك، فلما لم يجد غيره قال: ويلكم! ولا كل هذا بمرةٍ، رفعتم الحشمة كلها؟ والكلام لم يقع إلا على هذا؟

* * *

الغـــزَّال

حدثنى محمــد بن حسان الأسود، قال: أخبرنــى زكريا القطان، قال: كان للغزال قطعة أرض قدام حــانوتى، فأكرى نصفها من سمــاك يسقط عنه ما استطاع من مؤنة الكراء، قال: وكان الغزال أعجوبة فى البخل وكان يجىء من منزله ومعه رغيف فى كمه فكــان أكثر دهره يأكله بلا أدم فإذا أعيا عليـه الأمر أخذ من ساكنه جوافـة بحبـة وأثبت عليهــا فلسًا فى حـسابه، فـإذا أراد أن يتغـدى أخذ الجــوافة فمسحهــا على وجه الرغيف، ثم عض عليه، وربما فتح بطن الجوافة فـبطَّن جنبيها وبطنها باللقمة بعد اللقمــة فإذا خاف أن ينهكها ذلك وينضبم بطنها طلب من ذلك السماك شيئًا من ملح السمك، فحشا جـوفها لينفخها، وليوهم أن هذا هو ملحها الذى ملحت به، ولربما غلبته شهوته فكدم طرف أنفها وأخذ من طرف الأرنبة، ما يسيغ به لقمته وكان ذلك منه لا يكون إلا فى آخر لقــمة ليطيب فمه بها ثم يضعها فى ناحية.

فإذا اشتـرى من امرأة غزلاً، أدخل تلك الجوافـة فى ثمن الغزل، من طريق إدخال العروض، وحسبها عليها بفلس؛ فيسترجع رأس المال، ويفضل الأدم!!

* * *

ابـن المقفـع وابـن جـذام

وروى أصحابنا عن عـبد الله بن المقفع قال: كان ابـن جذام الشبى، يجلس إلى وكان ربما انصرف معى إلى المنزل، فيتغدى معنا، ويقيم إلى أن يبرد.

وكنت أعرفه بشـدة البخل، وكثرة المال، فألحَّ علىّ فى الاستـزارة وصممت عليه فى الامـتناع، فقال: جعلت فـداك، أنت تظن أنى ممن يتكلف، وأنت تشفق على! لا والله إن هى إلا كـسيـرات يابسة، ومـلح وماء الحب! فـظننت أنه يريد اختـلابى بتهـوين الأمر عليـه، وقلت: إن هذا كقـول الرجل: يا غلام! أطعـمنا كسرة، وأطعم السائل خمس تمرات، ومعناه أضعاف ما وقع اللفظ عليه، وما أظن أن أحدًا يدعو مثلى إلى الخريبة من الباطنة، ثم يأتيه بكسرات وملح.

فلمـا صرت عنده، وقـربه إلى إذ وقف سائل بالبـاب فقـال: أطعمـونا مما تأكلون أطعمكم الله من طـعام الجنة! قال: بورك فيك! فـأعاد الكلام فأعـاد عليه مثل ذلك القول، فأعـاد عليه السائل، فقال: اذهب ويلك فـقد ردوا عليك، فقال السائل: سبـحان الله ما رأيت كاليـوم أحدًا يرد من لقمة والطعـام بين يديه؟ قال: اذهب -ويلك- وإلا خرجت إليك، والله، فدققت ساقـيك؟ قال السائل: سبحان الله أنهى أن ينهر السـائل، وأنت تدق ساقيه! فقلت للسـائل: اذهب وأرح نفسك فإنك لو تعرف من صدق وعيده، مـثل الذى أعرف، لما وقفت طرفة عين بعد رده إياك.

* * *

أبو يعقـوب الدقـنان

وكان أبو يعقوب الدقنان يقول: ما فاتنى اللحم منذ ملكت المال.

وكان إذا كـان يوم الجمعة اشـترى لحم بقر بدرهم، واشتـرى بصلاً بدانق،

وباذنجانًا بدانق، وقرعة بدانق، فإذا كان أيام الجزر فجزراً بدانق، وطبخه كله سكباجًا. فأكل وعياله يومئذ خبزهم بشيء من رأس القدر وما ينقطع فى القدر من البصل والباذنجان والجزر والقرع والشحم واللحم فإذا كان يوم السبت ثردوا خبزهم فى المرق، فإذا كان يوم الأحد أكلوا البصل، فإذا كان يوم الاثنين أكلوا الجزر، فإذا كان يوم الثلاثاء أكلوا القرع، فإذا كان يوم الأربعاء أكلوا الباذنجان، فإذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم. فلهذا كان يقول: ما فاتنى اللحم منذ ملكت المال.

* * *

قال أصحابنا: نزلنا بناس من أهل الجزيرة، وإذا هم فى بلاد باردة، وإذا حطبهم شر حطب، وإذا الأرض كلها غابة واحدة طرفاء، فقلنا: ما فى الأرض أكرم من الطرفاء، قالوا: هو كريم، ومن كرمه نفر، فقلنا: وما الذى تفرون منه؟ قالوا: دخان الطرفاء، يهضم الطعام، وعيالنا كثير.

* * *

وقد عاب ناس أهل المازح والمديبر، بأمور: منها أن خشكنانهم من دقيق شعير، وحشوه الذى فيه من الجوز والسكر من دقيق خشكار وأهل المازح لا يعرفون بالبخل، ولكنهم أسوأ الناس حالاً، فتقديرهم على قدر عيشهم، وإنما نحكى عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليسر، وبين خصب البلاد وعيش أهل الجدب، فأما من يضيق على نفسه، لأنه لا يعرف إلا الضيق فليس سبيله سبيل القوم.

* * *

سليمان الكثرى

قال المكى: كان لأبى عم، يقال له سليمان الكثرى، سمى بذلك لكثرة ماله، وكان يقربنى وأنا صبى، إلى أن بلغت، ولم يهب لى مع ذلك التقريب شيئًا قط، وكان قد جاوز فى ذلك حد البخلاء فدخلت عليه يومًا وإذا قدامه قطع دار صينى لا تسوى قيراطًا، فلما نال حاجته منها، مددت يدى لآخذ منها قطعة، فلما نظر إلى قبضت يدى! فقال: لا تنقبض وانبسط واسترسل، وليحسن ظنك فإن حالك عندى على ما تحب، فخذه كله فهو لك، بزوبره وبحذافيره، وهو لك جميعًا، نفسى بذلك سخية، والله يعلم أنى مسرور بما وصل إليك من الخير.

فتركته بين يديه وقمت من عنده، وجـعلت وجهى كما أنا إلى العراق، فما رأيته وما رآنى حتى مات.

وقال المكي: سمعنى سليمان وأنا أنشد شعر امرئ القيس:

لنا غـنم نسـوقـهـا غـزار ... كـأن قـرون جلتهـا العـصى
فـتـمـلأ بيـتنا أقطًا وسـمنًا ... وحسبك من غنى شبع ورى

قال: لو كان ذكر مع هذا شيئًا من الكسوة لكان جيدًا.

وهو الذى قال لـيحيى بن خـالد حين نقب فى أبى قـبيس، وزاد فى داره: عمدت إلى شيخ الجبال فزعزعته وثلمت فيه؟!.

وقـال حين عوتب فى قلة الضـحك، وشـدة القطوب: إن الذى يمنعنى من الضحك، أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل إذا ضحك، وطابت نفسه.

* * *

محفـوظ النقـاش

صحبنى مـحفوظ النقاش من مسـجد الجامع ليلاً، فلمـا صرت قرب منزله وكان منزله أقرب إلى المسجد الجامع من منزلى، سألنى أن أبيت عنده، وقال: أين تذهب فى المطر والبرد، ومنزلى منزلك، وأنت فى ظلمة وليس معك نار، وعندى لبأ لم ير الناس مـثله، وتمر ناهيك به جودة، لا تصلح إلا له! فملت مـعه. فأبطأ ساعة، ثم جاءنى بجام لباء، وطبق تمر.

فلما مـددت يدى قال: يا أبا عثـمان إنه لبأ وغلظـة! وهو الليل وركوده ثم ليلة مطر ورطوبة وأنت رجل قد طعنت فى السن ولم تزل تـشكو من الفالج طرفًا وما زال الغليل يسرع إليك وأنت فى الأصل لست بصاحب عشاء.

فإن أكلت اللبـأ ولم تبالغ، كنت لا آكـلاً ولا تاركًا، وحرشـت طباعك ثم قطعت الأكل أشـهى ما كـان إليك، وإن بالغت بتنا فى ليلة سـوء، من الاهتمـام بأمرك، ولـم نعد لك نبيذًا ولا عسلاً.

وإنما قلت هذا الكلام لئلا تقـول غدًا: كان وكان! والله قـد وقعت بين نابى أسد! لأنى لو لم أجئك به وقد ذكـرته لك قلت: بخل به وبدا له فيه، وإن جئت به ولم أحـذرك منه، ولم أذكرك كل مـا عليك فـيه، قلت: لم يشـفق على ولم

ينصح، فقد برئت إليك من الأمرين جميعًا، وإن شئت فأكلة وموتة! وإن شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة!

فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة، وقد أكلته جميعًا فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن، ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به، لأتى على الضحك أو لقضي على، ولكن ضحك من كان وحده، لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب.

* * *

أبي القماقم

قال أبو القماقم: أول الإصلاح ألا يرد ما صار في يدى لك، فإن كان ما صار في يدى لى فهو لى، وإن لم يكن لى فأنا أحق به ممن صيره في يدى! ومن أخرج من يده شيئًا إلى يد غيره من غير ضرورة، فقد أباحه لمن صيّره إليه! وتفريقك إياه مثل إباحته!.

وقالت له امرأة: ويحك يا أبا القماقُم، إنى قد تزوجت زوجًا نهاريًا، والساعة وقته، وليست على هيئة، فاشتر لى بهذا الرغيف آسًا، وبهذا الفلس دهنًا، فإنك تؤجر. فعسى الله أن يلقى محبتى فى قلبه، فيرزقنى على يدك شيئًا أعيش به، فقد والله ساءت حالى، وبلغ المجهود منى فأخذهما وجعلها وجهه.

فرأته بعد أيام فقالت: سبحان الله أما رحمتنى مما صنعت بى؟ قال: ويحك سقط والله منى الفلس، فمن الغم أكلت الرغيف.

وتعشّق واحدة، فلم يزل يتبعها ويبكى بين يديها، حتى رحمته، وكانت مكثرة وكان مقلاً، فاستهداها هريسة وقال: أنتم أحذق بها، فلما كان بعد أيام تشهى عليها رءوسًا، فلما كان بعد قليل طلب منها حيسة فلما كان بعد ذلك تشهى عليها طفيشلية، قالت المرأة: رأيت عشق الناس يكون فى القلب وفى الكبد وفى الأحشاء: وعشقك أنت ليس يجاوز معدتك.

وقال أبو الأصبغ: ألحَّ أبو القماقم على قوم عند الخطبة إليهم، يسأل عن مال المرأة ويحصيه، ويسأل عنه، فقالوا: قد أخبرناك بمالها، فأنت أى شىء مالك؟ قال: وما سؤالكم عن مالى، الذى لها يكفينى ويكفيها.

سمعت شيخًا من مشايخ الأبلة، يزعم أن فقراء أهل البصرة، أفضل من فقراء أهل الأبلة، قلت: بأى شيء فضلتهم؟ قال: هم أشد تعظيمًا للأغنياء، وأعرف بالواجب.

ووقع بين رجلين أبليين كلام، فأسمع أحدهما صاحبه كلامًا غليظًا، فرد عليه مثل كلامه، فرأيتهم قد أنكروا ذلك إنكاراً شديدًا، ولم أرَ لذلك سببًا، فقلت: لم أنكرتم أن يقول له مثل ما قال؟ قالوا: لأنه أكثر منه مالاً، وإذا جوزنا هذا له، جوزنا لفقرائنا أن يكافئوا أغنياءنا ففى هذا الفساد كله.

وقال حمدان بن صباح: كيف صار رباح يسمعنى ولا أسمعه؟ أفهو أكثر مالاً منى ثم سكت.

قال: ويكون الزائر من أهل البصرة عن الأبلى مقيمًا مطمئنًا، فإذا جاء المد، قالوا: ما رأينا مداً قط ارتفع ارتفاعه وما أطيب السير فى المد! والسير فى المد، إلى البصرة، أطيب من السير فى الجزر إلى الأبلة، فلا يزالون به، حتى يرى أن من الرأى، أن يغتنم ذلك المد بعينه ويسافر.

* * *

أحمد بن الخاركى

كان أحمد بن الخاركى بخيلاً وكان نفاجًا وهذا أغيظ ما يكون، وكان يتخذ لكل جبة أربعة أزرار، ليرى الناس أن عليه جبتين ويشترى الأعذاق والعراجين والسعف من الكلاء، فإذا جاء به الحمال إلى بابه تركه ساعة، يوهم الناس أن له من الأرضين ما يحتمل أن يكون ذلك كله منها، وكان يكترى قدور الخمارين التى تكون للنبيذ، ثم يتحرى أعظمها ويهرب من الحمالين كى يصيحوا بالباب: يشترون الداذى والسكر ويحبسون الحمالين بالكراء وليس له فى منزله رطل دبس، وسمع قول الشاعر:

رأيت الخبز عز لديك حتى ... حسبت الخبز فى جو السحاب
وما روحتنا لتذب عنا ... ولكن خفت مرزئة الذباب

فقال: ولم ذب عنهم، لعنه الله! ما أعلم إلا أنه شهى إليهم الطعام، ونظف لهم القصاع، وفرغهم له، وسخرهم عليه؛ ثم ألا تركهم تقع فى قصاعهم وتسقط

على أنافـهم وعيـونهم! هو والله أهل لما هو أعظم من هذا! كم من مـرة قد أمـر الجارية، أن تلقى فى القـصعة الذبابة والذبابتين والثـلاثة، حتى يتقزز بعـضهم أو يكفى الله شره!.

قال: وأما قـوله «رأيت الخبز عز عليك حتى» قـال: فإذا لم أعز هذا الشىء الذى هو قوام أهل الأرض، وأصل الأقوات، وأميـر الأغذية، فأى شىء أعز؟ أى والله، إنى أعزه، وأعزه وأعزه، مدى النفس ما حملت عينى الماء!.

وبلغ من نفجه مع ذلك، ما أخـبرنى به إبراهيم بن هانئ، قال: كنت عنده يومًا إذ مر به بعض الباعة، فصاح: الخـوخ الخوخ! فقلت: وقد جاء الخوخ بعد؟ قال: نعم قـد جاء وقد أكـثرنا منه، فـدعانى الغيظ علـيه إلى أن دعوت البـياع، وأقبلت على ابن الخـاركى فقلت: ويحك! نحن لم نسمع به بعـد، وأنت أكثرت منه، وقد تعلم أن أصحابنا أترف منك!

ثم أقبلت على البياع فقلت: كيف تبـيع الخوخ؟ فقال: ستة بدرهم؟ قلت: أنت ممن تشـترى ست خـوخات بدرهم؟ وأنت تعلم أنه سـيبـاع بعد أيام مـائتين بدرهم، ثم تقول وقد أكثرنا منه، وهذا يقول ستة بدرهم؟ قال: وأى شىء أرخص من ستة أشياء بشىء؟.

* * *

كان غلام صالح بن عفان، يطلب منه نفطًا لبيت الحمار بالليل، فكان يعطيه كل ليلة، ثلاثة أفلس، والطسـوج أربعة فلـوس، ويقول طسـوج يفضل، وحـبة تنقص، وبينهما يرمى الرامى! وكان يقول لابنه، تعطى صاحب الحمام، وصاحب المعبر لكل واحد منهما طسوجًا وهو إذا لم ير معك إلا ثلاثة أفلس لم يردك.

* * *

موسى بن جناح

قال أبو كعب: دعـا موسى بن جناح، جماعة من جـيرانه ليفطروا عنده فى شهر رمضان، وكنت فيـهم، فلما صلينا المغرب، ونجز ابن جناح، أقبل علينا، ثم قال: لا تعجلوا فإن العجلة من الشـيطان، وكيف تعجلوا وقد قال الله جل ذكره: ﴿**وكان الإنسان عجولاً**﴾ وقال: ﴿**خلق الإنسان من عجل**﴾ اسمعوا ما أقول، فإن فيما أقول حسن المؤاكلة، والبعد عن الإثرة، والعاقبة الرشيدة، والسيرة المحمودة،

إذا مد أحدكم يده إلى الماء فاستسقى وقد أتيتم ببهطة أو بجوذابة أو بعصيدة، أو بعض ما يجرى فى الحلق، ولا يساغ بالماء، ولا يحتاج فيه إلى مضغ. وهو طعام يد لا طعام يدين وليست على أهل اليد منه مؤنة، وهو مما يذهب سريعًا، فأمسكوا حتى يفرغ صاحبكم، فإنكم تجمعون عليه خصالاً منها: أنكم تنغصون عليه تلك الشربة، إذا علم أنه لا يفرغ إلا مع فراغكم. ومنها أنم تحنقونه، ولا يجد بدًّا من مكافأتكم فلعله يتسرع إلى لقمة حارة فيموت، وأنتم ترونه! وأدنى ذلك أن تبعثوه على الحرص وعلى عظم اللقم. ولهذا ما قال الأعرابى حين قيل له: لم تبدأ بأكل اللحم الذى فوق الثريد؟ قال: لأن اللحم ظاعن، والثريد مقيم!.

وأنا، وإن كان الطعام طعامى، فإنى كذلك أفعل، فإذا رأيتم فعلى مخالف قولى فلا طاعة لى عليكم!

قال أبو كعب: فربما نسى بعضنا، فمد يده إلى القصعة، وقد مد يده صاحبه إلى الماء، فيقول له موسى: يدك يا ناسى، ولولا شىء لقلت لك: يا متغافل.

قال: وأتانا بأرزة ولو شاء إنسان أن يعد حبها لعده، لتفرقه ولقلته، قال: فنثروا عليها لبكة من دبس مقدار نصف أسيكرة. فوقعت ليلتسئذ فى فمى قطعة، وكنت إلى جنبه، فسمع صوتها حين مضغتها، فضرب يده على جنبى، ثم قال: أجرش يا أبا كعب أجرش! قلت: ويلك أما تتقى الله! كيف أجرش جزءًا لا يتجزأ؟



ابن العقدى

كان ابن العقدى، ربما استزار أصحابه إلى البستان، وكنت لا أظنه ممن يحتمل قلبه ذلك على حال، فسألت ذات يوم بعض زواره، فقلت: احك لى أمركم، قال: وتستر على؟ قلت: نعم ما دمت بالبصرة!

قال: يشترى لنا أرزًا بقشره، ويحمله معه، ليس معه شىء مما خلق الله إلا ذلك الأرز، فإذا صرنا إلى أرضه، كلف أكاره أن يجشه فى مجشه له، ثم ذراه ثم غربله ثم جش الواش منه فإذا فرغ من الشراء والحمل، ثم من الجش، ثم من تذريته، ثم من إدارته وغربلته، كلف الأكار أن يطحنه على ثوره، وفى رحاه، فإذا

طحنه كلفه أن يغلى له الماء، وأن يحتطب له ثم يكلفه العجن، لأنه بالماء الحار أكثر نزلاً ثم كلفُ الأكار أن يخبزه.

وقبل ذلك ما قد كلفهم أن ينصبوا له الشصوص للسمك ويسكروا الدرياجة على صغار السمك لا يدخلوا في السواقى فيدخلوا أيديهم في جحرة الشلابى والرمان فإن أصبنا من السمك جعله كبابًا على نار الخبز تحت الطابق حتى لا يحتاج من الحطب إلى كثير.

فلا نزال منذ غدوة إلى الليل فى كد وجوع وانتظار ثم لا يكون عشاؤنا إلا خبز أرز أسود غير منخول، بالشلابى. ولو قدر على غير ذلك فعل.

قلت له: فلم لا يتخذ موضع مراز من بعض «رقاق» أرضه فيذرى لكم الأرز، ثم يكون الخيار فى يده، إن أراد أن يعجل عليكم الطعام، أطعمكم الفرد أو إن أحب أن يتأنى ليطعمكم الجوهرى.

قال: والله لئن سمع هذا وعرفه ليتكلفنه الله فينا، فإنَّا قوم مساكين! ولو قدرنا على شىء لم نحتمل هذا البلاء!

* * *

إسماعيل بن غزوان

حدثنى المكى، قال: بت عند إسماعيل بن غزوان، وإنما بيَّتنى عنده، حين علم أنى تعشيت عند مويس، وحملت معى قربة نبيذ، فلما مضى من الليل أكثره وركبنى النوم، جعلت فراشى البساط، ومرفقتى يدى، وليس فى البيت إلا مصلى له ومرفقة ومخدة، فأخذ المخدة فرمى بها إلىَّ فأبيتها ورددتها عليه، وأبى وأبيت، فقال: سبحان الله يكون أن تتوسد مرفقك، وعندى فضل مخدة، فأخذتها فوضعتها تحت خدى فمنعنى من النوم إنكارى للموضع ويبس فراشى.

وظن أنى قد نمت فجاء قليلاً، حتى سلّ المخدة من تحت رأسى، فلما رأيته قد مضى بها ضحكت وقلت: قد كنت عن هذا غنيًا. قال: إنما جئت لأسوى رأسك. قلت: إنى لم أكلمك حتى وليت بها. قال: كنت لهذا جئت، فلما صارت المخدة بين يدى نسيت ما جئت له، والنبيذ -ما علمت- والله يذهب بالحفظ أجمع.

وحدثنى الحزامى والمكى والعـروضى قالوا: سمعنا إسمـاعيل يقول: أوليس قد أجمـعوا على أن البخلاء فى الجـملة أعقل من الأسخيـاء فى الجملة؟ ها نحن أولاء عندك جـماعـة فـينا من يزعم الناس أنه سـخى، وفيـنا من يزعم الناس أنه بخيل، فانظر أى الفريقين أعقل؟ ها أنا ذا وسـهل بن هارون، وخاقان بن صبيح، وجعفر بن سـعيد، والحزامى، والعروضى، وأبو يعقـوب الخزيمى، فهل معك إلا أبو إسحاق؟.

وحدثنى المكى قال: قلت لإسمـاعيل مرة، لم أر أحدًا قط أنفق على الناس من ماله، فلمـا احتـاج إليهم آسوه، قـال: لو كان ما يصنـعون لله رضى وللحق موافقًـا لما جمع الله لهم الغدر واللؤم من أقطار الأرض ولو كـان هذا الإنفاق فى حقه لما ابتلاهم الله جل ذكره من جميع خلقه.

* * *

وحدثنى تمام بن أبى نعـيم قال: كان لنا جار وكـان له عرس فجعل طـعامه كله فالوذق فقيل له إن المؤنة تعظم، قال: أحتـمل ثقل الغرم بتعجيل الراحة، لعن الله النساء! وما أشك أن من أطاعهن شر منهن.

* * *

إمـــام البخـــلاء

وحديث سمعناه على وجه الدهر، زعموا أن رجلاً قد بلغ فى البخل غايته، وصار إمـامًا، وأنه كان إذا صـار فى يده الدرهم، خاطبـه وناجاه وفداه واستبطأه وكان مما يقول له: كم من أرض قد قطعـت، وكم من كيس قد فارقت، وكم من خامـل رفعت! ومن رفـيع قد أخـملت! لك عندى أن لا تعرى ولا تضـحى، ثم يلقيـه فى كيسه ويقـول له: اسكن على اسم الله، فى مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه. وأنه لم يدخل فيه درهمًا قط فأخرجه.

وإن أهله ألحوا عليـه فى شهوة وأكثروا عـليه فى إنفاق درهم، فدافـعهم ما أمكن ذلك، ثم وافق على دفع درهم فـقط، فبـينا هو ذاهب، إذ رأى حاويًـا قد أرسل على نفسه أفعى، لدرهم يأخذه، فقال فى نفسه: أتلف شيئًا تبذل فيه النفس بأكلة أو شربـة؟ والله ما هذا إلا موعظة لى من الله! فـرجع إلى أهله ورد الدرهم إلى كيسه، فكان أهله منه فى بلاء، وكانوا يتمنون موته والخلاص بالموت والحياة.

فلما مات وظنوا أنهم قد استراحوا منه، قدم ابنه فاستولى على ماله وداره، ثم قال: ما كان أدام أبي؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الأدام. قالوا: كان يتأدم بجبنة عنده. قال: أرونيها فإذا فيها حز كالجدول من أثر مسح اللقمة! قال: ما هذه الحفرة؟ قالوا: كان لا يقطع الجبن وإنما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى! قال: بهذا أهلكني وبهذا أقعدني هذا المقعد لو علمت ذلك ما صليت عليه.

قالوا: فأنت كيف تريد أن تصنع؟ قال: أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة!!.

ولا يعجبني هذا الحرف الأخير، لأن الإفراط لا غاية له، وإنما نحكي ما كان في الناس، وما يجوز أن يكون فيهم مثله، أو حجة أو طريقة، فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره، وأما سائر حديث هذا الرجل فإنه من البابة.

* * *

حديث ابن جهانة

قال ابن جهانة الثقفية: عجبت ممن يمنع النبيذ طالبه، لأن النبيذ إنما يطلب ليوم فصد أو يوم حجامة، أو يوم زيارة زائر، أو يوم أكل سمك طري، أو يوم شربة دواء ولم تر أحداً طلبه وعنده نبيذ، ولا ليدخره ويحتكره، ولا ليبيعه ويعقد منه وهو شيء يحسن طلبه، وتحسن هبته، ويحسن موقعه، وهو في الأصل كثير رخيص، فما وجه منعه؟ ما يمنعه عندي إلا من لاحظ له في أخلاق الكرام! وعلى أني لست أؤجل بما أهب منه على نبيذي النقصان لأني إذا احتجبت عن ندمائي، بقدر ما أخرجت من نبيذي، رجع إليَّ نبيذي على حاله وكنت قد تحمدت بما لا يضرني، فمن ترك التحمد بما لا يضره، كان من التحمد بما يضره أبعد.

فذكر ابن جهانة ما له من الكرم بهبة نبيذه، ولم يذكر ما عليه من اللوم بحجب ندمائه.

* * *

حديث الأصمعي

قال الأصمعي أو غيره: جعل بعض الناس مدينيًا على برذون فأقامه على

الأرى فانتبه من نومه فوجده يعتلف فصاح بغلامه: يا ابن أم، بعه وإلا فهبه وإلا فرده وإلا فاذبحه! فأنام ولا ينام؟ يذهب بحر مالى؟ ما أراد إلا استئصالى!

* * *

حديث أبى الحسن المدائنى

قال أبو الحسن المدائنى: كان بالمدائن تمار، وكان غلامه إذا دخل الحانوت يحتار، فربما احتبس فاتهمه بأكل التمر، فسأله يومًا فأنكر، فدعا بقطنة بيضاء، ثم قال: امضغها، فلما أخرجها وجد فيها حلاوة وصفرة، قال: هذا دأبك كل يوم، وأنا لا أعلم؟ اخرج من دارى!

وكان عندنا رجل من بنى أسد إذا صعد ابن الأكار إلى نخلة له ليلقط له رطبًا، ملأ فاه ماء، فسخروا به، وقالوا له إنه يشربه ويأكل شيئًا على النخلة فإذا أراد أن ينزل بال فى يده ثم أمسكه فى فيه «والرطب أهون على أولاد الأكرة وعلى أولاد غير الأكرة من أن يحتمل فيه أحد شطر هذا المكروه ولا بعضه». قال: فكان بعده يملأ فاه من أصفر أو أحمر أو أخضر، لكيلا يقدر على مثله فى رءوس النخل.

* * *

حديث المصرى

وحدثنى المصرى وكان جار الدردريشى، وماله لا يحصى، قال: انتهر سائلاً ذات يوم وأنا عنده، ثم وقف عليه آخر فانتهره، إلا أن ذلك بغيظ وحنق قال: فأقبلت عليه فقلت له: ما أبغض إليك السؤال! قال: أجل عامة من ترى منهم أيسر منى، قال: فقلت ما أظنك أبغضتهم لهذا، قال: كل هؤلاء لو قدروا على دارى لهدموها، وعلى حياتى لنزعوها! أنا لو طاوعتهم فأعطيتهم كما سألونى، كنت قد صرت مثلهم منذ زمان! فكيف تظن بغضى، يكون لم أرادنى على هذا.

وكان أخوه شريكه فى كل شىء، وكان فى البخل مثله، فوضع أخوه فى يوم جمعة بين أيدينا -ونحن على بابه- طبق رطب يساوى بالبصرة دانقين فبينا نحن نأكل إذ جاء أخوه، فلم يسلم ولم يتكلم، حتى دخل الدار، فأنكرنا ذلك، وكان يفرط فى إظهار البشر، ويجعل البشر وقاية دون ماله وكان يعلم أنه إن جمع بين المنع والكبر قتل.

قال: ولم نعرف علته، ولم يعرفها أخوه، فلما كان الجمعة الأخرى، دعا أيضًا أخوه بطبق رطب، فبينا نحن نأكل، إذ خرج من الدار ولم يسلم ولم يقف فأنكرنا ذلك ولم تدر أيضًا ما قصته، فلما كان فى الجمعة الثالثة، ورأى مثل ذلك، كتب إلى أخيه:

يا أخى كانت الشركة بينى وبينك، حين لم يكثر الولد ومع الكثرة يقع الاختلاف. ولست آمن أن يخرج ولدى وولدك إلى مكروه، وها هنا أموال باسمى ولك شطرها، وأموال باسمك ولى شطرها، وصامت فى منزلى وصامت فى منزلك، لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض، وإن طرقنا أمر الله، ما ركدت الحرب بين هؤلاء الفتية، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة. فالرأى أن نتقدم اليوم فيما يحسم منهم هذا السبب.

فلما قرأ أخوه كتابه تعاظمه ذلك وهاله، وقلب الرأى ظهرًا لبطن، فلم يزده التقليب إلا جهلاً، فجمع ولده وأغلظ عليهم، وقال: عسى أن يكون أحد منكم قد أخطأ بكلمة واحدة، أو يكون هذا البلاء من جرائر النساء.

فلما عرف براءة ساحة القوم، تمشى إليه حافيًا راجلاً، فقال: ما يدعوك إلى القسمة؟ والتمييز؟ أدع صلحاء أهل المسجد الساعة حتى أشهدهم بأنى وكيل لك فى هذه الضياع، وحول كل شىء فى منزلى إلى منزلك، وجرب ذلك منى الساعة، فإن وجدتنى أروغ وأعتل فدونك، فحاجتى الآن أن تخبرنى بذنبى. قال: ما لك من ذنب، وما من القسمة من بد. فأقام عنده يناشده إلى نصف النهار، ثم أقام يومه ذلك إلى نصف الليل يناشده، ويطلب إليه.

فلما طال عليه الأمر، وبلغ منه الجهد، قال: حدثنى عن وضعك أطباق الرطب، وبسطك الحصر فى السكك، وإحضارك الماء البارد وجمعك الناس على بابى فى كل جمعة! وكأنك ظننت أنا كنا عن هذه المكرمة عميًا! إنك إذا أطعمتهم اليوم البرنى أطعمتهم غدًا السكر، وبعد غد الهلياثا ثم يصير ذلك بعد أيام الجمع، سائر أيام الأسبوع، ثم يتحول الرطب إلى الغداء، ثم يؤدى إلى العشاء ثم يصير إلى الكساء، ثم الإجداء ثم الحملان، ثم اصطناع الصنائع، والله إنى لأرثى لبيوت المال، ولخراج المملكة من هذا، فكيف بمال تاجر، جمعه من الحبات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف؟

قال: جعلت فـداك، تريد أن لا آكل رطبة أبدًا، فضلاً عن غـير ذلك؟ فلا والله لا كلمتهم أبدًا! قال: إياك أن تخطئ مرتين، مرة فى إطماعهم فيك ومرة فى اكتساب عداوتهم، اخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت فيه وتسلم تسلم.

* * *

أبـو الهذيـــل

كان أبو الهذيل أهدى إلى مويس دجاجة، وكانت دجاجته التى أهداها دون ما كان يتخذ لمويس، ولكنه بكرمه وبحسن خلقـه أظهر التعجب من سمتها وطيب لحمـها، وكان يعـرفه بالإمســاك الشديد، فقـال: وكيف رأيت يا أبا عـمران تلك الدجاجة؟ قال: كـانت عجبًا من العجب! فيقول: وتدرى مـا جنسها؟ وتدرى ما سنها؟ فإن الدجاجة إنما تطـيب بالجنس والسن، وتدرى بأى شىء كنا نسمنها؟ فلا يزال فى هذا، والآخر يضحك ضحكًا نعرفه نحن، ولا يعرفه أبو الهذيل.

وكان أبو الهذيل أسلم النـاس صدرًا، وأوسعهم خلقًا، وأسـهلهم سهولة، فإن ذكروا دجـاجة. قال: أين كانت يا أبا عـمران من تلك الدجاجـة؟ فإن ذكروا بطة أو عناقًا أو جزورًا أو بقرة. قال: فـأين كانت هذه الجزور فى الجزر، من تلك الدجاجة فى الدجاج؟ وإن اسـتسمن أبو الهذيل شيئًا من الطيـر والبهائم. قال: لا والله، ولا تلك الدجاجة؟ وإن ذكروا عذوبة الشحـم قال: عذوبة الشحم فى البقر والبط وبطون السـمك والدجاج، ولاسيـما ذلك الجنس من الدجـاج، وإن ذكروا ميلاد شىء أو قدوم إنسان. قال: كان ذلك بعد أن أهديتها لك بسنة، وما كان بين قدوم فلان وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم.

وكانت مثلاً فى كل شىء وتاريخًا فى كل شىء!

وأقبل مـرة على محمد بن الجـهم، وأنا وأصحابنا عنده. فـقال: إنى رجل منخرق الكفين، لا أليق شـيئًا، ويدى هذه صناع فى الكسب، ولكنهـا فى الإنفاق خرقاء! كم تظن من مائة ألـف درهم قسمتها على الإخوان فى مـجلس أبو عثمان يعلم ذلك! أسألـك بالله يا أبا عثمـان هل تعلم ذلك؟ فقلت: يا أبا الهـذيل، ما نشك فيمـا تقول. فلم يرض بإحضارى هذا الكلام حتى استـشهدنى، ولم يرض باستشهادى حتى استحلفنى.

أبو سعيد المدائنى

كان أبو سعيد المدائنى إمامًا فى البخل عندنا بالبصرة، وكان من كبار المغتنين ومياسيرهم، وكان شديد العقل، شديد العارضة حاضر الحجة، بعيد الروية.

وكنت أتعجب من تفسير أصحابنا لقول العرب فى لؤم اللئيم الراضع.

قال أصحابنا: كل لئيم بخيل، وليس كل بخيل لئيمًا، لأن اسم اللئيم يقع على البخل، وعلى قلة الشكر، وعلى مهانة النفس، وعلى أن له فى ذلك عرقًا متقدمًا.

قال أبو زيد: هو لئيم ملأم. فاللئيم ما فسرت، والملأم الذى يقوم بعذر اللئيم، فأما اللئيم الراضع، فالذى لا يحلب فى الإناء، ويرضع الخلف. مخافة أن يضيع من اللبن شىء.

قال ثوب بن شحمة العنبرى فى امرأته الهمدانية:

وحديث مالجة التى حدثتنى تدع الإناء تشربًا للقادم

القادمان: الخلفان المقدمان.

فلما بلغه ذلك عنها طلقها. فلما طلقها قيل له: إن البخل إنما يعيب الرجل، ومتى سمعت بامرأة هجيت فى البخل؟ قال: ليس لك بى، أخاف أن تلد لى مثلها.

قال رافع بن هريم:

.... تحلب قاعداً وتملج أحيانًا وقعبك حاضر

يدعو الله عليه أن يجعله صاحب شاة ولا يجعله صاحب إبل، وأن يرتضع من الخلف، وإن كان معه إناء، والعربى يمارى صاحبه فيقول: إن كنت كاذبًا، فاحتلبت قاعداً، أى أبدلك الله بكرم الإبل لؤم الغنم.

فكيف نتعجب من لؤم الراضع، وقد صنع أبو سعيد المدائنى أعظم من ذلك؟ اصطبغ من دن خل، وهو قائم حتى فنى، ولم يخرج منه قليلاً ولا كثيراً.

وكانت له حلقة يقعد فيها أصحاب العينة والبخلاء الذين يتذاكرون الإصلاح فبلغهم أن أبا سعـيد يأتى الخريبة فى كل يوم، ليقتضى رجــلاً هناك خمسة دراهم فضلت عليــه، وقالوا: هذا خطأ عظيم، وتضييع كـثير. وإنما الحزم أن يتــشدد فى غير تضييع، وصاحبنا هذا قد رجع على نفسه بضروب من البلاء.

فاجتمــعوا عليه على طريق التفرغ له، والاستــفادة منه، وقالوا: نراك تصنع شيــئًا لا نعــرفه، والخطأ منك أعظم منه من غــيرك، قد أشكل علــينا هذا الأمر، أخبرنــا عنه، فقد ضاقت صــدورنا به، خبرنا عن مضــيك إلى الخريبة، لتقــتضى خمســة دراهم. فواحدة: إنا لا نأمن عليك انتقــاض بدنك، وقد خلا من سنك، وأن تعتل، فتدع القاضى للكثــير بسبب القليل. وثانية: أنك تنصب هذا النصب، فلابد لك من أن تزداد فى العشاء إن كنت ممن يتــعشى، أو تتعشى إن كنت ممن لا يتعشى وهذا إذا اجتمع كان أكثر من خمسة دراهم.

وبعد، فإنك تحتاج أن تشق وسط السوق وعليك ثيابك، والحمولة تستقبلك فمن هنا نترة، ومن ها هنا جذبة، فإذا الثوب قد أودى، ومن ذلك أن نعلك تنقب وترق، وساق ســراويلك تتسخ وتبــلى، ولعلك أن تعثــر فى نعلك فتــقدها قدًّا، ولعلك أن تهرتهــا هرتًا. وبعد، فاقــتضاء القليل أدى بك إلــى هذا وما بلغت منه شيئًا، وأنك أفــضل، إلا أنا نحب أنك تجلى عن الأمر بشىء، فليس كلنا يثق لك بالصواب فى كل شىء.

قال أبو سعيد: أما ما ذكرتم من انتقاض البدن، فإن الذى أخاف على بدنى من الدعة ومن قلة الحــركة أكثــر، وما رأيت أصح أبدانا من الحــمالين والطوافين، والقــوم قبل أن يموتوا، لــم يكن لهم تلك عادة. أولــيس يقول الناس والله فــلان أصح من الجلاوزة؟ -يــعنى اختلاف الجــلاوزة فى العدو- ولربما أقــمت فى المنزل لبعض الأمر، فأكثر الصعود والنزول خوفًا من قلة الحركة.

وأما التشاغل بالبــعيد عن القريب، فإنى لا أعرض للبعــيد، حتى أفرغ من القريب. وأما مــا ذكرتم من الزيادة فى الطعام، فقد أيقنــت نفسى، واطمأن قلبى على أنه ليس لنفسى عندى إلا ما لهــا، وأنها إن حاسبتنى أيام النصب، حاســبتها أيام الراحة، فستعلم حينئذ أين أيام الخريبة من أيام ثقيف؟.

وأما مــا ذكرتم من تلقى الحــمولة، ومن مزاحــمة أهل الســوق، ومن النتر

والجذب، فـأنا أقطع عرض السـوق من قبل أن يقـوم أهل السوق لصـلاتهم. ثم يكون رجوعى على ظهر السوق.

وأمـا ما ذكـرتم من شـأن النعل والسـراويل، فـإنى من لدن خـروجي من منزلى، إلى أن أقرب من باب صاحبى، فـإنما نعلى فى يدى وسراويلى فى كمى! فإذا صرت إليه لبستهما! فإذا فصلت من عنده خلعتهما! فهما فى ذلك اليوم أودع أبدانًا، وأحسن حالاً.

بقى الآن لكم مما ذكرتم شىء؟ قالوا: لا. قال: فـها هنا واحدة تفى بجميع مـا ذكرتم. قـالوا: وما هـى؟ قال: إذا علم القـريب الدار، ومن لى عليـه ألوف الدنانير، شدة مطالبتى للبعـيد الدار، ومن ليس لى عليه إلا الفلوس، أتى بحقى، ولم يطمع نفـسه فى مـالى. وهذا تدبيـر يجمع لى إلى رجـوع مالى طول راحـة بدنى. ثم أنا بالخيـار فى ترك الراحة، لأنى أقسـمها على الأشـغال حينئـذ كيف شئت. وأخـرى، أن هذا القليل لو لم يكن فضلة من كـثير، ومـوصولاً بدين لى مشهور، لجاز التجافى عنه فأما أن أدع شـيئًا يطمع فى فضول ما يبقى على الغرماء فهذا ما لا يجوز.

فقاموا وقالوا بأجمعهم: لا والله، لا سألناك عن مشكلة.

* * *

حدثنى أحمد المكى، أخـو محمد المكى -وكان متصلاً بأبى سـعيد- بسبب العينة، وبسبب صنعـة المال، ولأعاجيب أبى سعيد وحديثـه. قال أحمد: قلت له مرة: والله إنك لكثـير المال وإنك لتعـرف ما نجهل، وإن قمـيصك وسخ، فلم لا تأمر بغسله؟

قال: فلو كنت قليل المال، وأجهل ما تعـرف، كيف كان قولك لى؟ إنى قد فكرت فى هذا منذ ستـة أشهر، فـما وضح لى بعد وجـه الأمر فيه. أقـول مرة: الثـوب إذا اتسخ أكل البدن كـما يأكل الصـدأ الحديد، والثـوب إذا ترادفه الـعرق وجف، وتراكم عليه الوسخ ولبد، أكل السلك وأحـرق الغزل، هذا مع نتن ريحه وقبح منظره.

وبعد فإنى رجل آتى أبواب الغرماء، وغلمان غرمائى جبابرة. فما ظنك بهم إذا رأونى فى أطمار وسخـة، وأسمال درنة، وحال حـداد؟ جبهوا مرة، وحـجبوا

مرة، فيرجع ذلك علينا بمضرة، من إصلاح المال أن ينفى كل ما أعان على حبسه، مع ما يدخل من الغيظ، ويلقى من كان كذلك من المكروه.

فإذا اجتمعت هذه الخواطر هممت بغسلها، فإذا هممت به، عارضنى معارض يوهمنى أنه أتانى من جهة الحزم، ومن قبل العقل، فقال: أول ذلك الغرم الذى يكون، فى الماء والصابون. والجارية إذا ازدادت عناء، ازدادت أكلاً. والصابون نورة، والنورة تأكل الثوب وتبلى الخز، ولا يزال الثوب على خطر، حتى يسلم إلى العصر والدق. ثم إذا ألقى على الرسن، فهو يعرض للجذبة والنترة والعلق.

ولابد من الجلوس يومئذ فى البيت. ومتى جلست فى البيت، فتحوا علينا أبوابًا من النفقة، وأبوابًا من الشهوات. والثياب لابد لها من دق. فإن نحن دققناها فى المنزل قطعناها، وإن نحن سلمناها إلى القصار، فغرم على غرم، وعلى أنه ربما أنزل به من المكروه ما هو أشد، وما جلست فى المنزل قط إلا أرجف بى الغرماء، وادعوا على الأمراض والأحداث. وفى ذلك لهم فساد والتواء، وطمع لم يكن عندهم.

فإذا أنا لبستها، وقد ابيضت وحسنت وجفت وطابت، تبينت عند ذلك وسخ جسدى، وكثرة شعرى، وقد كان بعض ذلك موصولاً ببعض، ففرقته، فاستبان لى ما لم يكن يستبين، واكترثت لما لم أكن أكترث له، فيصير ذلك مدعاة إلى دخول الحمام، فإن دخلته فغرم ثقيل، مع المخاطرة بالثياب، ولى امرأة جميلة شابة، فإذا رأتنى قد أطليت وغسلت رأسى وبيضت ثوبى، عارضتنى بالتطيب، وتلبس أحسن ثيابها! وتعرضت لى، وأنا فحل، والفحل إذا هاج لم يرد رأسه شيء. فإذا أردت مواقعتها، ورأت حرصى نثرت علىَّ الحوائج نثرًا. ثم احتجنا إلى تسخين الماء. وأشد من هذا كله أن تعلق، فتحتاج إلى ظئر، فنقع فى ما غاية له.

مع أمور كثيرة، نسى بعضها أحمد، وبعضها أنا.

وكان أبو سعيد هذا مع بخله أشد الناس نفسًا، وأحماهم أنفًا. بلغ من أمره فى ذلك، ومن بلوغه فيه، أنه أتى رجلاً من ثقيف يقتضيه ألف دينار، وقد حل عليه المال. فكان ربما أطال عنده الجلوس، ويحضر عند الغداء، فيتغدى معه، وهو فى ذلك يقتضيه.

فلما طال عليه المطل، قال له يومًا، وهو على خوانه: إن لهذا المال زكاة مؤداة. وقد علمنا أنَّا حين أخرجنا هذا المال من أيدينا أنه معرض للذهاب، وللمنازعة الطويلة، لأن يقع في الميراث. ثم رضينا منك بالربح اليسير، بالذي ظنناه بك من حسن القضاء، ولولا ذلك لم نرض بهذا المال، وهذا المال إذا كان شرطه أن يرجع بعد سنة، فرفهت عنك بحسن المطالبة شهرًا أو شهرين، ثم مكث عندي إلى أن أصبت له مثلك، شهرًا أو شهرين، سحق فضله، وخرج علينا فضل ومثلك يكتفي بالقليل، وقد طال اقتضائي، وطال تغافلك.

يقول هذا الكلام، وهو في ذلك لا يقطع الأكل. فأقبل عليه رجل من ثقيف، فعرض له بأنه لو أراد التقاضي محضًا، لكان ذلك في المسجد، ولم يكن في الموضع الذي يحضر فيه الغداء، فقطع الأكل، ثم نزا في وجهه الدم، ونظر إليه نظر الجمل الصؤول، ثم كاد يطير!

ثم أقبل عليه فقال: لا أم لك! أنا إنما اصطبغت من دن خل حتى فني، من حسن العقل. وأحببت الغنى، بفضل بغضي للفقر، وأبغضت الفقر، بفضل أنفتي من احتمال الذل. تعرض لي -لا أم لك!- بأني أرغب في غدائه؟. والله ما أكلت معه إلا ليستحي من حرمة المؤاكلة، وليصير كرمه سببًا لتعجيل الحاجة.

ثم نهض بالصك وعليه طينته، فاعترض بها الحائط حتى كسرها. ثم تفل في الكتاب، وحك بعضه ببعض، ثم مزقه ورمى به، ثم قال لكل من شهد المجلس: هذه ألف دينار كانت لي على أبي فلان، اشهدوا جميعًا أني قد قبضت منه، وأنه بريء من كل شيء أطالبه. ثم نهض.

فلما صنع ما صنع، أقبل الغريم على صاحبه فقال: ما دعاك إلى هذا الكلام؟ لم تقوله لهذا الرجل على مائدتي! وتقدم بهذا الكلام على من لا تعرف كيف موقع الأمور منه؟ وبعد، فقد والله أردت مطله إلى أن أبيع التمر، ورجونا حلاوته، فقد أحسنت إليه، وأسأت إلينا، وعجلت عليه ماله، اذهب يا غلام، فاضرب بذلك التمر السوق فبعه بما بلغ. فيأخذ ماله كاملاً، ثم ركب إليه، فأبى أن يأخذه فلما كثر الأمر في ذلك قال: أظن الذي دعا صاحبك إلى ما قال إنه عربي وأنا مولى فإن جعلت شفعاءك من الموالي أخذت هذا المال، وإن لم تفعل فإني لا آخذه. فجمع الثقفي كل شعوبي بالبصرة، حتى طلبوا إليه أخذ المال.

وكان أبو سعيد ينهى خادمه أن تخرج الكساحة من الدار، وأمرها أن تجمعها

من دور السكان، وتلقيها على كساحتهم. فإذا كان فى الحين بعد الحين، جلس وجاءت الخادم ومعها زبيل، فعزلت بين يديه من الكساحة زبيلاً، ثم فتشت واحداً واحدًا، فإذا أصاب قطع دراهم، وصرة فيها نفقة، والدينار، أو قطعة حلى، فسبيل ذلك معروف. وأما ما وجد فيه من الصوف، فكان وجهه أن يباع - إذا اجتمع. من أصحاب البراذع، وكذلك قطع الأكسية، وما كان من خرق الثياب فمن أصحاب الصينيات والصلاحات، وما كان من قشور الرمان فمن الصباغين والدباغين، وما كان من القوارير فمن أصحاب الزجاج، وما كان من نوى التمر فمن أصحاب الخشوف، وما كان من نوى الخوخ فمن أصحاب الغرس، وما كان من المسامير وقطع الحديد فللحدادين وما كان من القراطيس فللطراز، وما كان من الصحف فلرءوس الجرار، وما كان من قطع الخشب فللاكافين، وما كان من قطع العظام فللوقود، وما كان من الخزف، فللتنانير الجدد، وما كان من أشكنج فهو مجموع للبناء، ثم يحرك ويثار ويخلل حتى يجتمع قماشه، ثم يعزل للتنور، وما كان من قطع القار بيع من القيار، فإذا بقى التراب خالصًا، وأراد أن يضرب منه اللبن للبيع وللحاجة إليه، لم يتكلف الماء، ولكن يأمر جميع من فى الدار أن لا يتوضأوا ولا يغتسلوا إلا عليه. فإذا ابتل ضربه لبنًا.

وكان يقول: من لا يتعرف من الاقتصاد تعرفى، فلا يتعرض له.

وذهب من ساكن له شىء، كبعض ما يسرق من البيوت. فقال لهم: اطرحوا اللية ترابًا، فعسى أن يندم من أخذه فيلقيه فى التراب. ولا ينكر مجيئه إلى ذلك المكان، لكثرة من يجىء لذلك. فاتفق أن طرح ذلك الشىء المسروق فى التراب -وكانوا يطرحونه على كناسته- فرآه قبل أن يراه المسروق منه. فأخذ منه كراء الكساحة.

فهذا حديث أبى سعيد.

* * *

الأصمعى

تمشى قوم إلى الأصمعى مع تاجر كان اشترى ثمرته لخسران كان ناله، وسأله حسن النظر والحطيطة. فقال الأصمعى: أسمعتم بالقسمة الضيزى؟ هى والله ما تريدون شيخكم عليه! أشترى منه على أن يكون الخسران على والربح له!

هذا وأبيّكم تجارة أبى العنبس! اذهبوا فاشتروا على طعام العراق على هذا الشرط! على أنى والله ما أدرى أصادق هو أم كاذب.

وها هنا واحدة، وهى لكم دونى، ولابد من أن أحتمل لكم، إذا لم تحتملوا لى والله ما مشيتم معه إلا وأنتم توجبون حقه، وتوجبون رفده. لو كنت أوجب له مثل ما توجبون، لقد كنت أغنيته عنكم. وأنا لا أعرفه، ولا يضربنى بحق. فهلموا نتوزع هذه الفضيلة بيننا بالسوية هذا حسن ممن احتمل حقًّا لا يجب عليه، فى رضا من يجب ذلك عليه.

فقاموا ولم يعودوا. فخرج إليه التاجر من حقه، وأيس مما قبله.

* * *

حديث جعفر عن أبى عيينة

حدثنى جعفر ابن أخت واصل. قال: قلت لأبى عيينة. قد أحسن الذى سأل امرأته عن اللحم، فقالت: أكله السنور. فوزن السنور، ثم قال هذا اللحم، فأين السنور؟ قال: كأنك تعرض بى!.

قال: قلت إنك والله أهل ذلك، شيخ قد قارب المائة، وغلته فاضلة، وعياله قليل، ويعطى الأموال على مذاكرة العلم، والعلم لذته وصناعته. ثم يرقى إلى جوف منزله! وأنت رجل لك فى البستان، ورجل فى أصحاب الغسيل، ورجل فى السوق، ورجل فى الكلاء، تطلب من هذا وقر جص، ومن هذا وقر آجر، ومن هذا قطعة ساج، ومن هذا هكذا!.

ما هذا الحرص؟ وما هذا الكد؟ وما هذا الشغل؟ لو كنت شابًّا بعيد الأمل، كيف كنت تكون؟ ولو كنت مدينًا كثير العيال، كيف كنت تكون؟ وقد رأيتك فيما حدث تلبس الأطمار، وتمشى حافيًا نصف النهار.

قال: كم أجمجم. بلغنى أنك فقدت قطعة بطيخ، فألححت فى المسألة عنها، فقيل لك: أكلها السنور. فرميت بباقى القطعة قدام السنور، لتمتحن صدقهم من كذبهم فلما لم يأكله غرمتهم ثمن البطيخة كما هى! قالوا لك: كان الليل. فإن لم تكن التى أكلته من سنانير الجيران كان الذى أكله سنورنا هذا، فإنك رميت إليه بالقطعة وهو شبعان منه فانظرنا ولا تغرمنا، نمتحنه فى حال غيره فأبيت إلا إغرامهم!

قال: ويلك إني والله مـا أصل إلى منعهم من الفـساد، إلا ببعض الفـساد. وقد قال زياد [في] خطبته: إني والله مـا أصل منكم إلى أخذ الحق، حتى أخوض الباطل إليكم خـوضًا. وأما ما لمتنى علـيه اتفاقًا فـإنما ذهبت إلى قوله: لو أن في يدي فسيلة، ثم قيل لي: إن القيامة تقوم الساعـة، لبادرتها فغرستها. وقد قال أبو الدرداء في وجعـه الذي مات فيه: زوجـوني، فإني أكره أن ألقى عـزبًا. والعرب تقول: من غلى دمـاغه في الصـيف، غلت قدره في الشتـاء. قال مكرز: العـجز فراش واطيء، لا يـستوطئـه إلا الفشل الدثـور. وقال عبـد الله بن وهب: حب الهويني يكـسب النصب. وقال عمـر بن الخطاب -رضي الله عنه-: إياكم والراحة، فـإنها عقلة. وقال: لو أن الصـبر والشكر بعيران ما باليت أيهمـا أركب. وقال: تمعددوا واخشوشـنوا، واقطعوا الركب، واركبوا الخـيل نزوًا. وقال لعمرو بن مـعد يكرب حين شكا إليه الحفاء: كذبت عليك الظهائر. وقال: احتفوا، فإنكم لا تدرون متى تكون الجفلة. وقال: إن يكن الشغل مجهدة، فإن الفـراغ مفسدة. وقال لسعيد بن حاتم: احذر النعـمة كحذرك من المعصـية، ولهي أخوفهـما عليك عندي. وقال: أحذركم عـاقبـة الفراغ، فـإنه أجمع لأبواب المكروه من الـشغل. وقال أكـثم بن صيفي: ما أحب أني مكفي كل أمر الدنيا. قالوا: وإن أسمنت وألبنت؟ قال: نعم أكره عـادة العجز. أفـتراني أدع وصايا الأنبـياء، وقول الخلفـاء، وتأديب العرب، وآخذ بقولك؟

* * *

طرائـــف شتـــى

وتغدى محمد بن الأشعث عند يحيـى بن خالد. فتذاكروا الزيت وفضل ما بينه وبين السمن، وفضل ما بين الإنفاق وزيت الماء. فـقال محمد: عندي زيت لم ير الناس مثله، قـال يحيى: لا يؤتى منه بشيء؟ فـدعا محمـد غلامه فـقال: إذا دخلت الخزانة فانظر الجرة الرابعة عن يمينك، فجئنا منها شيء.

قال يحيى: ما يعجبني السيد يعرف موضع زيته وزيتونه.

* * *

وقرَّب خبـاز أسد بن عبد الله إليـه، وهو على خراسان، شواء قـد أنضجه نضجًا، وكـان يعجبه ما رطب من الشـواء فقال لخبازه: أتظـن أن صنيعك يخفى

علي؟ إنك لست تبالغ في إنضاجه لتطييبه، ولكن تستحلب جميع دسمه فتنتفع بذلك منه!

فبلغت أخاه، فقال: رب جهل خير من علم!

* * *

وكان رجل يغشى طعام الجوهري، وكان يتحرى وقته ولا يخطئ. فإذا دخل والقوم يأكلون، وحين وضع الخوان، قال: لعن الله القدرية! من كان يستطيع أن يصرفني عن أكل هذا الطعام، وقد كان في اللوح المحفوظ أني سآكله؟

فلما أكثر من ذلك، قال له رياح: تعال بالعشي أو بالغداة، فإن وجدت شيئًا فالعن القدرية والعن آباءهم وأمهاتهم!.

* * *

وجاء غلام إلى خالد بن صفوان بطبق خوخ - إما أن يكون هدية، وإما أن غلامه جاء به من البستان - فلما وضعه بين يديه قال: لولا أني أعلم أنك قد أكلت منه لأطعمتك واحدة!

* * *

وقال رمضان: كنت مع شيخ أهوازي في جعفرية وكنت في الذنب، وكان في الصدر. فلما جاء وقت الغداء، أخرج من سلة له دجاجة، وفرخًا واحدًا مبردًا، وأقبل يأكل ويتحدث، ولا يعرض علي وليس في السفينة غيري وغيره! فرآني أنظر إليه مرة، وإلى ما بين يديه مرة، فتوهم أني أشتهيه وأستنطيه. فقال لي: لم تحدق النظر؟ من كان عنده أكل مثلي، ومن لم يكن عنده نظر مثلك.

قال: ثم نظر إليّ وأنا أنظر إليه، فقال: يا هناه، أنا رجل حسن الأكل، لا آكل إلا طيب الطعام. وأنا أخاف أن تكون عينك مالحة وعين مثلك سريعة، فاصرف عني وجهك.

قال: فوثبت عليه، فقبضت على لحيته بيدي اليسرى، ثم تناولت الدجاجة بيدي اليمنى، فما زلت أضرب بها رأسه، حتى تقطعت في يدي!

ثم تحول إلى مكاني، فمسح وجهه ولحيته. ثم أقبل عليّ فقال: قد أخبرتك أن عينك مالحة، وأنك ستصيبني بعين! قلت: وما شبه هذا من العين؟ قال: إنما

العين مكروه يحدث، فقد أنزلت بنا عينك أعظم المكروه! فضحكت ضحكًا ما ضحكت مثله وتكالمنا حتى كأنه لم يقل قبيحًا، وحتى كأنى لم أفرط عليه.

* * *

هذه ملتقطات أحاديث أصحابنا وأحاديثنا، وما رأينا بعيوننا، فأما أحاديث الأصمعى وأبى عبيدة وأبى الحسن، فإنى لم أجد منها ما يصلح لهذا الموضع، إلا ما قد كتبته فى هذا الكتاب، وهى بضعة عشر حديثًا:

قالوا: كان للمغيرة بن عبد الله بن أبى عقيل الثقفى وهو على الكوفة، جدى يوضع على مائدته بعد الطعام. ولم يكن أحد يمسه، إذ كان هو لا يمسه! فأقدم عليه أعرابى يومًا، ولم يعرف سيرة أصحابنا فيه فلم يرض بأكل لحمه، حتى تعرق عظمه. فقال له المغيرة: يا هذا، تطالب عظام هذا الجدى بذحل؟ هل نطحتك أمه؟

قال: وكان على شرطته عبد الرحمن بن طارق، فقال لرجل من الشرط: إن أقدمت على جدى الأمير أسقطت عنك نوبة سنة. فبلغه ذلك فشكاه إلى الحجاج، فعزله، وولى مكانه زياد بن جرير، فكان أثقل عليه من عبد الرحمن، ولم يقدر على عزله، إذ كان من قبل الحجاج، فكان المغيرة إذا خطب قال: يا أهل الكوفة، من بغاكم الغوائل، وسعى بكم إلى أميركم، فلعنه الله، ولعن أمه العوراء! دينار.

وكانت أم زياد عوراء. فكان الناس يقولون: ما رأينا تعريضًا قط أطيب من تعريضه!.

* * *

قالوا: وكان لزياد الحارثى جدى لا يمسه؟ فعشى فى شهر رمضان قومًا فيهم أشعب. فعرض أشعب للجدى من بينهم. فقال زياد: أما لأهل السجن إمام يصلى بهم؟ قالوا: لا. قال: فليصل بهم أشعب. فقال أشعب: أو غير هذا - أصلح الله الأمير- قال: وما هو؟ قال: أحلف بالمحرجات ألا آكل لحم جدى أبدًا!

* * *

قالوا: دعا عبد الملك بن قيس الذئبى رجلاً من أشراف أهل البصرة. وكان عبد الملك بخيلاً على الطعام، جوادًا بالدراهم. فاستصحب الرجل شاكرًا، فلما

رآه عبد الملك ضاق به ذرعًا. فأقبل عليه فقال له: ألف درهم خير لك من احتسابك علينا! فاحتمل غرم ألف درهم، ولم يحتمل أكل رغيف!

* * *

وتناول أعرابى من بين يدى سليمان بن عبد الملك دجاجة، فقال له: يكفيك ما بين يديك وما يليك، قال الأعرابى: ومنها شىء حمى؟ قال: فخذها، لا بورك لك فيها.

* * *

وقالوا: وكان معاوية تعجبه القبة، وتغدى معه ذات يوم صعصعة بن صوحان، فتناولها من بين يدى معاوية، قال معاوية: إنك لبعيد النجعة! قال صعصعة: من أجدب انتجع.

* * *

وقالوا: دخل هشام بن عبد الملك حائطًا له، فيه فاكهة وأشجار وثمار، ومعه أصحابه. فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة! فقال هشام: يا غلام، اقلع هذا واغرس مكانه الزيتون.

* * *

وقالوا: وكان المغيرة بن عبد الله بن أبى عقيل الثقفى يأكل تمرًا هو أصحابه، فانطفأ السراج. وكانوا يلقون النوى فى طست، فسمع نواتين، فقال: من هذا الذى يلعب بالكعبتين.

* * *

وقالوا: باع حويطب بن العزى دارًا من معاوية بخمسة وأربعين ألف دينار. فقيل له: أصبحت كثير المال. قال: وما منفعة خمسة وأربعين ألفًا مع ستة من العيال؟.

* * *

وقالوا: سأل خالد بن صفوان رجلاً فأعطاه درهمًا، فاستقله السائل، فقال: يا أحمق! إن الدرهم عشر العشرة، وإن العشرة عشر المائة، وإن المائة عشر الألف وإن الألف عشر العشرة آلاف. أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم.

قالوا: كان بلال بن أبى بردة قد خاف الجـذام، وهو والى البصرة. فوصفوا له الاستنقاع فى السمن. فكان إذا فرغ من الجلوس فيـه، أمر ببيعه فاجتنب الناس فى تلك السنة أكل السمن.

وكان يفطر النـاس فى شهر رمـضان، فكانوا يجلسون حلـقًا، وتوضع لهم الموائد. فإذا أقام المؤذن، نهض بـلال إلى الصلاة، ويستحى الآخرون، فـإذا قاموا إلى الصلاة، جاء الخبازون فرفعوا الطعام.

* * *

قالوا: واحتقن عـمر بن يزيد الأسدى بحقنة فيها أدهان. فلمـا حركته بطنه كره أن يأتـى الخلاء، فتـذهب تلك الأدهان. فكان يجلس فى الطست، ويـقول: صفوا هذا، فإنه يصلح للسراج.

* * *

قالوا: وأخبـرنا جار له قال: رأيته يتـخلل من الطعام بخلال واحـد شهرًا، كلما تغدى حذف من رأيه شيئًا ثم تخلل به، ثم وضعه فى مجرى دواته.

* * *

وقالوا: كان ذراع الذراع مع خـالد بن صفوان، فوضعـوا بين يديه دجاجة، وبين يديه شيئًا من زيتـون، فجعل يلحظ الدجاجة! فقـال: كأنك تهم بها، قال: ومن يمنعنى؟ قال: إذًا أصير أنا وأنت فى مالى سواء.

* * *

قالوا: مد يده أبو الأشهب إلى شىء بين يدى نميلة بن مرة السعدى، فقال: إذا أفردت بشىء فلا تعترض لغيره.

قالوا: ومات عليه للدقاق وحده ثمانون ألف درهم، لكثرة طعامه.

* * *

وقالوا: كان الحكم بن أيوب الثقفى عاملاً للحجاج على البصرة، واستعمل على العراق جرير بن بهيس المازنى، «ولقـب جرير العطرق». فخرج الحكم يتنزه، وهو باليمامة، فدعا العطرق إلى غدائه، فأكل معه، فتناول دراجة كانت بين يديه، فعزله، وولى مكانه نويرة المازنى، ،فقال نويرة، وهو ابن عم العطرق:

قد كان فى العرق صيد لو قنعت به فـيـه غنى لـك عن دراجـة الحكم
وفى عـوارض لا تنفـك تأكلهـا لو كان يشفـيك لحم الجزر من قرم
وفى وطاب مملاة مـتـمـمـة فيها الصريح الذى يشفى من القرم

ولما ولى مكانه نويرة، بلغه أنه ابن عم له فعزله. فقال نويرة:

أبا يوسف لو كنت تعرف طاعتى ونصحـى إذا مـا بعـتنـى بالمحلق
ولا انهلّ سـراق العـرافـة صـالح عـلىّ ولا كـلفـت ذنب الـعطـرق

فذهبت مثلاً.

* * *

وتناول رجل من قدام أمير كان لنا، ضخم، بيضة، فقال: خذها فإنها بيضة العقر. فلم يزل محجوبًا حتى مات.

وأتى ضيعة له يتنزه إليها، ومعه خمـسة رجال من خاصته، وقد حملوا معه الطعام خمستهم، وثقل عليه أن يأكلوا معه، واشتد جوعـه، فجلس على مشارة بقل، فأقبل ينتزع الفجلة فيطوى جزرتها بعرقها ثم يأكلها، من غير أن تغسل، من كلب الجوع، ويقـول لواحد منهم كان أقـرب الخمسـة إليه مجلسًـا: لو قد ذهب هؤلاء الثقلاء لقد أكلنا.

* * *

قالوا: وأكل عبد الرحمن بن عبد بكـرة على خوان معاوية، فرأى لقم عبد الرحمن. فلما كان بالعشى، وراح إليه أبو بكرة، قال: ما فعل ابنك من التلقامة؟ قال: اعتل. قال: مثله لا يعدم العلة.

* * *

وأكل أعرابى مع أبى الأسود الدؤلى، فرأى له لقمًا منكرًا، وهاله ما يصنع. قال له: ما اسمك؟ قال: لقمان. قال: صدق أهلك، أنت لقمان.

قالوا: وكـان له دكان لا يسع إلا مقعـده، وطبيقًـا يوضع بين يديه، وجعله مرتفعًا، ولم يجـعل له عتبًا، كى لا يرتقى إليه أحد. قـالوا: فكان أعرابى يتحين وقته، ويأتيـه على فرس، فيصـبر كأنه معه على الدكـان، فأخذ دبة وجعل فـيها

حصى، واتكأ عليـها. فإذا رأى الأعرابى قـد أقبل، أراه كأنه يحول مـتكأه، فإذا قعقعت الدبة بالحصى نفر الفرس.

قالوا: فلم يزل الأعرابى يدنيه، ويقعقـع هو به حتى نفر منه فصرعه، فكان لا يعود بعد ذلك إليه.

رسالة أبى العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى إلى الثقفى

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: فإن جلوسك إلى الأصمعى، وعجبك بسهل بن هارون، واسترجاحك إسماعيل بن غزوان، وطعنك على مويس بن عمران، وخلطتك بابن مشارك، واختلافك إلى ابن التوأم، وإكثارك من ذكر المال وإصلاحه، والقيام عليه واصطناعه وإطنابك فى وصف الترويج والتثمير، وحسن التعهد والتوفير. دليل على خبى سوء، وشاهد على عيب وإدبار، بعد أن كنت تستثقل ذكرهم، وتستشنع فعلهم، وتتعجب من مذهبهم، وتسرف فى ذمهم.

وليس يلهج بذكر الجمع، إلا من قد عزم على الجمع، ولا يأنس بالبخلاء، إلا المستوحش من الأسخياء.

وفى تحفظك لقول سهل بن هارون: فى الاستعداد فى حال المهلة، وفى الأخذ بالثقة، وإن أقبح التفريط ما جاء مع طول المدة، وإن الحزم كل الحزم، والصواب كل الصواب، أن يستظهر على الحدثان، وأن يجعل ما فضل عن قوام الأبدان، رداء دون صروف الزمان، وأنا لا ننسب إلى الحكمة، حتى نحوط أصل النعمة، بأن نجعل دون فضولها جنة، شاهد على عجبك بمذهبه، وبرهان على ميلك إلى سبيله.

وفى استحسانك رواية الأصمعى فى «أن أكثر أهل النار النساء والفقراء، وأن أكثر أهل الجنة البله والأغبياء، وأن أرباب الدثور، هم الذين ذهبوا بالأجور» برهان على صحة حكمنا عليك، ودليل على صواب رأينا فيك.

وفى تفضيلك كلام ابن غزوان، حين قال:

«تنعمتم بالطعام الطيب، وبالثياب الفاخرة، وبالشراب الرقيق، وبالغناء المطرب، وتنعمنا بعز الثروة، وبصواب النظر فى العاقبة، وبكثرة المال، والأمن من سوء الحال، ومن ذل الرغبة إلى الرجال، والعجز عن مصلحة العيال.

فتلك لذتكم، وهذه لذتنا، وهذا رأينا فى التسلم من الدم، وذلك رأيهم فى

التعرض للحمد. وإنما ينتفع بالحمد السليم الفارغ البال، ويسر باللذات الصحيح الصادق الحس. فأما الفقير فما أغناه عن الحمد، وأفقره إلى ما به يجد طعم الحمد! والطعام الذى أثرتموه يعود رجيعًا، والشراب يصير بولاً، والبناء يعود نقضًا، والغناء ريح هابة، ومسقط للمروءة، وسخافة تفسد، ورنة تسير. فلذتكم فيما حوى لكم الفقر، ونقض المروءة، ولذتنا فيما حوى لنا الغنى، وبنى المروءة. فنحن في بناء، وأنتم فى هدم، ونحن فى إبرام، وأنتم فى نقض، ونحن فى التماس العز الدائم، مع فوت بعض اللذة، وأنتم فى التعرض للذل الدائم، مع فوت كل مروءة».

وقد فهمنا معنى حكايتك، وما لهجت به من روايتك، والدليل على انتقاض طباعك، وإدبار أمرك، استحسانك ضد ما كنت تستحسن، وعشقك لما لم تزل تمقت، فبعدًا وسحقًا! ولا يبعد الله إلا من ظلم.

والشاعر أبصر بكم حيث يقول:

فإن سمعت بهلك للبخيل فقل ... بعدًا وسحقًا له من هالك مودى!

تُراثه جنة للوارثين إذا ... أودى، وجثمانه للترب والدود

وقال آخر:

تبلى محاسن وجهه فى قبره ... والمال بين عدوه مقسوم

والحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانيك وكيلاً فى مالك، وأجيرًا لوارثك. وأما أنت فقد تعجلت الفقر قبل أوانه؛ وصرت كالمجلود في غير لذة وهل تزيد حال من أنفق جميع ماله، ورأى المكروه فى عياله، وظهر فقره، وشمت به عدوه، على أكثر من انصراف المؤنسين عنه، وعلى بغض عياله وعلى خشونة الملبس، وجشوبة المأكل؟ وهذا كله مجتمع فى مسك البخيل، ومصبوب على هامة الشحيح، ومعجل للئيم، وملازم للمنوع، إلا أن المنفق قد ربح المحمدة، وتمتع بالنعمة، ولم يعطل المقدرة، وفى كل خصلة من هذه حقها، ووفر عليها نصيبها، والمسك معذب بحصر نفسه، وبالكد لغيره، مع لزوم الحجة، وسقوط الهمة، والتعرض للذم والإهانة، ومع تحكيم المرة السوداء فى نفسه، وتسليطها على عرضه، وتمكينها من عيشه وسرور قلبه.

ولقد سرى إليك عرق، ولقد دخل أعراقك جور، ولقد عمل فيها قادح، ولقد غالها غول، وما هذا المذهب من أخلاق صميم ثقيف، ولا من شيم أعرقت فيها قريش ولقد عرض لك إقراف، ولقد أفسدتك هجنة. ولقد قال معاوية: من لم يكن من بنى عبد المطلب جوداً فهو دخيل، ومن لم يكن من آل الزبير شجاعاً فهو لزيق، ومن لم يكن من بنى المغيرة تياهاً فهو سنيد. وقال سلم بن قتيبة: إذا رأيت الثقفى يعز من غير طعام، ويكسب لغير إنفاق، فبهرجه ثم بهرجه ثم بهرجه. وقال بلال بن أبى بردة: لولا شباب ثقيف وسفهاؤهم ما كان لأهل البصرة مال.

إن الله جواد لا يبخل، وصدوق لا يكذب، ووفى لا يغدر، وحليم لا يعجل، وعدل لا يظلم. وقد أمرنا بالجود، ونهانا عن البخل، وأمرنا بالصدق، ونهانا عن الكذب، وأمرنا بالحلم، ونهانا عن العجلة، وأمرنا بالعدل، ونهانا عن الظلم، وأمرنا بالوفاء ونهانا عن الغدر.

فلم يأمرنا إلا بما اختار لنفسه، ولم يزجرنا إلا عما لم يرضه لنفسه. وقد قالوا بأجمعهم: إن الله أجود الأجودين، وأمجد الأمجدين، كما قالوا: أرحم الراحمين، وأحسن الخالقين. وقالوا فى التأديب لسائليهم، والتعليم لأجوادهم: لا تجاودوا الله، -جل ذكره- فإن الله أجود وأمجد. وذكر نفسه -جل جلاله، وتقدست أسماؤه- فقال: ﴿**ذو الفضل العظيم**﴾، و﴿**ذى الطول لا إله إلا هو**﴾، وقال: ﴿**ذو الجلال والإكرام**﴾.

وذكر النبى -ﷺ-، فقالوا: لم يضع درهماً على درهم، ولا لبنة على لبنة، وملك جزيرة العرب، فقبض الصدقات وجبيت له الأموال ما بين غدران العراق إلى شحر عمان، إلى أقصى مخاليف اليمن، ثم توفى وعليه دين، ودرعه مرهونة، ولم يسأل حاجة قط، فقال: لا. وكان إذا سئل أعطى، وإذا وعد أو أطمع، كان وعده كالعيان، وأطماعه كالإنجاز، ومدحته الشعراء بالجود، وذكرته الخطباء بالسماح. ولقد كان يهب للرجل الواحد الضاجعة من الشاة، والعرج من الإبل. وكان أكثر ما يهب الملك من العرب مائة بعير، فيقال: وهب هنيدة. وإنما يقال ذلك، إذا أريد بالقول غاية المدح، ولقد وهب لرجل ألف بعير. فلما رآها تزدحم فى الوادى قال: أشهد أنك نبى. وما هذا مما تجود به الأنفس.

وفخرت هاشم على سائر قريش فقالوا: نحن أطعم للطعام، وأضرب للهام. وذكرها بعض العلماء فقالوا: أجواد مجاد، ذوو ألسنة حداد. وأجمعت الأمم كلها، بخيلها وسخيها وممزوجها، على ذم البخل، وحمد الجود. كما أجمعوا على ذم الكذب وحمد الصدق وقالوا: أفضل الجود، الجود بالمجهود، وحتى قالوا فى جهد المقل، وفيمن أخرج الجهد وأعطى الكل، وحتى جعلوا لمن جاد بنفسه، فضيلة على من جاد بماله، فقال الفرزدق:

على ساعة لو كان فى القوم حاتم   على جوده ضنت به نفس حاتم

ولم يكن الفرزدق ليضرب المثل فى هذا الموضع بكعب بن مامة، وقد جاد بحوبائه عند المصافنة. فما رأينا عربيًا سفه حلم حاتم لجوده بجميع ماله. ولا رأينا أحدًا منهم سفه حلم كعب على جوده بنفسه، بل جعلوا ذلك من كعب لإياد مفخرًا. وجعلوا ذلك من حاتم لطىء مأثرة، ثم لعدنان على قحطان، ثم للعرب على العجم، ثم لسكان جزيرة العرب ولأهل تلك البرية على سائر الجزائر والترب.

فمن أراد أن يخالف ما وصف الله -جل ذكره- به نفسه، وما منح من ذك نبيه -ﷺ-، وما فطر على تفضيله العرب قاطبة، والأمم كافة، لم يكن عندنا فيه إلا إكفاره واستسقاطه.

ولم نر الأمة أبغضت جوادًا قط، ولا حقرته، بل أحبته وأعظمته، بل أحبت عقبه وأعظمت من أجله رهط رهطه، ولا وجدناهم أبغضوا جوادًا، لمجاوزته حد الجود إلى السرف، ولا حقرته. بل وجدناهم يتعلمون مناقبه، ويتدارسون محاسنه، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجميل ما لم يفعله، ونحلوه من غرائب الكرم ما لم يكن يبلغه. ولذلك زعموا أن الثناء فى الدنيا يضاعف كما تضاعف الحسنات فى الآخرة. نعم، وحتى أضافوا إليه كل مديح شارد، وكل معروف مجهول الصاحب. ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخيل، على ضد هذه الصفة، وعلى خلاف هذا المذهب، وجدناهم يبغضونه مرة ويحقرونه مرة، ويبغضون بفضل بغضه ولده، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رهطه، ويضيفون إليه من نوادر اللؤم ما لم يبلغه، ومن غرائب البخل ما لم يفعله، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء، بقدر ما ضاعفوا للجواد من حسن الثناء.

وعلى أنا لا نجد الجوائح إلى أموال الأسخياء، أسرع منها إلى أموال البخلاء ولا رأينا عدد من افتقر من البخلاء أقل.

والبخيل عند الناس ليس هو الذى يبخل على نفسه فقط، فقد يستحق عندهم اسم البخيل، ويستوجب الذم، من لا يدع لنفسه هوى إلا ركبه، ولا حاجة إلا قضاها ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته. وإنما يقع عليه اسم البخيل، إذا كان زاهدًا فى كل ما أوجب الشكر، ونوه بالذكر، وأذخر الأجر.

وقد يعلق البخيل على نفسه من المؤن، ويلزمها من الكلف، ويتخذ من الجوارى والخدم، ومن الدواب والحشم، ومن الأنية العجيبة، ومن البزة الفاخرة، والشارة الحسنة، ما يربى على نفقة السخى المثرى، ويضعف على جود الجواد الكريم. فيذهب ماله وهو مذموم، ويتغير حاله وهو ملوم، وربما غلب عليه حب القيان، واستهتر بالخصيان، وربما أفرط فى حب الصيد، واستولى عليه حب المراكب، وربما كان إتلافه فى العرس والخرس والوليمة، وإسرافه فى الأعذار وفى العقيقة والوكيرة، وربما ذهبت أمواله فى الوضائع والودائع.

وربما كان شديد البخل، شديد الحب للذكر، ويكون بخله أوشج، ولؤمه أقبح، فينفق أمواله ويتلف خزائنه، ولم يخرج كفافًا، ولم ينج سليمًا.

كأنك لم تر بخيلاً مخدوعًا، وبخيلاً مضعوفًا، وبخيلاً مضياعًا، وبخيلاً نفاجًا. أو بخيلاً ذهب ماله فى البناء، وبخيلاً ذهب ماله فى الكيمياء، وبخيلاً أنفق ماله فى طمع كاذب وعلى أمل خائب، وفى طلب الولايات، والدخول فى القبالات وكانت فتنته بما يؤمل من الإمرة فوق فتنته بما قد حواه من الذهب والفضة.

قد رأيناه ينفق على مائدته وفاكهته ألف درهم فى كل يوم، وعنده فى كل يوم عرس، ولأن يطعن طاعن فى الإسلام، أهون عليه من أن يطعن طاعن فى الرغيف الثانى، ولشق عصا الدين، أهون عليه من شق رغيف. لا يعد الثلمة فى عرضه ثلمة، ويعدها فى ثريدته من أعظم الثلم.

وإنما صارت الآفات إلى أموال البخلاء أسرع، والجوائح عليهم أكلب، لأنهم أقل توكلاً، وأسوأ بالله ظنًا. والجواد إما أن يكون متوكلاً، وإما أن يكون أحسن بالله ظنًا، وهو على كل حال بالمتوكل أشبه، وإلى ما أشبهه أنزع، وكيفما

دار أمره، ورجـعت الحال به، فليس ممن يتكل عـلى حزمه، ويلجـأ إلى كيـسه، ويرجع إلى جودة احتياطه، وشدة احتراسه.

واعتلال البخيل بالحدثان، وسوء الظن بتقلب الزمان، إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان، وبالذى يحدث الأزمان، وأهل الزمان. وهل تجرى الأحداث إلا على تقـدير المحدث لهـا؟ وهل تخـتلف الأزمنة إلا على تصـريف من دبَّرها؟ أولسنا وإن جهلنا أسبابها، فقد أيقنا بأنها تجرى إلى غايتها؟

والدليل على أنه ليس بهم خوف الفقر، وأن الجمع والمنع إما أن يكون عادة منهم، أو طبيعـة فيهم، إنَّك قد تجد الملك بخيلاً، ومملكته أوسع، وخرجه أدر، وعدوه أسكن. وتجـد أحزم منه جـوداً، وإن كانت مملكتـه أضيق، وخـرجه أقل، وعدوه أشد حركة.

وقد علمنا أن الزنج أقصر الناس فكرة وروية، وأذهلهم عن مـعرفة العاقبة، فلو كان سـخاؤهم إنما هو لكلال حدهم ونقص عـقولهم، وقلة معرفـتهم، لكان ينبغى لفـارس أن تكون أبخل من الروم، وتكون الروم أبخل من الصقالبـة، وكان ينبغى فى الرجال فى الجملة، أن يكونوا أبخل من النســاء فى الجملة، وكان ينبغى للصبـيان أن يكونوا أسخى من النساء، وكـان ينبغى أن يكون أقل البخـلاء عقلاً، أعقل من أشد الأجواد عقلاً، وكان ينبغى للكلب -وهو المضروب بالمثل فى اللؤم- أن يكون أعرف الأمور من الديك، المضروب به المثل فى الجود.

وقـالوا: «هو أسخى مـن لافظة» و«ألأم من كلب على جـيفـة» و«ألأم من كلب على عـرق». وقـالوا: «أجع كلبك يـتبـعك» و«نَعِمَ كـلـب فى بؤس أهله» و«سَمِّن كلبك يأكلك». و«أحـرص من كلب على عقى صبى» و«أجـوع من كلبة حومل»، و«لهـو أبذأ من كلب»، و«حش فلان من خـرء الكلب» و«أخسأ!» كـما يقال للكلب، و«كالكلب فى الأرى: لا هو يعتلف، ولا يترك الدابة تعتلف».

وقال الشاعر:

سرت ما سـرت من ليلها ثم عرست على رجـل بالعـرج ألأم مـن كلب

وقال الله جل ذكره: ﴿**فمثله كمثل الكلب، إن تحمـل عليـه يلهـث أو تتركـه يلهث**﴾. وكـان ينبـغى فى هذا القـيـاس أن يكون المراوزة أعـقل البـرية، وأهل خراسان أدرى البرية.

ونحن لا نجد الجواد يفر من اسم السرف إلى الجود. كما نجد البخيل يفر من اسم البخل إلى الاقتصاد. ونجد الشجاع يفر من اسم المنهزم، والمستحى يفر من اسم الخجل، ولو قيل لخطيب ثابت الجنان. «وقاح»، لجزع.

فلو لم يكن من فضيلة الجود إلا أن جميع المتجاوزين لحدود أصناف الخير يكرهون اسم تلك الفضيلة، إلا الجواد، لقد كان فى ذلك ما يبين قدره. ويظهر فضله.

المال فاتن، والنفس راغبة، والأموال ممنوعة.

وهى على ما منعت حريصة وللنفوس فى المكاثرة علة معروفة، لأن من لا فكرة له ولا روية، موكل بتعظيم ذى الثروة وإن لم تكن منه منالة. وقد قال الأول:

وزادها كلفًا بالحب إن منعت أحب شىء إلى الإنسان ما منعا

وفى بعض كتب الفرس: كل عزيز تحت القدرة فهو ذليل، وقالت معاذة العدوية: كل مقدور فمقلى أو محقور.

ولو كانوا لأولادهم يجمعون، ولهم يكدون، ومن أجلهم يحرصون، لجعلوا لهم كثيراً مما يطلبون، ولتركوا محاسبتهم فى كثير مما يشتهون، وهذا ما بغضّ بعض المورثين إلى الوارثين، وزهد الأخلاف فى طول عمر الأسلاف.

ولو كانوا لأولادهم يمهدون، ولهم يجمعون، لما جمع الخصيان الأموال، ولما كنز الرهبان الكنوز، ولاستراح العاقر من ذل الرغبة، ولسلم العقيم من كد الحرص. وكيف؟ ونحن نجده أن يموت ابنه الذى كان يعتل به والذى من أجله كان يجمع على حاله فى الطلب والحرص، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع.

والعامة لم تقصر فى الطلب والحكرة، والبخلاء لم يحدوا شيئًا من جهدهم، ولا أعفوا بعد قدرتهم، ولا قصروا فى شىء من الحرص والحصر، لأنهم فى دار قلعة، وبعرض نقلة، حتى لو كانوا بالخلود موقنين، لأغفلوا تلك الفضول.

فالبخيل مجتهد، والعامى غير مقصر. فمن لم يستعن على ما وصفنا بطبيعة قوية، وبشهوة شديدة، وبنظر شاف، كان إما عاميًا، وإما بخيلاً شقيًا، فيقيم اعتلالهم بأولادهم، واحتجاجهم بخوف التلون من أزمنتهم.

قال رسول الله -ﷺ- لوافد كذب عنده كذبة، وكان جوادًا: «لولا خصلة ومقك الله عليها، لشرَّدت بك من وافد قوم». وقيل للنبى -ﷺ-: هل لك فى بيض النساء وأدم الإبل، قال: «ومن هم؟». قيل: بنو مدلج، قال: «يمنعنى من ذاك قراهم الضيف، وصلتهم الرحم»، وقال لهم أيضًا: «إذا نحروا ثجوا، وإذا لبوا عجوا». وقال للأنصار: «من سيدكم؟» قالوا: جدٌّ بن قيس، على أنه يزنّ فينا ببخل، فقال: «وأى داء أدوى من البخل» فجعله داء، ثم جعله من أدوى الداء. وقال للأنصار: «أما والله ما علمتكم إلا لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع». وقال: «كفى بالمرء حرصًا ركوبه البحر». وقال: «لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى ثالثًا، ولا يشبع ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب». وقال: «السخاء من الحياء، والحياء من الإيمان». وقال: «إن الله جواد يحب الجود». وقال: «أنفق يا بلال، ولا تخش من ذى العرش إقلالاً». وقال: «لا توكىء فيوكأ عليك». وقال: «لا تحصِ فيحصى عليك». وقالوا: لا ينفعك من زاد ما تبقى.

ولم يسم الذهب والفضة بالحجرين إلا وهو يريد أن يضع من أقدارهما، ومن فتنة الناس بهما، وقال لقيس بن عاصم: «إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت وما لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت، وما سوى ذلك فللوارث».

وقال النمر بن تولب:

وحثت على جمع ومنع ونفسها ... لها فى صروف الدهر حق كذوب
وكائن رأينا من كريم مرزأ ... أخى ثقة طلق اليدين وهوب
شهدت وفاتونى وكنت حسبتنى ... فقيراً إلى أن يشهدوا وتغيبى
أعاذل إن يصبح صداى بقفرة ... بعيداً نآنى صاحبى وقريبى
ترى إن ما أبقيت لم أك ربه ... وأن الذى أمضيت كان نصيبى
وذى إبل يسعى ويحسبها له ... أخى نصب فى رعيها ودؤوب
غدت وغدا رب سواه يسوقها ... وبدل أحجاراً وجال قليب

وقال أيضًا:

قامت تباكى أن سبأت لفتية ... زقًا وخابية بعود مقطع
وقريت فى مقرى قلائص أربعًا ... وقريت بعد قرى قلائص أربع

أتبكيا من كل شيء هين سفه بكاء العين ما لم تدمع
فإذا أتاني إخوتي فدعيهم يتعللوا بالعيش أو يلهوا معي
لا تطرديهم عن فراشي، إنه لابد يومًا أن سيخلو مضجعي
هلا سألت بعادياء وبيته والخيل والخمر لم تمنع

وقال الحارث بن حلزة:

بينا الفتى يسعى ويسعى له تاح له من أمره خالج
يترك ما رقح من عيشه يعبث فيه همج هامج
لا تكسع الشول بأغبارها إنك لا تدرى من الناتج

وقال الهذلى:

إن الكرام مناهبو ك المجد كلهم فناهب
أخلف وأتلف، كل شى ء، ذرعته الريح ذاهب

وقالت امرأة

أنت وهبت الفتية السلاهب وإبلاً يحار فيها الحالب
وغنمًا مثل الجراد الهارب متاع أيام، وكل ذاهب

وقال تميم بن مقبل:

فأخلف، وأتلف، وإنما المال عارة وكله مع الدهر الذى هو آكله

وقال أبو ذر: لك فى مالك شريكان، الوارث والحدثان.

وقال الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وجاء فى الأثر: إن أهل المعروف فى الدنيا أهل المعروف فى الآخرة. وفى المثل: اصنع الخير ولو إلى كلب. وقال فى الحث على القليل، فضلاً على الكثير، قال الله –جل ذكره–: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾. وقالت عائشة فى حبة عنبر: إن فيها لمثاقيل ذر. ولذلك قالوا فى المثل:

من حقر حرم. وقال سلم بن قتيبة: يستحى أحدهم من تقريب القليل من الطعام ويأتى أعظم منه. وقال: جهد المرء أكثر من عفوه. وقدم رسول الله -ﷺ-: **«جهد المقل على عفو المكثر، وإن كان مبلغ جهده قليلاً، ومبلغ عفو المكثر كثيراً»**. وقالوا: لا يمنعك من معروف صغره. وقال النبى -ﷺ-: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة»**. وقال: **«لا تردوا السائل ولو بظلف محرق»**. وقال: **«لا تردوه ولو بفرسن شاة»**. وقال: **«لا تحقروا اللقمة، فإنها تعود كالجبل العظيم، لقول الله جل ذكره: ﴿يمحق الله الربا ويربى الصدقات﴾**. وقال: **«لا تردوه ولو بصلة حبل»**.

وقالت العرب: أتاكم أخوكم يستتمكم، فأتموا له. وقالوا: مانع الإتمام ألأم. وقالوا: البخيل إن سأل ألحف وإن سئل سوّف. وقالوا: إن سئل جحد، وإن أعطى حقد. وقالوا: يرد قبل أن يسمع، ويغضب قبل أن يفهم. وقالوا: البخيل إذا سئل ارتز، وإذا سئل الجواد اهتز. وقال النبى -ﷺ-: **«ينادى كل يوم مناديان من السماء، يقول أحدهما: اللهم عجل لمنفق خلفًا. ويقول الآخر: اللهم عجل لمسك تلفًا»**. وقالوا: شر الثلاثة المليم، يمنع دره ودر غيره. وقال الله جل ذكره: **﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾**. وقالوا فى المثل: إذا ألجأه الدهر إلى بخيل: شر ما ألجأك إلى مخة عرقوب. وقال النبى -ﷺ-: **«قل العدل، واعط الفضل»**. وقال النبى -ﷺ-: **«أنهاكم عن عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات»**. وقال الله عز وجل: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا﴾**. وقال: **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**. وقال: **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**. وقالوا فى الصبر على النائبة، وفى عاقبة الصبر: عند الصباح يحمد القوم السرى. وقالوا: الغمرات ثم ينجلين.

وقال الخزيمى:

ودون الندى فى كل قلب ثنية ... لها مصعد حزن ومنحدر سهل
وود الفتى فى كل نيل ينيله ... إذا ما انقضى لو أن نائله جزل

وقالوا: خير الناس، خير الناس للناس، وشر الناس، شر الناس للناس. وقالوا: خير مالك ما نفعك. وقالوا: عجبًا لفرط الكبرة، مع شباب الرغبة!.

وقال الراجز:

كلنا يأمل مداً فى الأجل والمنايا هى آفات الأمل

وقال عبيد الله بن عكراش: زمن خؤون، ووارث شفون وكاسب حزون. فلا تأمن الخؤون، وكن وارث الشفون. وقال: يهرم ابن آدم ويشب معه خصلتان: الحرص والأمل.

وكانوا يعيبون من يأكل وحده، وقالوا: ما أكل ابن عمر وحده قط. وقالوا: ما أكل الحسن وحده قط. وسمع مجاشع الربعى قولهم: الشحيح أعذر من الظالم، فقال: أخزى الله أمرين خيرهما الشح. وقال بكر بن عبد الله المزنى: لو كان هذا المسجد مفعمًا بالرجال، ثم قيل لى: من خيرهم؟ لقلت: خيرهم لهم. وقال النبى -ﷺ-: «**ألا أنبئكم بشراركم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**من نزل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده**». وقالت امرأة عند جنازة رجل: أما والله ما كان مالك لبطنك، ولا أمرك لعرسك.

* * *

فلما بلغت الرسالة ابن التوأم، كره أن يجيب أبا العاص، لما فى ذلك من المناقشة والمباينة، وخاف أن يترقى الأمر إلى أكثر من ذلك. فكتب هذه وبعث بها إلى الثقفى.

رد ابن التوأم على أبى العاص الثقفى

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فقد بلغنى ما كان من ذكر أبى العاص لنا، وتنويهه بأسمائنا، وتشنيعه علينا. وليس يمنعنا من جوابه إلا لأنه إن أجابنا لم يكن جوابنا إياه على قوله الثانى، أحق بالترك من جوابنا له على قوله الأول. فإن نحن جعلنا لابتدائه جوابًا، وجعلنا لجوابه الثانى جوابًا، خرجنا إلى التهاتر وصرنا إلى التخاير. ومن خرج إلى ذلك فقد رضى باللجاج حظًا، وبالسخف نصيبًا.

وليس يحترس من أسباب اللجاج إلا من عرف أسباب البلوى. ومن وقاه الله سوء التكفى وسخفه، وعصمه من سوء التصميم ونكده، فقد اعتدلت طباعه، وتساوت خواطره ومن قامت أخلاطه على الاعتدال، وتكافأت خواطره فى الوزن، لم يعرف من الأعمال إلا الاقتصاد، ولم يجد أفعاله أبدًا إلا بين التقصير والإفراط، لأن الموزون لا يولد إلا موزونًا، كما أن المختلف لا يولد إلا مختلفًا.

فالمتتـابع لا يثنيه زجر، وليست له غـاية دون التلف. والمتكفى ليس له مأتى ولا جهة، ولا لـه رقية، ولا فيـه حيلة. وكل متلون في الأرض فمنحل الـعقد، ميسر لكل ريح.

فدع عنك خلطة الإمعة، فإنه حارض لا خيـر فيه، واجتنب ركوب الجموح فـإن غايتـه قـبل الذواق. ولا خـير في المتلـون ذى البدوات ولا في الحـرون ذى التصميـم. والمتلون شر من المصمم، إذ كنت لا تعرف له حالاً يقصـد إليها، ولا جهة يـعمل عليها. ولذلك صـار العاقل يخدع العاقل، ولا يخـدع الأحمق، لأن أبواب تدبير العاقل وحيله مـعروفة، وطرق خواطره مسلوكة، ومذاهبـه محصورة معـدودة، وليس لتدبير الأحـمق وحيله جهـة واحدة ومن أخطأها كذب. والخـبر الصادق عن الشيء الواحد واحد، والخـبر الكاذب عن الشيء الواحد لا يحصى له عدد، ولا يوقف منه على حد. والمصـمم قتله بالإجهاز والمتلون قـتله بالتعذيب. فإن قلنا، فليس إليـه نقصد، وإن احـججنا، فلسنا عليه نرد. ولكنا إليك نقـصد بالقول، وإليك نريد بالمشورة.

وقـد قالوا: احـفظ سـرك، فـإن سرك من دمك. وسـواء ذهاب نفسـك، وذهاب ما به يكون قـوام نفسك. قـال المنجاب العنبرى: ليس بـكبير مـا أصلحه المال. وفقد الشيء الذى به تصلح الأمور أعظم من الأمور. ولهذا قالوا في الإبل: لو لم يكن فيها إلا أنها رقـوء الدم. فالشيء الذى هو ثمن الإبل وغير الإبل أحق بالصون. وقد قضوا بأن حفظ المال أشد من جمعه.

ولذلك قال الشاعر:

وحفظـك مالاً قد عنـيت بجمـعه أشـد من الجـمع الذى أنت طالبـه

ولذلك قال مشترى الأرض لبائعها، حين قـال له البائع: دفعتها إليك بطيئة الإجابة، عظيمة المؤنة، قال: دفعتها إليك بطيئة الاجتماع، سريعة التفرق.

والدرهـم هو القطب الذى تدور عليـه رحى الدنيا. واعلم أن التـخلص من نزوان الدرهـم وتفلته والتـحرز من سكر الغنى، وتقلبه شـديد. فلو كان إذ تفلت، كان حارسه صحيح العـقل، سليم الجوارح، لرده في عقاله، ولشده بوثاق، ولكنا وجدنا ضعفه عن ضبطه، بقدر قلقه في يده.

ولا تغتـر بقولهم: مـال صامت، فـإنه أنطق من كل خطيب، وأنمّ من كل

نَّمام، فلا تكترث بقولهم: «هذين الحجرين» فتتوهم جمودهما وسكونهما، وقلة ظعنهما، وطول إقامتهما، فإن عملهما، وهما ساكنان، ونقضهما للطبائع، وهما ثابتان، أكثر من صنيع السم الناقع، والسبع العادى. فإن كنت لا تكتفى بصنعه حتى تفقده، ولا تحتال فيه حتى تحتال له، فالقبر خير لك من الفقر، والسجن خير لك من الذل.

وقولى هذا مر يعقب حلاوة الأبد، وقول أبى العاص، حلو يعقب مرارة الأبد. فخذ لنفسك بالثقة، ولا ترض أن يكون الحرباء الراكب العود أحزم منك، فإن الشاعر يقول:

أنى أتيح لها حرباء تنضبة لا يرسل الساق إلا ممسكًا ساقا

واحذر أن تخرج من مالك درهمًا، حتى ترى مكانه خيرًا منه، ولا تنظر إلى كثرته، فإن رمل عالج لو أخذ منه ولم يرد عليه، لذهب عن آخره.

إن القوم قد أكثروا فى ذكر الجود وتفضيله، وفى ذكر الكرم وتشريفه، وسموا السرف جودًا، وجعلوه كرمًا، وكيف يكون كذلك وهو نتاج ما بين الضعف والنفج؟ وكيف، والعطاء لا يكون سرفًا إلا بعد مجاوزة الحق، وليس وراء الحق إلى الباطل كرم.

وإذا كان الباطل كرمًا كان الحق لؤمًا. والسرف -حفظك الله- معصية وإذا كانت معصية الله كرمًا، كانت طاعته لؤمًا. ولئن جمعهما اسم واحد، وشملهما حكم واحد. ومضادة الحق للباطل، كمضادة الصدق للكذب، والوفاء للغدر، والجور للعدل والعلم للجهل. ليجمعن هذه الخصال اسم واحد، وليشملنها حكم واحد.

وقد وجدنا الله عاب السرف، وعاب الحمية، وعاب المعصية. ووجدناه قد خص السرف بما لم يخص به الحمية، لأنه ليس حب المرء لرهطه من العصبية، ولا أنفته من الضيم من حمية الجاهلية.

إنما المعصية ما جاوز الحق، والحمية المعيبة ما تعدى القصد. فوجدنا اسم الأنفة قد يقع محمودًا ومذمومًا، وما وجدنا اسم المعصية، ولا اسم السرف يقع أبدًا إلا مذمومًا.

وإنما يسر باسم السرف جاهل لا علم له، أو رجل إنما يسر به لأن أحدًا لا

يسميه مسرفًا حتى يكون عنده قد جاوز حد الجود، وحكم له بالحق، ثم أردفه بالباطل، فإن سر من غير هذا الوجه، فقد شارك المادح فى الخطأ، وشاكله فى وضع الشيء فى غير موضعه.

وقد أكثروا فى ذكر الكرم. وما الكرم إلا كبعض الخصال المحمودة التى لم يعلمها بعض الذم. وليس شيء يخلو من بعض النقص والوهن. وقد زعم الأولون أن الكرم يسبب الغباء، وأن الغباء يسبب البله، وأنه ليس وراء البله إلا العته. وقد حكوا عن كسرى أنه قال:

«احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع». وسواء جاع فظلم وأحقظ وعسف، أم جاع وكذب وضرع وأسف. وسواء جاع فظلم غيره أم جاع فظلم نفسه.

والظلم لؤم، وإن كان الظلم ليس بلؤم فالإنصاف ليس بكرم، وإن كان الجود على من لا يستحق الجود كرمًا، فالجود لمن وجب له ذلك ليس بكرم. فالجود إذا كان لله كان شكراً له، والشكر كرم. فكيف يكون الجود إذا كان معصية كرمًا. وكيف يتكرم من يتوصل بأياديك إلى معصيتك؟ وبنعمك إلى سخطك؟ فليس الكرم إلا الطاعة. وليس اللؤم إلا المعصية، وليس بجود ما جاوز الحق، وليس بكرم ما خالف الشكر. ولئن كان مجاوز الحق ـرـبـ، ليكونن المقصر دونه كريمًا.

فإن قضيتم بقول العامة، فالعامة ليست بقدوة. وكيف يكون قدوة من لا ينظر ولا يحصل، ولا يفكر ولا يمثل؟ وإن قضيتم بأقاويل الشعراء، وما كان عليه أهل الجاهلية الجهلاء، فما قبحوه مما لا يشك فى حسنه، أكثر من أن نقف عليه، أو نتشاغل باستقصائه.

على أنه ليس بجود إلا ما أوجب الشكر، كما أنه ليس ببخل إلا ما أوجب اللؤم. ولن تكون العطية نعمة على المعطى، حتى تراود بها نفس ذلك المعطى ولن يجب عليه الشكر إلا مع شريطة القصد.

وكل من كان جوده إليه، ولولا رجوعه إليه لما جاد عليك، ولو تهيأ له ذلك المعنى فى سواك لما قصد إليك، فإنما جعلك معبراً لدرك حاجته، ومركبًا لبلوغ محبته. ولولا بعض القول، لوجب لك عليه حق يجب به الشكر. فليس يجب

لمن كذلك شكر، وإن انتفعت بذلك منه، إذ كان لنفسه عمل، لأنه لو تهيأ له ذلك النفع فى غيرك، لما تخطاه إليك.

وإنما يوصف بالجود فى الحقيقة، ويشكر على النفع فى حجة العقل، الذى إن جاد عليك، فلك جاد، ونفعك أراد، من غير أن يرجع إليك جوده بشىء من المنافع، على جهة من الجهات، وهو الله وحده لا شريك له.

فإن شكرنا للناس على بعض ما قد جرى لنا على أيديهم، فإنما هو لأمرين أحدهما، التعبد، وقد نعبد الله بتعظيم الوالدين، وإن كانا شيطانين، وتعظيم من هو أسن منا، وإن كنا أفضل منه. والآخر، لأن النفس ما لم تحصل الأمور وتميز المعانى، فالسابق إليها حب من جرى لها على يد خير، وإن كان لم يردها، ولم يقصد إليها.

ووجدنا عطية الرجل لصاحبه لا تخلو أن تكون لله، أو لغير الله. فإن كانت لله، فثوابه على الله. وكيف يجب علىّ فى حجة العقل شكره، وهو لو صادف ابن سبيل غيرى لما حملنى ولا أعطانى؟. وإما أن يكون إعطاؤه إياى للذكر. فإذا كان الأمر كذلك، فإنما جعلنى سلمًا إلى تجارته، وسببًا إلى بغيته، أو يكون إعطاؤه إياى من طريق الرحمة والرقة، ولما يجد فى فؤاده الغصة والألم فإن كان لذلك أعطى، فإنما داوى نفسه من دائه، وكان كالذى رفه من خناقه.

وإن كان إنما أعطانى على طلب المجازات وحب المكافأة، فأمر هذا معروف. وإن كان إنما أعطانى من خوف يدى أو لسانى، أو اجترار معونتى ونصرتى، فسبيله سبيل جميع ما وصفنا وفصلنا.

فلاسم الجود موضعان:

أحدهما حقيقة، والآخر مجاز. فالحقيقة ما كان من الله، والمجاز المشتق له من هذا الاسم. وما كان الله كان ممدوحًا وكان لله طاعة. فإذا لم تكن العطية من الله ولا لله، فليس يجوز هذا فيما سموه جودًا، فما ظنك بما سموه سرفًا؟

افهم ما أنا مورده عليك، وواصفه لك: أن التربح والتكسب والاستئكال بالخديعة والطعم الخبيثة غالبة، ومستفيضة ظاهرة. على أن كثيرًا ممن يضاف إلى النزاهة والتكرم، وإلى الصيانة والتوقى، ليأخذ من ذلك بنصيب وافر، وبمد واف. فما ظنك بدهماء الناس وجمهورهم؟ بل ما ظنك بالشعراء والخطباء الذين إنما

تعلموا المنطق لصناعة التكسب؟ وهؤلاء قوم بودهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حد السلامة أو الغفلة، حتى لا يكون للأموال حارس، ولا دونها مانع.

فاحذرهم، ولا تنظر إلى بزة أحدهم، فإن المسكين أقنع منه. ولا تنظر إلى مركبه، فإن السائل أعف منه. واعلم أنه فى مسك مسكين، وإن كان فى ثياب جواد، وروحه روح نذل، وإن كان فى جرم ملك. وكلهم، وإن اختلفت وجوه مسألتهم، واختلفت أقدار مطالبهم، فهو مسكين. إلا أن واحداً يطلب العلق، وآخر يطلب الخرق، وآخر يطلب الدوانيق، وآخر يطلب الألوف. فجهة هذا هى جهة هذا وطعمة هذا هى طعمة هذا.

وإنما يختلفون فى أقدار ما يطلبون، على قدر الحذق والسبب.

فاحذر رقاهم وما نصبوا لك الشرك، واحرس نعمتك وما دسوا لها من الدواهى، واعمل على أن سحرهم يسترق الذهن، ويختطف البصر. قال رسول الله -ﷺ-: **«إن من البيان لسحراً»**. وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يتكلم فى حاجة فقال: هذا والله السحر الحلال. وقد قال رسول الله -ﷺ-: **«لا خلابة»**، واحذر احتمال مديحهم، فإن محتمل المديح فى وجهه، كمادح نفسه.

إن مالك لا يسع مريديه، ولا يبلغ رضا طالبيه. ولو أرضيتهم بإسخاط مثلهم، لكان ذلك خسراناً مبيناً. فكيف ومن يسخط أضعاف من يرضى؟ وهجاء الساخط أضر من فقد مديح الراضى. وعلى أنهم إذا اعتوروك بمشاقصهم، وتداولوك بسهامهم، لم تر ممن أرضيته بإسخاطهم أحداً يناضل عنك، ولا يهاجى شاعراً دونك. بل يخليك غرضاً لسهامهم ودريئة لنبالهم. ثم يقول: وما كان عليه لو أرضاهم! فكيف يرضيهم ورضا الجميع شىء لا ينال؟ وقد قال الأول: وكيف يتفق رضا المختلفين؟ وقالوا: منع الجميع أرضى للجميع.

إنى أحذرك مصارع المخدوعين، وأرفعك عن مضاجع المغبونين. إنك لست كمن لم يزل يقاسى تعذر الأمور، ويتجرع مرارة العيش، ويتحمل ثقل الكد ويشرب بكأس الذل، حتى كاد يمرن على ذلك جلده، ويسكن عليه قلبه. وفقر مثلك مضاعف الألم، وجزع من لم يعرف الألم أشد، ومن لم يزل فقيراً فهو لا يعرف الشامتين، ولا يدخله المكروه من سرور الحاسدين، ولا يلام على فقره، ولا يصير موعظة لغيره، وحديثاً يبقى ذكره، ويلعنه بعد الممات ولده.

ودعنى من حكايات المستأكلين، ورقى الخادعين فما زال الناس يحفظون أموالهم من مواقع السرف، ويخبئونها من وجوه التبذير. ودعنى مما لا نراه إلا فى الأشعار المتكلفة، والأخبار المولدة، والكتب الموضوعة، فقد قال بعض أهل زماننا: ذهبت المكارم إلا من الكتب!

فخذ فيما تعلم، ودع نفسك مما لا تعلم. هل رأيت أحدًا قط أنفق ماله على قوم كان غناهم سبب فقره أنه سلم عليهم حين افتقر، «فردوا عليه». فضلاً على غير ذلك؟ أولست قد رأيتهم بين محمق، ومحتجب عنه، وبين من يقول فهلا أنزل حاجته بفلان الذى كان يفضله ويقدمه ويؤثره ويخصه؟ ثم لعل بعضهم أن يتجنى عليه ذنوبًا، ليجعلها عذرًا فى منعه وسببًا إلى حرمانه. قال جل ذكره: **﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾**.

فأنا القائم عليك بالموعظة والزجر، والأمر والنهى، وأنت سالم العقل والعرض، وافر المال، حسن الحال، فاتق أن أقوم غدًا على رأسك بالتقريع والتعيير، والتوبيخ والتأنيب، وأنت عليل القلب، مختل العرض عديم من المال، سيء الحال.

ليس جهد البلاء مد الأعناق، وانتظار وقع السيوف، لأن الوقت قصير، والحس مغمور ولكن جهد البلاء أن تظهر الخلة وتطول المدة، وتعجز الحيلة: ثم لا تعدم صديقًا مؤنبًا، وابن عم شامتًا، وجارًا حاسرًا، ووليًا قد تحول عدوًا، وزوجة مختلعة، وجارية مستبيعة، وعبدًا يحقرك، وولدًا ينتهرك.

فانظر أين موقع فوت الثناء، من موقع ما عددنا عليك من البلاء؟ على أن الثناء طعم، ولعلك ألا تطعمه، والحمد أرزاق، ولعلك ألا تحرمه.

وما يضيع من إحسان الناس أكثر وعلى أن الحفظ قد ذهب بموت أهله ألا ترى أن الشعر لما كسد أفحم أهله، لما دخل النقص على كل شيء أخذ الشعر منه بنصيبه، ولما تحولت الدولة فى العجم، والعجم لا تحوط الأنساب ولا تحفظ المقامات، لأن من كان فى الريف والكفاية، وكان مغمورًا بسكر الغنى، كثر نسيانه، وقلت خواطره. ومن احتاج تحركت همته، وكثر تنقيره.

وعيب الغنى أنه يورث البلادة. وفضيلة الفقر أنه يبعث الفكر. وإن أنت

صحبت الغنى بإهمال النفس، أسكرك الغنى وسكر الغنى سـبة المستأكلين، وتهمة الخداعين، وإن كانت لا ترضى بحظ النائم، وبعيش البهائم. وأحببت أن تجمع مع تمام نفس المثـرى، ومع عز الغنى وسـرور القدرة. فطنة المخف، وخـواطر المقل، ومعرفـة الهارب واستدلال الطالب اقتـصدت فى الإنفاق، وكنت معداً للحدثان، محترسًا من كل خداع.

لست تبلغ حيل لصوص النهار، وحـيل سراق الليل، وحيل طراق البلدان، وحـيل أصحـاب الكيـمـياء وحـيل التـجـار فى الأسواق، والصناع فـى جمـيع الصناعات، وحيل أصحاب الحروب وحيل المستأكلين والمتكسبين.

ولو جمعت الخـبر والسحر والتمائم والسم، لـكانت حيلهم فى الناس أشد تغلغلاً، وأعـرض، وأسرى فى عمق البـدن، وأدخل إلى سويداء القلب، وإلى أم الدماغ، وإلى صميم الكبد.

ولهى أدق مـسلكًا، وأبعـد غاية من العـرق السـارى، والشبـه النازع، ولو اتخذت الحيطان الرفـيعة الثخينة، والأقـفال المحكمة الوثيقـة، ولو اتخذت المارق والجـواسق، والأبواب الشـداد، والحـرس المتناوبين بـأغلظ المؤن، وأشـد الكلف وتركت التقدم فيما هو أحضر ضرراً وأدوم شرًا، ولا غرم عليك فى الحراسة فيه، ولا مشقة عليك فى التحفظ منه.

إنك إن فتحت لـهم على نفسك مثل سم الخيـاط جعلوا فيه طريقًـا نهجًا، ولقى رحبًـا. فاحكم بابك، بل أدم إصفـاقه، فهـو أولى بك. بل إن قدرت على مصمت لا حيلة فيه، فذلك أشبه بحزمك.

ولو جعلت الباب مـبهمًا والقفل مـصمتًا، لتسـوروا عليك من فوقك. ولو رفعت سمـكه إلى العيوق لنقبـوا عليك من تحتك. قال أبو الدرداء: نعم صـومعة المؤمن بيته. وقال ابن سيرين: العزلة عبادة.

وحلاوة حـديثهم تدعو إلى الاستكثـار منهم بل تدعو إلى إحضـار غرائب شهواتهم، فمن ذلك قـول بعضهم لبعض أصحابه: أكل رِخلة، وشـرب مشعلاً، ثم تجشأ واحدة، لو أن عليها رحى لطحنت!

ومن ذلك قول لآخـر، حين دخل على قوم وهم يشربون، وعندهم قـيان، فقالوا: اقترح أى صوت شئت، قال: أقترح نشيش مقلى!

ومن ذلك قول المدينى: من تصبح بسبع موزات، ويقدح من لبن الأوارك تجشأ بخور الكعبة.

ومن ذلك قولهم لبعض هؤلاء وقدامهم خبيص: أيما أطيب: هذا أو الفالوذج أو اللوزينج؟ قال: لا أقضى على غائب.

ومن ذلك كلام الجارود بن أبى سبرة، لبلال بن أبى بردة، حين قال له: صف لى عبد الأعلى وطعامه. قال: يأتيه الخباز فيمثل بين يديه، فيقول: ما عندك؟ فيقول: عندى جدى كذا، وعناق كذا، وبطة كذا، حتى يأتى على جميع ما عنده. قال: وما يدعوه إلى هذا؟ قال: ليقتصر كل امرئ فى الأكل، حتى إذا أتى بالذى يشتهى، بلغ منه حاجته. قال: ثم ماذا؟ قال: ثم يؤتى بالمائدة فيتسعون ويتضايق ويجدون ويعذّر، حتى إذا فتروا خوّى تخوية الظليم، وأكل أكل الجائع المقرور.

وقال آخر: أشتهى ثريدة دكناء من الفلفل، ورقطاء من الحمص ذات حفافين من اللحم، لها جناحان من العراق، أضرب فيها كما يضرب ولى السوء فى مال اليتيم.

وسئل بعضهم عن حظوظ البلدان فى الطعام، وما قسم لكل قوم منه، فقال: ذهبت الروم بالحسو والحشو وذهبت فارس بالبارد والحلو. وقال عمر: لفارس الشفارق والحموض. وقال دوسر المدينى: لنا الهرائس والقلايا، ولأهل البدو اللبأ والسلاء، والجراد والكمأة، والخبزة فى الرائب، والتمر بالزبد.

وقد قال الشاعر:

ألا ليت خبزاً قد تسربل رائبًا ... وخيلاً من البرنى فرسانها الزبد

ولهم البريقة والخلاصة والحيس والوطيئة.

وقال أعرابى: أتينا ببرٍّ كأفواه النغران، فخبزنا منه خبزة زيت فى النار، فجعل الجمر يتحدر عنها تحدر الحشو عن البطنان، ثم ثردناها، فجعل الثريد يجول فى الأهالة جولان الضبعان فى الضفرة. ثم أتانا بتمر كأعناق الورلان، يوحل فيه الضرس.

وعيب السويق بحضرة أعرابى فقال: لا تعبه، فإنه من عدد المسافر، وطعام

العــجــلان، وغــذاء المبكر. وبلغــة المريض، ويســر فــؤاد الحــزين ويرد من نفس المحدود. وجيد فى الـتسمين ومنعوت فى الطيب، قفاره يجلو البلغــم، ومسمونه يصفى الدم إن شئت كان ثــريدًا، وإن شئت كان خبيصًا، وإن شــئت كان طعامًا، وإن شئت كان شرابًا.

وقيل لبعض هؤلاء اللعامظة والمستأكلين والسـفافين والمفقعين، ورئى سمينًا: ما أسمنك؟ قــال: أكلى الحار، وشربى القار، والاتكاء على شــمالى، وأكلى من غير مالى.

وقد قال الشاعر:

إن امـتلاء البطن فى حـسب الغنى قليل الغناء وهو فى الجـسم صالح

وقال الحجاج للغضـبان بن القبعثرى: ما أسمنك؟ قــال: القيد والرتعة ومن كان فى ضيافة الأمير سمن.

وقيل لآخــر: إنك لحسن الـسحنة. قــال: آكل لباب البــر، وصغار المـعز، وأدهن بخام البنفسج، وألبس الكتان.

وقــيل لآخر: مــا أسمنك؟ قــال: قلة الفكرة، وطول الدعــة، والنوم على الكظَّة.

والله لو كــان من يســأل يعطى، لما قــام كرم العطـية بلؤم المســألة، ومـدار الصواب على طيب المكسبة، والاقتصــاد فى النفقة. وقد قال بعض العرب: اللهم إنى أعوذ بك من بعض الرزق، حين رأى نافجة من ماله من صداق أمه.

وأى سائل كــان ألحف مسألة من الخطيئــة ولا ألأمَ؟ ومَنْ ألأمَ من جرير بن الخطفى وأبخل؟ ومن أمنع من كثير؟ وأشح من ابن هرمة؟ ومن كان يشق غبار بن أبى حفصــة؟ ومن كان يصطلى بنار أبى العتاهيــة؟ ومن كأبى نواس فى بخله؟ أو كان كأبى يعقوب الخزيمى فى دقة نظره وكثــرة كسبه؟ ومن كان أكثر نحرًا لجزرة لم تخلق من ابن هرمة، وأطعن برمح لم ينبت، وأطعم لـطعام لم يزرع من الخزيمى؟ فــأين أنت عن ابن يسيــر؟ وأين تذهب عن ابن أبى كــريمة؟ ولم تقـصر فى ذكــر الرقاشى ومن لم يذكر شره؟.

إن الأعرابى شر من الحاضر، سائــل جبار، وثابة ملاق، إن مدح كذب وإن

هجا كذب، وإن أيس كذب، وإن طمع كذب لا يقربه إلا نطف أو أحمق ولا يعطيه إلا من يحبه، ولا يحبه إلا من هو فى طباعه.

ما أبطأكم عن البذل فى الحق! وأسرعكم إلى البذل فى الباطل! فإن كنتم الشعراء تفضلون، وإلى قولهم ترجعون، فقد قال الشاعر:

قليل المال تصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير على الفساد

وقد قال الشماخ بن ضرار:

لمال المرء يصلحه فيغنى ... مفاقره أعف من القنوع

وقال أحيحة بن الجلاح:

استغن أو مت ولا يغررك ذو نسب ... من ابن عم ولا عم ولا خال
إنى أكب على الزوراء أعمرها ... إن الكريم على الأقوام ذو المال

وقال أيضًا:

استغن عن كل ذى قربى وذى رحم ... إن الغنى من استغنى عن الناس
والبس عدوك فى رفق وفى دعة ... لباس ذى اربة للدهر لباس
ولا تغرنك أضغان مزملة ... قد يضرب الدبر الدامى بإحلاس

وقال سهل بن هارون:

إذا امرؤ ضاق عنى لم يضق خلقى ... من أن يرانى غنيًا عنه باليأس
فلا يرانى إذا لم يرع آصرتى ... مستمريًا درراً منه بإبساس
لا أطلب المال كى أغنى بفضلته ... ما كان مطلبه فقراً إلى الناس

وقال أبو العتاهية:

أنت ما استغنيت عن صا ... حبك الدهر أخوه
فإذا احتجت إليه ... ساعة مجك فوه

وقال أحيحة بن الجلاح:

فلو أنى أشاء نعمت بالاً ... وباكرنى صبوح أو نشيل
ولاعبنى على الأنماط لعس ... على أنيابهن الزنجبيل

ولـكـنـى خـلـقـت إذاً لمـالٍ ... فـأبـخل بعـد ذلـك أو أنيل

وقال آخر:

أبا مصلح أصلح ولا تك مفسداً ... فإن صـلاح المال خيـر من الفـقر
ألم تـر أن المرء يـزداد عـــزة ... على قومه أن يعلموا أنه مثرى؟

وقال عروة بن الورد:

ذرينى لـلغنى أسـعـى فـإنى ... رأيت الناس شـرهم الفـقيـر
وأبعـدهم وأهونهم عليـهم ... وإن أمـسـى له نسب وخـيـر
ويقـصـيـه الـندى وتزدريه ... حليلـته وينهـره الصـغـيـر
وتلقـى ذا الغنى ولـه جـلال ... يكاد فـؤاد صاحـبه يـطير
قلـيل ذنبـــه والذنـب جم ... ولكـن الغنى رب غـفـــور

وقال سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل:

تلك عرسـان تنطقان على عـمد ... لى الـيـوم قـول زور وهتـــر
سـألتـانى الـطلاق إن رأتا مـالى ... قليـلاً - قـد جـئـتـمـانى بنكر
فلـعلى أن يـكثـــر المال عـندى ... ويعـــرى من المـغـــارم ظهـــرى
ويـــرى أعــبـــد لـــنا وأواق ... ومناصـيـف من خـوادم عـــشـر
وتجـراً الأذيال فى نعـمـة زول ... تقـــولان: ضع عـــصـــاك لدهر
ويكأن من يكن له نشب يحبب، ... ومن يفـتـقـر يـعش عـيش ضـر
ويجـنـب ســـــر الـنجى ولـكن ... أخـا المال مـحـضـر كل ســر

وقال الآخر:

وللمـال منى جـانب لا أضـيعـه ... وللهـــو مـنى والبطـالة جـانب

وقال الأخنس بن شهاب:

وقد عشت دهراً والغواة صحابتى ... أولئك إخـوانى الـذين أصـاحـب
فأديت عنى ما استعرت من الصبا ... وللمـال منى اليـوم راع وكـاسب

وقال ابن أذينة الثقفى:

أطعت النفس فى الشهوات حتى أعادتنى عسيفًا عند عبد
إذا ما جئتها قد بعت عذقًا تعانق أو تقبل أو تفدى
فمن وجد الغنى فليصطنعه ذخيرته ويجهد كل جهد

وقال:

من يجمع المال ولا يشب به ويترك العام لعام جدبه
يهن على الناس هوان كلبه

وقد قيل فى المثل: الكد قبل المد. وقال لقيط: الغزو أدر للقاح، وأحدّ للسلاح.

وقال ابن المعافى:

إن التوانى أنكح العجز بنته وساق إليها حين زوجها مهراً
فراشًا وطيئًا. ثم قال لها: اتكى فقصر كما -لابد- أن تلدا الفقرا

وقال عثمان بن أبى العاص: ساعة لدنياك، وساعة لآخرتك، وقال رسول الله -ﷺ-: **«أنهاكم عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»**.

وقال: **«خير الصدقة ما أبقى غنى، واليد العليا خير من السفلى، وابدأ بمن تعول»**. وقال النبى -ﷺ-: **«الثلث والثلث كثير، إنك إن تدع ولدك أغنياء، خير من أن يتكففوا الناس»**. وقال ابن عباس: وددت أن الناس غضوا من الثلث شيئًا، لقول النبى -ﷺ-: **«الثلث والثلث كثير»**. وقال النبى -ﷺ-: **«كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت»**.

وأنتم ترون أن المجد والكرم أن أفقر نفسى بإغناء غيرى، وأن أحوط عيال غيرى بإضاعة عيالى!

وقال فى ذلك ابن هرمة:

كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا

وقال آخر:

كمـفسـد أدناه ومصلح غـيره ولم يأتمر فى ذاك أمـر صـلاح

وقال الآخر:

كمرضعـة أولاد أخرى وضيعت بنيـهـا ولم ترفع بذلك مـرقـعـا

وقــال الله تبــارك وتعــالى: ﴿ولا تبذر تبذيراً، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾. وقال: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون، قل العفو﴾. فأذن فى العفو ولم يأذن فى الجهد، وأذن فى الفضول ولم يأذن فى الأصول.

وأراد كعب بـن مالك أن يتصـدق بماله. فقـال له النبى -ﷺ-: «أمسك عليك مالك». فالنبى -ﷺ- يمنعه من إخراج ماله فى الصدقة، وأنتم تأمرونه فى السرف والتـبذير! وخـرج غيلان بـن سلمة من جمـيع ماله، فـأكرهه عـمر على الرجوع فيه، وقال: لو مت لرجمت قبرك كما يرجم قبر أبى رغال.

وقال الله -عز وجل-: ﴿لينفق ذو سعة من سعته. ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ وقـال النبى -ﷺ-: «يكفـيك مـا بلغك المحل» وقـال الله: (مـا قل وكفى، خيـر مما كثر وألهى)[1]. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواماً﴾. وقال النبى -ﷺ-: «إن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى». وقال الله عز ذكره: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾.

ولذلك قالوا: خـير مالك ما نفـعك، وخير الأمـور أوساطها، وشر السـير الحقحقـة، والحسنة بين السيئتين. وقالوا: دين الله بين المقـصر والغالى. وقالوا فى المثل: بينهـما يرمى الرامى، وقالوا: عليك بـالسداد والاقتـصاد، ولا وكس، ولا شطط. وقـالوا: بين الممخـة والعجفـاء. وقالوا: لا تكن حـلواً فتبـتلع، ولا مراً فتلفظ. وقـالوا فى المثل: ليس الرى عن التـشاف. وقالوا: يا عـاقد أذكـر حلاً. وقالوا: الرشف أنقع للظمآن. وقالوا: القليل الدائم أكثر من الكثير المنقطع. وقال أبو الدرداء: إنى لأستجم نفسى ببعض الباطل، كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها.

وقال الشاعر:

وإنى لحلـو تعـتــريـنى مــرارة وإنى لصعب الراس غيـر جموح

(١) هكذا فى الأصل: وقال الله (ما قل وكفى خيرٌ مما كثر وألهى)، وهى ليست بآية، ولكنها حكمة مأثورة.

وقالوا فى عذل المصلح ولائمة المقتصد: الشحيح أعذر من الظالم. وقالوا: ليس من العدل سرعة العذل. وقالوا: لعل له عذرًا وأنت تلوم.

وقالوا: رب لائم مليم، وقال الأحنف: رب ملوم لا ذنب له. وقال: إعطاء السائل تضرية، وإعطاء الملحف مشاركة. وقال النبى -ﷺ-: «**لا تصلح المسألة إلا فى ثلاث: فقر مدقع، وغرم مفظع، ودم موجع**».

وقال الشاعر:

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف غير الرد

وقالوا: إذا جد السؤال، جد المنع. وقالوا: احذر إعطاء المخدوعين، وبذل المغبونين، فإن المغبون لا محمود ولا مأجور. ولذلك قالوا: لا تكن أدنى العيرين إلى السهم، يقول: إذا أعطيت السائلين مالك، صارت مقاتلك أظهر لأعدائك من مقاتلهم. وقالوا: الفرار بقراب أكيس. وقال أبو الأسود: ليس من العز أن تتعرض للذل، ولا من الكرم أن تستدعى اللؤم.

ومن أخرج ماله من يده افتقر، ومن افتقر فلابد له من أن يضرع والضرع لؤم. وإن كان الجود شقيق الكرم، فالأنفة أولى بالكرم. وقد قال الأول: اللهم لا تثر لى ماء سوء، فأكون أمرءًا سوء.

وقد قال الشاعر:

واخط مع الدهر إذا ما خطا واجر مع الدهر كما يجرى

وقد قال الآخر:

يا ليت لى نعلين من جلد الضبع وشركا من ثغرها لا تنقطع
كل الحذاء يحتذى الحافى الوقع

وقد صدق قول القائل: من احتاج اغتفر، ومن اقتضى تجوز. وقيل لريسيموس: تأكل فى السوق؟ قال: إن جاع «ريسيموس» فى السوق أكل فى السوق. وقال: من أجدب انتجع، ومن جاع جشع. وقال: احذروا نفار النعمة، فإنها نوار، وليس كل شارد بمردود، ولا كل ناد بمصرود. وقال علىّ بن أبى طالب: «قلما أدبر شىء فأقبل» وقالوا: رب أكلة تمنع أكلات، ورب عجلة تهب ريثًا. وعابوا من قال: أكلة وموتة. وقالوا: لا تطلب أثرًا بعد عين. وقالوا: لا

تكن .كمن تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن فانظر كيف تخرج الدرهم؟ ولم تخرجه؟ وقالوا: شر من المرزئة سوء الخلف.

وقال الشاعر:

إن يكن ما به أصبت جليلاً فذهاب العزاء فيه أجل

ولأن تفتقر بجائحة نازلة، خير لك من أن تفتقر بجناية مكتسبة. ومن كان سببًا لذهاب وفره، لم تعدمه الحسرة من نفسه، واللائمة من غيره، وقلة الرحمة، وكثرة الشماتة، مع الإثم الموبق، والهوان على الصاحب. وذكر عمر بن الخطاب فتيان قريش، وسرفهم فى الإنفاق، ومسابقتهم فى التبذير، فقال: لحرفة أحدهم أشد على من عيلته. يقول: إن إغناء الفقير، أهون علىَّ من إصلاح الفاسد.

ولا تكن على نفسك أشأم من خوتعة، وعلى أهلك أشأم من البسوس، وعلى قومك أشأم من عطر منشم. ومن سلط الشهوات على ماله، وحكم الهوى فى ذات يده، فبقى حسيراً فلا يلومن إلا نفسه. وطوبى لك يوم تقدر على قديم تنتفع به.

وقال بعض الشعراء:

أرى كل قوم يمنعون حريمهم وليس لأصحاب النبيذ حريم
أخوهم إذا ما دارت الكأس بينهم وكلهم رث الوصال سؤوم
فهذا بيانى، لم أقل بجهالة ولكننى بالفاسقين عليم

وقد كان هذا المعنى فى أصحاب النبيذ أوجد. فأما اليوم فقد استوى الناس. قال الأضبط بن قريع، لما انتقل فى القبائل فأساءوا جواره، بعد أن تأذى ببنى سعد: بكل واد بنو سعد.

خذ بقولى، ودع قول أبى العاص. وخذ بقول من قال: عش ولا تغتر، وبقول من قال: لا تطلب أثرًا بعد عين، وبقول من قال: املأ حبك من أول مطرة، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك، أخوك من صدقك، ومن أتاك من جهة عقلك، ولم يأتك من جهة شهوتك، وأخوك من احتمل ثقل نصيحتك فى حظك، ولم تأمن لائمته إياك فى غدك.

وقال الآخر:

إن أخاك الصدق من لم يخدعك ومن يضير نفسه لينفعك

وقال عبيد بن الأبرص:

واعلمن علمًا يقينًا أنه ليس يرجى لك من ليس معك

ولا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك، وعين من عقلك على طباعك، أو ما كان لك أخ نصيح، ووزير شفيق. والزوجة الصالحة عون صدق. والسعيد من وعظ بغيره. فإن أنت لم ترزق من هذه الخصال خصلة واحدة، فلابد لك من نكبة موجعة، يبقى أثرها، ويلوح لك ذكرها. ولذلك قالوا: خير مالك ما نفعك. ولذلك قالوا: لم يذهب من مالك ما وعظك.

إن المال محروص عليه، ومطلوب فى قعر البحار، وفى رءوس الجبال، وفى دغل الغياض، ومطلوب فى الوعورة، كما يطلب فى السهولة، وسواء فيها بطون الأودية، وظهور الطرق، ومشارق الأرض ومغاربها، فطلبت بالعز، وطلبت بالذل، وطلبت بالوفاء، وطلبت بالغدر، وطلبت بالنسك. كما طلبت بالفتك، وطلبت بالصدق، كما طلبت بالبذاء، وطلبت بالنسك. كما طلبت بالفتك، وطلبت بالصدق، كما طلبت بالبذاء، وطلبت بالملق. فلم تترك فيها حيلة ولا رقية، حتى طلبت بالكفر بالله، كما طلبت بالإيمان، وطلبت بالسخف، كما طلبت بالنبل، فقد نصبوا الفخاخ بكل موضع، ونصبوا الشرك بكل ربع، وقد طلبك من لا يقصر دون الظفر، وحسدك من لا ينام دون الشفاء.

وقد يهدأ الطالب الطوائل، والمطلوب بذات نفسه، ولا يهدأ الحريص.

يقال: إنه ليس فى الأرض بلدة واسطة، ولا نائية شاسعة، ولا طرف من الأطراف، إلا وأنت واجد بها المدينى والبصرى والحيرى، وقد ترى شَنَف الفقراء للأغنياء، وتسرُّع الرغبة إلى الملوك، وبغض الماشى للراكب، وعموم الحسد فى المتفاوتين. فإن لم تستعمل الحذَر، وتأخذ بنصيبك من المداراة، وتتعلم الحزم وتجالس أصحاب الاقتصاد، وتعرّف الدهور ودهرك خاصة، وتمثّل لنفسك الغيرَ حتى تتوهم نفسك فقيراً ضائعًا، وحتى تتهم شمالك على يمينك، وسمعك على بصرك، ولا يكون أحد أتهم عند نفسك من ثقتك، ولا أولى بأخذ الحذر منه من أمينك، اختطفت اختطافًا واستلبت استلابًا، وذوبُّوا مالك وتحيَّفوه، وألزموه السل ولم يداووه.

وقد قالوا: تلىَّ المال ربه وإن كان أحمق، فلا تكونَّن دون ذلك الأحمق. وقالوا: لا تعدم امرأة صَناع ثلة، فلا تكونن دون تلك المرأة.

وقد قال الأول فى المال المضيَّع المسلط عليه شهوات العيال: ليس لها راع ولكن خليَّة.

وليس مالك المال المعفى من الأضراس، فيقال فيه: مرعىً ولا أكولة، وعشب ولا بعير. فقصاراك مع الإصلاح أن يقوم بملء بطنك وبحقائقك، وبما ينوبك. ولا بقاء للمال على قلة الرعى وكثرة الحلب.

فكر فى أمرك، وتقدم فى حفظ مالك، فإن من حفظ ماله فقد حفظ الأكرمين، والأكرمان: الدين والعرض. وقد قيل: للرمى يراش السهم، وعند النطاح تغلب القرناء.

وإذا رأت العرب مستأكلاً وافق غمرًا قالت: ليس عليك نسجه، فاسحق وخرق. وقد قال رسول الله -ﷺ-: **«الناس كلهم سواء كأسنان المشط، والمرء كثير بأخيه»**. ولا خير لك فى صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه. فتعرف شأن أصحابك، ومعنى جلسائك. فإن كانوا فى هذه الصفة فاستعمل الحزم، وإن كانوا فى خلاف ذلك عملت على حسب ذلك.

إنى لست آمرك إلا بما أمرك به القرآن. ولست أوصيك إلا بما أوصاك به الرسول. ولا أعظك إلا بما وعظ به الصالحون بعضهم بعضًا. قال رسول الله -ﷺ-: **«أعقلها وتوكل»**. وقال مطرف بن الشخير: من نام تحت صدف مائل، وهو ينوى التوكل، فليرم بنفسه من طمار، وهو ينوى التوكل! فأين التوقى الذى أمر الله به؟ وأين التغرير الذى نهى عنه؟ ومن طمع فى السلامة من غير تسلم فقد وضع الطمع فى موضع الأمانى.

وإنما ينجز الله الطمع، إذا كان فيما أمر به. وإنما يحقق من الأمل، ما كان هو المسبب له.

وفر عمر من الطاعون، فقال له أبو عبيدة: أتفر من قدر الله؟ قال: نعم، إلى قدر الله.

وقيل له: هل ينفع الحذر من القدر؟ فقال: لو كان الحذر لا ينفع، لكان الأمر به لغوًا.

فإبلاء العذر هو التوكل، وقال رسول الله -ﷺ- لرجل قال فى خصومة حسبى الله : «إبلِ الله عذراً، فإذا أعجزك أمر فقل: حسبى الله».

وقال الشاعر:

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا   من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلى عذرًا أو ليبلغ حاجة   ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال الآخر:

فإن يكن القاضى قضى غير عادل   فبعد أمور لا ألوم لها نفسى

وقال زهير البابى: إن كان التوكل أن أكون متى أخرجت مالى أيقنت بالخلف، وجعلت الخلف مالاً يرجع فى كيسى، ومتى ما لم أحفظه أيقنت بأنه محفوظ فإنى أشهدكم أنى لم أتوكل قط. إنما التوكل أن تعلم أنك متى أخذت بأدب الله أنك تتقلب فى الخير، فتجزى بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً. ثم قال: فلم أتجر أبو بكر؟ ولم أتجر عثمان؟ ولم أتجر الزبير؟ ولم أتجر عبد الرحمن؟ ولم علم عمر الناس كيف يتجرون، وكيف يشترون ويبيعون؟ ولم قال عمر: إذا اشتريت جملاً فاجعله ضخمًا، فإن لم يبعه الخبر باعه المنظر؟ ولم قال عمر: فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين. ولم قال عثمان حين سئل عن كثرة أرباحه، قال: لم أرد من ربح قط. ولم قيل: لا تشترى عيبًا ولا شيبًا؟ وهل حجر على بن أبى طالب على ابن أخيه عبد الله بن جعفر إلا فى إخراج المال فى غير حقه، وإعطائه فى هواه؟ وهل كان ذلك إلا فى طلب الذكر والتماس الشكر؟ وهل قال أحد أن إنفاقه كان فى الخمر والقمار، وفى الفسولة والفجور؟ وهل كان فيما تسمونه جودًا، وتعدونه كرمًا؟ ومن رأى أن يحجر على الكرام لكرمهم، رأى أن يحجر على الحلماء لحلمهم وأى إمام بعد أبى بكر تريدون؟ وبأى سلف بعد على تقتدون؟.

وكيف نرجو الوفاء، والقيام بالحق، والصبر على النائبة، من عند لعموظ مستأكل، وملاق مخادع، ومنهوم بالطعام شره، لا يبالى بأى شيء أخذ الدرهم؟ ومن أى وجه أصاب الدينار؟ ولا يكترث للمنة، ولا يبالى أن يكون أبدًا منهومًا، منقومًا عليه، وليس يبالى -إذا أكل- كيف كان ذلك الطعام؟ وكيف كان سببه؟ وما حكمه؟

فإن كان مالك قليلاً، فإنما هو قوام عيــالك، وإن كان كثيراً فاجعل الفاضل عدة لنوائبك. ولا يأمـن الأيام إلا المضلل ولا يغتر بالســلامة إلا المغفل. فـاحذر طوارق البلاء، وخـدع رجال الدهاء. سمنـك فى أديمك، وغثك خيـر من سمين غيرك، لو وجـدته، فكيف ودونه أسل حداد، وأبواب شداد؟ قالـت امرأة لبعض العرب: إن تزوجتنى كفيتك. فأنشأ يقول:

إذا لم يكن غـيـر مــالك مـسنى خصاص، وبان الحمد منى والأجر
ومـا خـيـر مـال ليس نـافع أهله وليس لشـيـخ الحى فى أمـره أمـر

وقال المعلوط القريعى:

أبا هانئ لا تســأل الناس والتـمس بكفـيـك ســتـر الله فــالله واسع
فلو تسأل النــاس التراب لأوشكوا إذا قلت: هاتوا، أن يملوا فـيمنعـوا

* * *

من طرائف البخلاء

ثم رجع الحديث إلى أحاديث البخلاء، وإلى طرف معانيهم وكلامهم.

حديث ابن حسان

قال ابن حسان: كان عندنا رجل مقل، وكان له أخ مكثر. وكان مفرط البخل، شديد النفج، فقال له يومًا أخوه: أنا فقير معيل، وأنت غنى خفيف الظهر، لا تعيننى على الزمان، ولا تواسينى ببعض مالك، ولا تتفرج لى عن شيء! والله ما رأيت قط ولا سمعت بأبخل منك! قال: ويحك! ليس الأمر كما تظن، ولا المال كما تحسب، ولا أنا كما تقول فى البخل ولا فى اليسر والله لو ملكت ألف ألف درهم، لوهبت لك خمسمائة ألف درهم. يا هؤلاء، فرجل يهب فى ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال له بخيل!

* * *

صاحب الثريدة

وأما صاحب الثريدة البلقاء، فليس عجبى من بلقة ثريدته، وسائر ما كان يظهر على خوانه، كعجبى من شيء واحد، وكيف ضبطه وحصره وقوى عليه مع كثرة أحاديثه، وصنوف مذاهبه. ولذلك أنى فى كثرة ما جالسته، وفى كثرة ما كان يفتن فيه من الأحاديث، ولم أره خبر أن رجلاً وهب لرجل درهمًا واحدًا! فقد كان يفتن فى الحزم والعزم، وفى الحلم والعلم، وفى المعانى، إلا ذكر الجود، فإننى لم أسمع هذا الاسم منه قط. خرج هذا الباب من لسانه كما خرج من قلبه!.

* * *

حديث طاهر الأثير

ويؤكد ما قلت ما حدثنى به طاهر الأثير، فإنه قال: ومما يدل أن الروم أبخل الأمم، أنك لا تجد للجود فى لغتهم اسمًا. يقول: إنما يسمى الناس ما يحتاجون إلى استعماله، ومع الاستغناء يسقط التكلف.

وقد زعم ناس أن مما يدل على غش الفرس، أنه ليس للنصيحة فى لغتهم اسم واحد يجمع المعانى التى يقع عليها هذا الاسم. وقول القائل: نصيحة، ليس يراد به سلامة القلب، فقد يكون أن يكون الرجل سليم الصدر، ولم يحدث سبب من أجله يقصد إلى المشورة عليك بالذى هو أرد عليك -على حسب رأيه فيك- ووجه لنفعك. ففى لغتهم اسم للسلامة، واسم لإرادة الخير، وحسن المشورة، وحملك بالرأى على الصواب. فللنصيحة عندهم أسماء مختلفة إذا اجتمعت دلَّت على ما يدل عليه الاسم الواحد فى لغة العرب. فمن قضى عليهم بالغش من هذا الوجه فقد ظلم.

* * *

حديث إبراهيم بن عبد العزيز

وحدثنى إبراهيم بن عبد العزيز قال: تغديت مع راشد الأعور، فأتونا بجام فيه بياح سبخى، الذى يقال له الدراج. فجعلت آخذ الواحدة فأقطع رأسها ثم أعزله، ثم أشقها اثنتين من قبل بطنها، فآخذ شوكة الصلب والأضلاع فأعزلها، وأرمى بما فى بطنها، وبطرف الذنب والجناح، ثم أجمعها فى لقمة واحدة وآكلها.

وكان راشد يأخذ البياحة، فيقطعها قطعتين، فيجعل كل قطعة فى لقمة، لا يلقى رأسًا ولا ذنبًا، فصبر لى على لقم عدة. فلما بلغت المجهود منه قال: أى بنى، إذا أكلت الطعام فكل خيره بشره.

قال: وكان يقول: لم أنعم بأكل التمر إلا مع الزنج وأهل أصبهان. فأما الزنجى فإنه لا يتخير، وأنا أتخير. والأصبهانى فإنه يقبض القبضة، ولا يأكل من غيرها، لا ينظر إلى ما بين يديه، حتى يفرغ من القبضة. وهذا عدل. والتخير قرفة وجور. لا جرم أن الذى يبقى من التمر لا ينتفع به العيال، إذا كان قدام من يتخير.

وكان يقول: ليس من الأدب أن تجول يدك فى الطبق، وإنما هو تمر وما أصاب.

* * *

حديث سرى بن مكرم

وزعم سرى بن مكرم، وهو ابن أخى موسى بن جناح قال: كان موسى يأمرنا ألا نأكل ما دام أحد منا مشغولاً يشرب الماء وطلبه. فلما رآنا لا نطاوعه دعا ليلة بالماء، ثم خط بإصبعه خطًّا فى أرزة كانت بين أيدينا، فقال: هذا نصيبى، لا تعرضوا له حتى أنتقع بشرب الماء!.

وأحاديثه فى صدر هذا الكتاب، وهذا منها.

* * *

حديث المكــــى

وقال المكى لبعض من كان يتعشى ويفطر عند الباسياني: ويحكم! كيف تسيغون طعامه، وأنتم تسمعونه يقول: إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.

ثم ترونه لا يقرؤها إلا وأنتم على العشاء، ولا يقرأ غير هذه الآية. أنتم والله ضد الذى قال:

ألبــان إبل تعلة بن مســاور ... مــا دام يملكهــا على حــرام

وطعام عـمـران بن أوفى مـثله ... مـا دام يـسلك فى البطون طعـام

إن الذيـن يسـوغ فى أعناقـهم ... زاد يمـن عليـهم للئـام

قال: فمتى تعجب فاعجب من خمسين رجلاً من العرب، فيهم أبو رافع الكلابى، وهو شاعر بذى يفطرون عند أبى عثمان الأعور. فإفطارى من طعام نصرانى أشد من إفطارى من طعام مسلم يقرأ القرآن ويقول الحق.

* * *

حديث أبى المنجوف السدوسى

وحدثنى أبو المنجوف السدوسى قال: كنت مع أبى ومعنا شيخ من موالى الحى. فمررنا بناطور على نهر الأبلة، ونحن تعبون. فجلسنا إليه. فلم يلبث أن جاءنا بطبق عليه رطب سكر وجيسران أسود فوضعه بين أيدينا، فأكل الشيخ الذى كان معنا. فلما رأيت أبى لا يأكل لم آكل، وبى إلى ذلك حاجة. فأقبل الناطور

على أبى فـقال: لم لا تأكل؟ قـال: والله إنى لأشتـهيه. ولكن لا أظـن صاحب الأرض أباح لك إطعام الناس من الغـريب. فلو جئتنا بشىء من السهـريز والبرنى لأكلنا. فقال مولانا، وهو شـيخ كبير السن: ولكنى أنا لم أنظر فى شىء من هذا قط.

* * *

إسماعيل بن غزوان

قال المكى: دخـل إسماعـيل بن غزوان إلى بعض المسـاجد يصلى، فـوجد الصف تامًّا، فلم يستطع أن يقوم وحده فجذب ثوب شيخ فى الصف ليتأخر فيقوم معه. فلما تأخر الشيخ ورأى إسماعيل الفرج، تقدم فقام فى موضع الشيخ، وترك الشيخ قائمًا خلفه ينظر فى قفاه ويدعو الله عليه.

* * *

ثمامة وقاسم التمار

كان ثمامة يحتـشم أن يقعد على خوانه من لا يأنس به. ومن رأيه أن يأكل بعض غلمانه مـعه. فحـبس قاسم التمـار يومًا على غـدائه بعض من يحتشـمه. فاحـتمل ذلك ثمامة فى نفـسه. ثم عاد بعـد ذلك إلى مثلها، ففـعل ذلك مرارًا، حتى ضج ثمامة واستفرغ صبره.

فأقبل عليه فقال: مـا يدعوك إلى هذا؟ لو أردتهم لكان لسانى مطلقًا، وكان رسـولى يؤدى عنى. فلم تحـبس على طعـامى من لا آنس به؟ قـال: إنما أريد أن أسخيك، فأنفى عنك التبخيل وسوء الظن.

فلما أن كان بعـد ذلك، أراد بعضهم الانصراف، قـال له قاسم: أين تريد؟ قال: قد تحـرك بطنى فأريد المنزل. قال: فلم لا تتوضأ هـا هنا؟ فإن الكنيف خال نظيف، والغلام فارغ نشيط، وليس من (أبى مـعن) حشمة، ومنزله منزل إخوانه، فدخل الرجل فتـوضأ، فلما كان بعـد أيام حبس آخر، فلما كـان بعد ذلك حبس آخر.

فاغتـاظ ثمامة، وبلغ فى الغيظ مبلغًا لـم يكن على مثله قط. ثم قال: هذا يحبسهم على غدائى، لأن يسخينى. يحبسهم على أن يخرأوا عندى لِمَه، لأن من

لم يخرأ الناس عنده فهو بخيل على الطعام! وقد سمعتهم يقولون: فلان يكره أن يوكل عنده، ولم أسمع أحدًا قط قال: فلان يكره أن يخرأ عنده.

وكان قاسم شديد الأكل، شديد الخبط، قذر المؤاكلة. وكان أسخى الناس على طعام غيره، وأبخل الناس على طعام نفسه، وكان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط، فكان لا يرضى بسوء أدبه على طعام ثمامة، حتى يجر معه ابنه إبراهيم، وكان بينه وبين إبراهيم ابنه فى القذر ما بينه وبين جميع العالمين فكانا إذا تقابلا على خوان ثمامة، لم يكن لأحد على أيمانهما وشمائلهما حظ فى الطيبات.

فأتوه يومًا بقصعة ضخمة فيها ثريدة كهيئة الصومعة مكللة بإكليل من عراق، بأكثر ما يكون من العراق. فأخذ قاسم الذى يستقبله، ثم أخذ يمنة، وأخذ ما بين يدى من كان بينه وبين ثمامة، حتى لم يدع إلا عرقًا قدام ثمامة. ثم مال على جانبه الأيسر، فصنع مثل ذلك الصنيع. وعارضه ابنه وحاكاه! فلما أن نظر ثمامة إلى الثريدة مكشوفة القناع مسلوبة عارية، واللحم كله بين يديه وبين يدى ابنه إلا قطعة واحدة بين يديه، تناولها فوضعها قدام إبراهيم ابنه، فلم يدفعها. واحتسب بها فى الكرامة والبر. فقال قاسم لما فرغ من غدائه: أما رأيتم إكرام ثمامة لابنى؟ وكيف خصه؟

فلما حكى هذا لى، قلت: ويلك ما أظن أن فى الأرض عرقا أشأم على عيالك منه! هذا أحرجه الغيظ لا يتركه حتى يتشفى منك، فإن قدر لك على ذنب فقد والله هلكت، وإن لم يقدر عليه أقدره لك الغيظ، وأبواب التجنى كثيرة، وليس أحد إلا وفيه ما إن شئت جعلته ذنبًا، فكيف وأنت ذنوب من قرنك إلى قدميك.

وكان ثمامة يفطر أيام كان فى أصحاب الفساطيط ناسًا، فكثروا عليه، وأتوه بالرقاع والشفاعات، وفى حشوة المتكلمين، أخلاق قبيحة، وفيهم على أهل الكلام وعلى أرباب الصناعات محنة عظيمة.

فلما رأى ثمامة ما قد دهمه، أقبل عليهم وهم يتعشون فقال: إن الله عز وجل لا يستحى من الحق كلكم واجب الحق، ومن لم تجئنا شفاعته فالحرمة كمن تقدمت شفاعته، كما أنا لو استطعنا أن نعمكم بالبر، لم يكن بعضكم أحق بذلك

من بعض. فكذلك أنتم إذا أعجزنا أو بدا لنا، فليس بعضكم أحق بالحرمان من بعض، أو بالحمل عليه، أو بالاعتذار إليه من بعض. ومتى قربتكم، وفتحت بابى لكم، وباعدت من هو أكثر منكم عدداً، وأغلقت بابى دونهم، لم يكن فى إدخالى إياكم عذراً لى، ولا فى منع الآخرين حجة، فانصرفوا ولم يعودوا.

* * *

قال أبو محمد العروضى: وقعت بين قوم عربدة، فقام المغنى يحجز بينهم، وكان شيخًا معتلاً بخيلاً. فمسك رجل بحلقه فعصره، فصاح: معيشتى! معيشتى! فتبسم وتركه.

* * *

وحدثنى ابن أبى كريمة قال: وهبوا للكنانى المغنى خابية فارغة. فلما كان عند انصرافه وضعوها له على الباب، ولم يكن عنده كراء حمالها. وأدركه ما يدرك المغنين من التيه، فلم يحملها، فكان يركلها ركلة، فتتدحرج وتدور بمبلغ حمية الركلة ويقوم من ناحية كى لا يراه إنسان ويرى ما تصنع، ثم يدنو منها، ثم يركلها أخرى، فتتدحرج وتدور، ويقف من ناحية. فلم يزل يفعل ذلك إلى أن بلغ بها المنزل.

* * *

عبد النور كاتب أبى جعفر

قالوا: كان عبد النور كاتب إبراهيم بن عبد الله بن الحسن قد استخفى بالبصرة فى عبد القيس، من أمير المؤمنين أبى جعفر وعماله. وكان فى غرفة قدامها جناح. وكان لا يطلع رأسه منها. فلما سكن الطلب شيئًا، وثبت عنده حسن جوار القوم، صار يجلس فى الجناح يرضى بأن يسمع الصوت ولا يرى الشخص، لما فى ذلك من الأنس عند طول الوحشة، فلما طالت به الأيام، ومرت أيام السلامة، جعل فى الجناح خرقًا بقدر عينه. فلما طالت الأيام، صار ينظر من شق باب كان مسموراً. ثم ما زال يفتحه الأول فالأول، إلى أن صار يخرج رأسه ويبدى وجهه، فلما [لم] ير شيئًا يريبه، قعد فى الدهليز، فلما ازداد فى الأنس، جلس على باب الدار!.

ثم صلَّى فى مصلاهم ودخل، ثم صلَّى بعد ذلك وجلس، والقوم عرب، وكانوا يفيضون فى الحديث، ويذكرون من الشعر الشاهد والمثل. ومن الخبر الأيام والمقامات وهو فى ذلك ساكت، إذ أقبل عليه ذات يوم فتى منهم، خرج عن أدبهم، وأغفل بعض ما راضوه به من سيرتهم، فقال له: يا شيخ، إنّا قوم نخوض فى ضروب، فربما تكلمنا بالمثلبة، وأنشدنا الهجاء فلو أعلمتنا ممن أنت تجنبنا كل ما يسؤك. ولو اجتنبنا أشعار الهجاء كلها، وأخبار المثالب بأسرها، لم نأمن أن يكون ثناؤنا ومديحنا لبعض العرب مما يسوءك. فلو عرفتنا نسبك، كفيناك سماع ما يسوءك من هجاء قومك، ومن مديح عدوك.

فلطمه شيخ منهم، وقال: لا أم لك! محنة كمحنة الخوارج، وتنقير كتنقير العيابين؟ ولم لا تدع ما يريبك إلى ما لا يريبك؟ فتسكت إلا عما توقن بأنه يسره.

قال: وقال عبد النور: ثم إن موضعى نبا بى لبعض الأمر، فتحولت إلى شق بنى تميم فنزلت برجل فأخذته بالشقة، وأكمنت نفسى إلى أن أعرف سبيل القوم، وكان للرجل كنيف إلى جانب داره، يشرع فى طريق لا ينفذ. إلا أن من مر فى الشارع رأى مسقط الغائط من خلاء ذلك الجناح. وكان صاحب الدار ضيق العيش، فاتسع بنزولى عليه. فكان القوم إذا مروا به ينظرون إلى موضع الزبل والغائط، فلا يذهب قلبى إلى شىء مما كانوا يذهبون إليه.

فبينا أنا جالس ذات يوم إذ أنا بأصوات ملتفة على الباب، وإذا صاحبى ينتفى ويعتذر، وإذا الجيران قد اجتمعوا إليه وقالوا: ما هذا الثلط الذى يسقط من جناحك، بعد أن كنا لا نرى إلا شيئًا كالبعر، من يبس الكعك؟ وهذا ثلط يعبر عن أكل غض! ولولا أنك انتجعت على بعض من تستر وتوارى لأظهرته. وقد قال الأول:

السـتـر دون الفاحشـات ولا   يلقـاك دون الخـيـر من سـتـر

ولولا أن هذا طلبه السلطان، لما توارى، فلسنا نأمن من أن يجر على الحى بلية، ولست تبالى، إذا حسنت حالك فى عاجل أيامك، إلامَ يفضى بك الحال، وما تلقى عشيرتك، فإما أن تخرجه إلينا، وإما أن تخرجه عنا. قال عبد النور: فقلت: هذه والله القيافة، ولا قيافة بنى مدلج! إنَّا لله! خرجت من الجنة إلى النار! وقلت: هذا وعيد وقد أعذر من أنذر. فلم أظن أن اللؤم يبلغ ما رأيت من أولئك!

الأصمعي وجلساؤه

شهـدت الأصمعي يومًا، وأقـبل على جلسائه يسألـهم عن عيشهم، وعـما يأكلون ويشربون. فـأقبل على الذين عن يمينه فـقال: أبا فلان، مـا إدامك؟ قال: اللحم. قال: أكل يوم لحم؟ قال: نعم. قـال: وفيه الصفراء والبيـضاء، والحمراء والكدراء، والحامضة والحلوة والمرة؟ قـال: نعم. قال: بئس العيش هذا! ليس هذا عيش آل الخطاب. كان عمر بن الخطاب -رحـمة الله عليه ورضوانه- يضرب على هذا. وكان يقول: مدمن اللحم، كمدمن الخمر.

ثم سأل الذى يليـه قال: أبا فلان، ما إدامك قال: الآدام الـكثيرة، والألوان الطيبـة. قال: أفى إدامك سمن؟ قال: نعم. قـال: فتجمع السـمن والسمين على مائدة؟ قال: نعم. قال: ليس هذا عيش آل الخطاب، كان ابن الخطاب -رحمة الله عليه ورضوانه- يضـرب على هذا. وكان إذا وجد القدور المختلفـة الطعوم كدرها فى قدر واحدة، وقال: إن العرب لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضًا.

ثم يقبـل على الآخر فيـقول: أبا فـلان، ما إدامك؟ قال: اللحـم السمين، والجـداء الرضع. قال: فـتأكله بالحـوارى؟ قـال: نعم. قال: ليس هذا عـيش آل الخطاب، كان ابن الخطاب يضرب على هذا. أو ما سمعته يقول: أترونى لا أعرف الطعام الطـيب؟ لباب البر بصـغار المعـزى. ألا تراه كيف ينتفى من أكلـه وينتحل معرفته.

ثم يقبل على الذى يليه فيقول: أبا فلان، مـا إدامك؟ فيقول: أكثر ما نأكل لحوم الجزور، ونتخذ منـها القلايا، ونجعل بعضها شواء. قال: أفـتأكل من أكبادها وأسمنتها، وتتخذ لك الصباغ؟ قال: نعم. قال: ليس هذا عيش آل الخطاب، كان ابن الخطاب يضرب على هذا، أو مـا سمعتـه يقول: أترونى لا أقدر أتخـذ أكبادًا وأفلاذًا وصلائق وصنابًا؟ ألا تراه كيف ينكر أكله، ويستحسن معرفته؟

ثم يقول للذى يليـه: أبا فلان، ما إدامك؟ فيقـول: الشبارقات والأخـبصة والفالوذجـات. قال: طعـام العجم، وعـيش كسرى، ولـباب البر بلعـاب النحل

بخالص السمن، حتى أتى على آخرهم. كل ذلك يقول: بئس العيش هذا! ليس هذا عيش آل الخطاب، كان ابن الخطاب يضرب على هذا.

فلما انقضى كلامه، أقبل عليه بعضهم فقال: يا أبا سعيد، ما إدامك؟ قال: يومًا لبن، ويومًا زيت، ويومًا سمن، ويومًا تمر، ويومًا جبن، ويومًا قفار، ويومًا لحم عيش آل الخطاب.

ثم قال: قال أبو الأشهب: كان الحسن يشترى لأهله كل يوم بنصف درهم لحمًا، فإن غلا، فبدرهم، فلما حبس عطاؤه كانت مرقته بشحم.

ونبئت عن رجل من قريش أنه كان يقول: من لم يحسن يمنع، لم يحسن يعطى، وأنه قال لابنه: أى بنى، إنك إن أعطيت فى غير موضع الإعطاء، أوشك أن تستعطى الناس فلا تعطى.

ثم أقبل علينا فقال: هل علمتم أن اليأس أقل من القناعة وأعز. إن الطمع لا يزال طمعًا، وصاحب الطمع لا ينتظر الأسباب، ولا يعرف الطمع الكاذب من الصادق، والعيال عيالان: شهوة مفسدة، وضرس طحون. وأكل الشهوة أثقل من أكل الضرس. وقد زعموا أن العيال سوس المال، وأنه لا مال لذى عيال. وأنا أقول: إن الشهوة ما لا يبلغ السوس، وتأتى على ما يقصر دونه العيال. وقد قال الحسن: ما عال أحد قط عن قصد. وقيل لشيخ من أهل البصرة: ما لك لا ينمى لك مال؟ قال: «لأنى اتخذت العيال قبل المال، واتخذ الناس المال قبل العيال». وقد رأيت مَنْ تقدم عياله ماله، فجبره الإصلاح، ورفده الاقتصاد، وأعانه حسن التدبير ولم أر لشهواتى تدبيرًا، ولا لشرهى صبرًا. وقال إياس بن معاوية: إن الرجل يكون عليه ألف، فينفق ألفًا، فيصلح، فتصلح له الغلة. ويكون عليه ألفان فينفق ألفين فيصلح، فتصلح له الغلة. ويكون عليه ألفان، فينفق ثلاثة آلاف، فيبيع العقار فى فضل النفقة.

وذكر الحديث عن أبى لينة قال: كنت أرى زيادًا وهو أمير، يمر بنا على بغلة فى عنقها حبل من ليف مدرج على عنقها.

وكان سلم بن قتيبة يركب بغلة وحده، ومعه أربعة آلاف مرابطة. ورآه الفضل بن عيسى على حمار وهو أمير، فقال: قعود نبى وبذلة جبار.

ولو شاء أبو سيارة أن يدفع بالعرب على جمل مهرى أو فرس عتيق لفعل. ولكنه أراد هدى الصالحين.

وحمل عمر على برذون، فهملج تحته. فنزل عنه، فقال لأصحابه: جنبونى هذا الشيطان. ثم قال لأصحابه: لا تطلبوا العز بغير ما أعزكم الله به.

قد كنت أعجب من بعض السلف حيث قال: ما أعرف شيئًا مما كان الناس عليه إلا الأذان وأنا أقول ذلك، ولم يزل الناس فى هبوط ما ترفعوا بالإسراف، وما رفعوا البنيان للمطاولة، وإن من أعجب ما رأيت فى هذا الزمان، أو سمعت مفاخرة مويس بن عمران لأبى عبيد الله بن سليمان، فى أيهما كان أسبق إلا ركوب البراذين! وما للتاجر للبرذون؟ وما ركوب التجار للبراذين إلا كركوب العرب للبقر!.

ولو كانوا إذا جلسوا فى الخيوش، واتخذوا الحمامات الدور، وأقاموا وظائف الثلج والريحان، واتخذوا القيان والخصيان، استرد الناس ودائعهم، واسترجعت القضاة أموال الأيتام والحشرية منهم، لعادوا إلى دينهم وعيشهم واقتصادهم. وإذا رآهم أصحاب الغلات، وأهل الشرف والبيوتات، أنفوا أن يكونوا دونهم فى البزة والهيئة، فهلكوا وأهلكوا.

* * *

زعم أبو يعقوب الخريمى أن جعفر بن يحيى أراد يومًا حاجة كان طريقه إليها على باب الأصمعى، وأنه دفع إلى خادم له كيسًا فيه ألف دينار، وقال له: سأنزل فى رجعتى إلى الأصمعى. وسيحدثنى ويضحكنى، فإذا رأيتنى قد ضحكت فضع الكيس بين يديه.

فلما دخل فرأى حبًّا مقطوع الرأس، وجرة مكسورة العروة، وقصعة مشعبة، وجفنة أعشارًا، ورآه على مصلى بال، وعليه بركان أجرد، غمز غلامه بعينه ألا يضع الكيس بين يديه، ولا يدفع إليه شيئًا.

فلم يدع الأصمعى شيئًا مما يضحك الثكلان والغضبان إلا أورده عليه، فما تبسم. فقال له أنس: ما أدرى من أى أمريك أعجب؟ أمن صبرك على الضحك، وقد أورد عليك ما لا يصبر على مثله، أم من تركك إعطاءه وقد كنت عزمت على إعطائه؟ وهذا خلاف ما أعرفك به.

قال: ويلك من استرعى الذئب فقد ظلم، ومن زرع سبخة حصد الفقر. إنى والله لو علمت أنه يكتم المعروف بالفعل، لما ارتفقت بنشره له باللسان. وأين يقع مديح اللسان، من مديح آثار الغنى على الإنسان؟ فاللسان قد يكذب والحال لا تكذب. لله در نصيب حيث يقول:

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

أعلمت أن ناووس أبرويز أمدح له من شعر زهير لآل سنان بن أبى حارثة لأن الشاعر يكذب ويصدق، وبنيان المراتب لا يكذب مرة ويصدق مرة. فلست بعائد إلى هذا بمعروف أبداً.

* * *

كان الأصمعى يتعوذ بالله من الاستقراض والاستفراض، فأنعم الله عليه، حتى صار هو المستقرض منه، والمستفرض ما عنده. فاتفق أن أتاه فى يوم واحد رجلان، وكان أحدهما يطلب الفرض والآخر يطلب القرض، هجما عليه معاً، فأثقله ذلك وملأ صدره!

ثم أقبل على صاحب السلف فقال: تتبدل الأفعال، بتبدل الحال، ولكل زمان تدبير، ولكل مقدار، والله كل يوم فى شأن. كان الفقيه، يمر باللقطة، فيتجاوزها ولا يتناولها، كى يمتحن بحفظها سواه، إذ كان جل الناس فى ذلك الدهر يؤدون الأمانة، ويحوطون اللقطة. فلما تبدلوا وفسدوا، وجب على الفقيه إحرازها والحفظ لها، وأن يصبر على ما نابه من المحنة، واختبر به من الكلفة.

وقد بلغنى أن رجلاً أتى صديقًا له يستقرض منه مالاً، فتركه بالباب. ثم خرج إليه مؤتزراً. فقال له: ما لك؟ قال: جئت للقتال واللطام، والخصومة والصخب. قال: ولم؟ قال: لأنك فى أخذ مالى بين حالين: إما أن تذهب به، وإما أن تماطلنى به. فلو أخذته على طريق البر والصلة، لاعتددت عليك بحق، ولوجب عليك به شكر، وإذا أخذته من طريق السلف، كانت العادة فى الديون، والسيرة فى الإسلاف، الرد أو التقاضى، وإذا تقاضيتك أغضبتك، وإذا أغضبتك أسمعتنى ما أكره، فتجمع على المطل وسوء اللفظ، والوحشة وإفساد اليد فى الإسلاف، وأنت أظلم، فأغضب كما غضبت، فإذا نقلتنى إلى حالك فعلت فعلك وصرت أنا وأنت كما قال العربى: أنا تئق وصاحبى مئق، فما ظنك بتئق

من الغيظ، مملوء من الغـضب، لاقى متأقًا مـن الموق، مملوءًا من الكفران؟ ولكنى أدخل إلى المنزل، فأخرج إليك مـؤتزرًا فأعجل لك اليوم ما أخـرته إلى غد. وقد علمت أن ضرب الموعظة، دون ضـرب الحقد والسـخيمـة، فتربح صـرف ما بين الألمين، وفضل ما بين الشتمين.

وبعد فـأنا أضن بصداقتى لك، وأشح عـلى نصيبى منك، من أن أعـرضه للفساد، وأن أعينك على القطيـعة، فلا تلمنى على إن كنت عندى واحدًا من أهل عصرك، فـإن كنت عند نفسك فوقـهم، وبعيدًا من مذهبـهم، فلا تكلف الناس علم الغيب فتظلمهم.

ثم قال: ومـا زالت العارية مـؤادة، والوديعة محـفوظة، فلمـا قالوا: أحق الخيل بالركض المعار، بعد أن كان يقال: أحـق الخيل بالصون المعار، وبعد أن قيل لبعضهم: أرفق به، قال: إنه عارية، وقال الآخـر: فأقتل، فسدت العارية، وأستد هذا الباب. ولما قالوا:

شـمر قميـصك واستـعـد لنائل	واحكك جـبينـك للقـضـاء بثـوم
واخفض جناحك إن مشيت تخشعًا	حـتى تصـيب وديعـة ليـتـيم

وحين أكلت الأمانات الأمناء والأوصـياء، ورتع فيـها المعدلون والصـرافون وجب حفظها ودفنها، وكان أكل الأرض لها خيرًا من أكل الخؤون الفاجر، واللئيم الغـادر. وهذا مع قول أكـثم بن صـيفى فى ذلك الدهر: لـو سئلت العـارية أين تذهبين، قالت: أكسب أهلى ذمًّا.

«وأنا اليوم أنـهى عن العارية والوديعـة، وعن القرض والفـرض، وأكره أن يخالف قولى فـعلى. أما القرض فلما أنبأتك، وأما الفـرض فليس يسعه إلا بيت المال. ولو وهبت لك درهمًـا واحـدًا، لفتـحت على مـالى بابًا لا تسـده الجبـال والرمال، ولو استطعت أن أجعل دونه ردمًا كردم يأجوج ومأجوج لفعلت.

إن الناس فاغرة أفواههم نـحو من عنده دراهم، فليس يمنعهم من النهس إلا اليأس. وإن طمعـوا لم تبق راغية ولا ثاغية، ولا سبـد ولا لبد، ولا صامت ولا ناطق، إلا ابتلعـوه والتهمـوه! أتدرى ما تريد بشيـخك؟ إنما تريد أن تفقـره. فإذا أفقرته فقد قتلته. وقد تعلم ما جاء فى قتل النفس المؤمنة!.

* * *

فلم أشبه قول الأصمعي لهذا الرجل، حين قال: أنا أضن بك، وأشح على نصيبي منك من أن أعرضه للفساد، ألا بقول ثمامة، حين قال لابن سافرى: يا عاضٍ بظر أمه. بالنظر مني أقول لك، وبالشفقة مني أسبك. وذلك أنه ندم حين أعضّه، فرأى أن هذا القول يجعل ذلك منه يدًا ونعمة.

* * *

ثمامة بن أشرس

وشهدت ثمامة وقد أتاه رجلان قال أحدهما: لى إليك حاجة، فقال ثمامة: ولى إليك أيضًا حاجة، قال: وما حاجتك؟ قال: لست أذكرها لك، حتى تضمن لى قضاءها. قال: نعم، قال: فحاجتى ألا تسألنى هذه الحاجة. قال: إنك لا تدرى ما هى؟ قال: بلى، قد دريت. قال: فما هى؟ قال: هى حاجة، وليس يكون الشيء حاجة، إلا وهى تحوج إلى شيء من الكلفة. قال: فقد رجعت عما أعطيتك. قال: لكنى لا أرد ما أخذت.

فأقبل عليه آخر فقال: لى حاجة إلى منصور بن النعمان. قال: قل: لى حاجة إلى ثمامة بن أشرس، لأنى أنا الذى أقضى لك الحاجة، ومنصور يقضيها لى. فالحاجة أنا أقضيها لك، وغيرى يقضيها لى.

ثم قال: فأنا لا أتكلم فى الولايات، ولا أتكلم فى الدراهم، لأن الدراهم من قلوب الناس، ولأن الحوائج تنقض. فمن سألته اليوم أن يعطيك، سألنى غدًا أن أعطى غيرك. فتعجيلى تلك العطية لك أروح لى. ليس عندى دراهم، ولو كان عندى دراهم لكانت نوائبى القائمة الساعة تستغرقها. ولكنى أؤنب لكم من شئتم. على لكم من التأنيب كل ما تريدون!

قلت له: فإذا أنبت رجلاً فى أمر لم تتقدم فيه بمسألة، كيف يكون جوابه لك؟ فضحك حتى استند إلى الحائط.

* * *

وجاء مرة أبو همام السنّوط، يكلمه فى مرمة داره التى تطوع ببنائها فى رباط عبادان، فقال: ذكرتنى الطعن وكنت ناسيًا، قد كنت عزمت على هدمها، حين بلغنى أن الجبرية قد نزلتها. قال: سبحان الله! تهدم مكرمة ودارًا قد وقفتها

للسبيل؟ قال: فتعجب من هذا؟ قد أردت أن أهدم المسجد الذى كنت بنيته ليزيد ابن هاشم، حين ترك أن يبنيه فى الشارع، وبناه فى الرائغ، وحين بلغنى أنه يخلط فى الكلام، ويعين الشمرية على المعتزلة. فلو أراده أبو همام، وجد من ثمامة مربداً جميع مساحة الأرض.

وكان حين يستوى له اللفظ، لا ينظر فى صلاح المعانى من فسادها.

* * *

وتمشى رجل إلى الغاضرى، وقال: إن صديقك القادمى قد قطع عليه الطريق، قال: فأى شىء تريد؟ قال: أن تخلف عليه، قال: فليس عليه قُطِع الطريق، بل على قُطِع!

* * *

وأتى ابن أشكاب الصيرفى صديق له يستلف منه مالاً، فقال: لو شئت أن أقول لقلت، وأن اعتل اعتللت، وأن أستعير بعض الكلام من يستلف منه إخوانه فعلت، وليس أرى شيئًا خيراً من التصحيح وقشر العصا وليس أفعل، فإن التمست لى عذراً، فهو أروح لقلبك، وإن لم تفعل، فهو شر لك.

* * *

الفيض بن يزيد ومحمد بن عباد

ضاق الفيض بن يزيد ضيقًا شديداً، فقال: والله ما عندنا من شىء نعول عليه، وقد بلغ السكين العظم، والبيع لا يكون إلا مع طول المدة، والرأى أن ننزل هذه النائبة بمحمد بن عباد، فإنه يعرف الحال، وصحة المعاملة، وحسن القضاء، وما لنا من السبب المنتظر، فلو كتبت إليه كتابًا لسره ذلك، ولسد منا هذه الخلة القائمة الساعة.

فتناول القلم والقرطاس ليكتب إليه كتاب الواثق المدل، لا يشك أنه سيتلقى حاجته، بمثل ما كان هو المتلقى لها منه. ومضى بعض من كان فى المجلس إلى محمد بن عباد، ليبشره بسرعة ورود حاجة الفيض إليه. فأتاه أمر لا يقوم به، فأمر بالكتابة إليه ليشغله بحاجته إليه، عن طريق حاجته إليه.

فكتب إليه:

مالى يضعف، والدخل قليل، والعيال كثير، والسعر غال، وأرزاقنا من الديوان قد احتبست، وقد تفتحت علينا من أبواب النوائب فى هذه الأيام، ما لم يكن لنا فى حساب، فإن رأيت أن تبعث إلى بما أمكنك فعجل به، فإن بنا إليه أعظم الحاجة.

فورد الكتاب على الفيض قبل نفاذ كتابه إليه. فلما قرأه استرجع وكتب إليه:

يا أخى تضاعفت على المصيبة، حتى جمعت خلة عيالك إلى خلة عيالى، وقد كنت على الاحتيال لهم، وسأضطرب فى وجوه الحيل غير هذا الاضطراب، وسأتحرك فى بيع ما عندى، ولو ببعض الطرح.

فلما رجع الكتاب إلى ابن عباس سكن، وألقى صاحبه فى أشد الحركة وأتعب لتعب.



وكان رجل من أبناء الحربية، له سخاء وأريحية. وكان يكثر من استزارة ابن عباد، ويتلف عليه من الأموال، من طريق الرغبة فى الأدباء، وفى مشايخ الظرفاء. وكان يظن كرمه أن زيارته ابن عباد فى منزله زيادة فى المؤانسة. وقد كان بلغه إمساكه، ولكنه لم يظن أنه لا حيلة له فى سببه.

فأتاه يومًا متطرئًا، وقال: جئتك من غير دعاء. وقد رضيت بما حضر. قال: فليس يحضر شيء، وقولك: «بما حضر»، لابد من أن يقع على شيء! قال: فقطعة مالح، قال: وقطعة مالح ليس هى شيء؟ قال: بلى، فنحن نشرب على الريق؟ قال: لو كان عندنا نبيذ كنا فى عرس. قال: فأنا أبعث إلى نبيذ، قال: فإذا صرت إلى تحويل النبيذ، فحول أيضًا ما يصلح للنبيذ! قال: ليس يمنعنى من ذلك، ومن إحضار النقل والريحان، إلا لأنى أحتسب لك هذه الزورة بدعوة، وليس يجوز ذلك إلا بأن يكون لك فيها أثر.

فقال محمد: فقد انفتح لى باب لكم فيه صلاح، وليس على فيه فساد فى هذه النخلة زوج ورشان، ولهما فرخان مدركان، فإن نحن وجدنا إنسانًا يصعدها فإنها سحيقة منجردة -ولم يطيرا- فإنهما قد صارا ناهضين، جعلنا الواحد طباهجة والآخر جردناجا فإنه يوم جردناج.

فطلبوا فى الجيران إنسانًا يصعد تلك النخلة، فلم يقدروا عليه، فدلوهم على أكار لبعض أهل الحربية، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه. فلما جاء ونظر إلى النخلة قال: هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها إلا بالتبليا والبربند، فكيف أرومها أنا بلا سبب؟ فسألوه أن يلتمس لهم ذلك. فذهب فغبر مليًّا، ثم أتاهم به، فلما صار فى أعلاها، طار أحدهما، وأنزل الآخر، فكان هو الطباهج والجردناج، وهو الغذاء، وهو العشاء.

* * *

وكتب إبراهيم بن سيابة إلى صديق له يساويه فى الأدب، ويرتفع عليه فى الحال -وكان كثير المال، كثير الصامت- يستسلف منه بعض ما يرتفق به، إلى أن يأتيه بعض ما يؤمل، فكتب إليه صديقه هذا يعتذر ويقول:

إن المال مكذوب عليه، والناس يضيقون إلى الناس فى هذا الباب ما ليس عندهم، وأنا اليوم مضيق، وليست الحال كما نحب، وأحق من عذر، الصديق العاقل.

فلما ورد كتابه على ابن سيابة، كتب إليه:

إن كنت كاذبًا، فجعلك الله صادقًا، وإن كنت ملومًا، فجعلك الله معذورًا.

علم العرب فى الطعام

قال عمرو الجاحظ: احتجنا عند التطويل، وحين صار الكتاب كبيرًا، إلى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم، وما يتمادحون به، وما يتهاجون به، شىء وإن قل، ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا الباب، ولولا أن يخرج من مقدار شهوة الناس، لكان الخبر عن العرب والأعراب، أكثر من جميع هذا الكتاب.

الطعام ضروب، والدعوة اسم جائع، وكذلك الزلة، ثم منه العرس والخرس والأعذار والوكيرة والنقيعة، والمأدبة اسم لكل طعام دعيت إليه الجماعات.

قال الشعر:

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر

وجاء فى الحديث: «**القرآن مأدبة الله**»، وقد زعم ناس أن العرس هو الوليمة، لقول النبى لعبد الرحمن: «**أولم ولو بشاة**»، وكان ابن عوف والأصمعى من بعده يذمان عمرو بن عبيد، ويقولان لا يجيب الولائم، يجعلان طعام الإملاك والإعراس والسبوع والختان وليمة.

والعرس معروف، إلا أن المفضل الضبى زعم أن هذا الاسم مأخوذ من قولهم: لا عطر بعد عروس.

وكان الأصمعى يجعل العروس رجلاً بعينه، كان بنى على أهله فلم تتعطر له. فسمى بعد ذلك كل بان على أهله بذلك الاسم، ومثل هذا لا يثبت إلا بأن يستفيض فى الشعر، ويظهر فى الخبر.

وأما الخرس فالطعام الذى يتخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء. وزعموا أن أصل ذلك مأخوذ من الخرسة، والخرسة طعام النفساء، قالت جارية ولدت حين لم يكن لها من يخدمها ويمارس لها ما يمارس للنفساء: تخرسى، لا مخرسة لك.

وفى الخرسة يقول مساور الوراق:

إذا أسدية ولدت غلامًا فبشرها بلؤم فى الغلام
تخرسها نساء بنى دبير بأخبث ما يجدن من الطعام

وقال ابن القميئة:

شركم حاضر وخيركم در خروس من الأرانب بكر

فالخروس هى صاحبة الخرسة.

والإعذار طعام الختان، يقال صبى معذور، وصبى معذر جميعًا، وقال بعض أصحاب النبى -ﷺ-، وهو يريد تقاربهم فى الأسنان: كنا إعذار عام واحد.

فنكحن أبكارًا وهن بأمة أعجلنهن مظنة الإعذار

فزعموا أنهم سموا طعام الإعذار بالإعذار للملابسة والمجاورة.

* * *

كان الأصمعى يقول: قد كان للعرب كلام على معان. فإذا ابتدلت تلك المعانى، لم تتكلم بذلك الكلام، فمن ذلك قول الناس اليوم: ساق إليها صداقها. وإنما كان هذا يقال حين كان الصداق إبلاً وغنمًا.

وفى قياس قول الأصمعى: إن أصحاب التمر الذين كان التمر دياتهم ومهورهم، كانوا لا يقولون: ساق فلان صداقه، قال: ومن ذلك قول الناس اليوم: قد بنى فلان البارحة على أهله، وإنما كان هذا القول لمن كان يضرب على أهله فى تلك الليلة قبته وخيمته. وذلك هو بناؤه.

ولذلك قال الأول:

لو نزل الغيث لأبنين امرءًا كانت له قبة، سحق بجاد

وكان الأصمعى يعد من هذا أشياء ليس لذكرها ها هنا وجه.

* * *

ومن طعامهم الوكيرة، وهو طعام البناء، كان الرجل يطعم من يبنى له. وإذا فرغ من بنائه تبرك بإطعام أصحابه ودعائهم.

ولذلك قال قائلهم:

خير طعام شهد العشيرة   العرس والإعذار والوكيرة

ويسمون ما ينحرون من الإبل والجزر من عرض المغنم: النقيعة.

قال الشاعر:

إنا لنضرب بالسيوف رءوسهم   ضرب القدار نقيعة القدام

والعقيقة، دعوة على لحم الكبش الذى يعق عن الصبى، والعقيقة اسم للشعر نفسه، والأشعار هى العقائق، وقولهم: عقوا عنه، أى أحلقوا عقيقته. ويقولون: عِق عنه، وعق عليه، فسمى الكبش -لقرب الجوار وسبب الملتبس- عقيقة. ثم سموا ذلك الطعام باسم الكبش.

وكان الأصمعى يقول: لا يقول أحدكم: أكلت ملة، بل يقول: أكلت خبزة، وإنما الملة موضع الخبزة، وكذلك يقول فى الراوية والمزادة، يقول الراوية هو الجمل، وزعموا أنهم اشتقوا الراوية للشعر من ذلك.

فأما الدعاء إلى هذه الأصناف، فمنه المذموم، ومنه الممدوح، فالمذموم النقرى، والممدوح الجفلى وذلك أن صاحب المأدبة وولى الدعوة، إذا جاء رسوله، والقوم فى أحويتهم وأنديتهم فقال: أجيبوا إلى طعام فلان، فجعلهم جفلة واحدة، وهى الجفالة، فذلك هو المحمود. وإذا انتقر فقال: قم أنت يا فلان، وقم أنت يا فلان، فدعا بعضًا وترك بعضًا، فقد انتقر.

قال الهذلى:

وليلة يصطلى بالفرث جازرها   يخص بالنقرى المثرين داعيها

يقول: لا يدعو فيها إلا أصحاب الثروة وأهل المكافأة. وهذا قبيح. وقال فى ذلك بعض ظرفائنا:

آثر بالجدى وبالمائدة   من كان يرجو عنده الفائدة
لو كان مكوكان فى كفه   من خردل ما سقطت واحدة

وقال طرفة بن العبد:

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى   لا ترى الآداب فينا ينتقر

ولما غزا بسطام بن قيس الشيباني مالك بن المنتفق الضبي، وأتبعه عاصم بن خليفة الضبي، شد عليه فطعنه وهو يقول: هذا وفى الجفلة لا يدعونى.

ويروى: فى الحفلة لا يدعونى، كأنه حقد عليه، حين كان يدعو أهل المجلس ويدعه.

والطعام المذموم عندهم ضربان: أحدهما طعام المجاوع والحطيمات والضرائك والسباريت، واللئام والجبناء، والفقراء والضعفاء، من ذلك:

الغثّ والدعاع والهبيد والقرامة والقرة والعسوم ومنقع البرم والقصيد والقد والحيات.

فأما الفظ فإنه وإن كان شرابًا كريهًا، فليس يدخل فى هذا الباب. وكذلك المجدوح.

فأما الفظ، فإنه عصارة الفرث، إذا أصابهم العطش فى المفاوز، وأما المجدوح، فإنهم إذا بلغ العطش منهم المجهود، نحروا الإبل، وتلقوا ألبابها بالجفان، كى لا يضيع من دمائها شىء، فإذا برد الدم ضربوه بأيديهم، وجدحوه بالعيدان جدحًا، حتى ينقطع، فيعزل ماؤه من ثقله، كما يخلص الزبد بالمخض والجبن بالأنفحة فيتصافنون ذلك الماء، ويتبلغون به، حتى يخرجوا من المفازة.

وقال الشاعر:

لم تأكل الغثّ والدعاع ولم ... تجن هبيدا يجتنيه مهتبده

وقال أمية بن أبى الصلت:

ولا يتنازعون عنان شرك ... ولا أقوات أهلهم العسوم

ولا قرد يقزز من طعام ... ولا نصب ولا مولى عديم

وقال معاوية بن أبى ربيعة الجرمى فى القرة، وهو يعير بنى أسد وناسًا من هوازن، وهما ابنا القملية:

ألم تر جرمًا أنجدت وأبوكم ... مع القمل فى حفر الأقيصر شارع

إذا قرة جاءت يقول: أصب بها ... سوى القمل، أنى من هوازن ضارع

والقرامة، نحاتة القرون والأظلاف والمناسم وبرادتها. والعلهز، القردان،

ترض وتعجن بالدم. والقرة، الدقيق المختلط بالشعر، كان الرجل منهم لا يحلق رأسه إلا وعلى رأسه قبضة من دقيق، ليكون صدقة على الضرائك، وطهوراً له. فمن أخذ ذلك الدقيق للأكل، فهو معيب.

وفى أكل الحيَّات يقول ابن مناذر:

فإياكم والريف لا تقربنه فإن لديه الحيف والموت قاضيا
وهم طردوكم عن بلاد أبيكم وأنتم حلول تشتوون الأفاعيا

وقال القطامى فى أكلهم القد:

تعمَّمت فى طل وريح تلفنى وفى طرمساء غير ذات كواكب
إلى حيزبون توقد النار بعدما تلفعت الظلماء من كل جانب
فسلمت، والتسليم ليس يسرها ولكنه حق على كل جانب
فلما تنازعنا الحديث سألتها: من؟ قالت: معشر من محارب
من المشتوين القد فى كل شتوة وإن كان ريف الناس ليس بناضب

وقال الراعى:

بكى منذر من أن يضاف وطارق يشد من الجوع الإزار على الحشا
إلى ضوء نار يشتوى القد أهلها وقد يكرم الأضياف والقد يشتوى

وقد يضيقون فى شراب غير المجدوح والفظ، فى المغازى والأسفار، فيمدحون من آثر صاحبه، ولا يذمون من أخذ حقه منه، وهو ماء المصافنة، والمصافنة، مقاسمة هذا الماء بعينه، وذلك أن الماء إذا نقص عن الرى، اقتسموه بالسواء. ولم يكن للرئيس ولا لصاحب المرباح والصفى وفضول المقاسم فضل على أخس القوم. وهذا خلق عام ومكرمة عامة فى الرؤساء.

قال الفرزدق:

فلما تصافنا الأداوة أجهشت إلى غضون العنبرى الجراضم
على ساعة لو أن فى القوم حاتمًا على جوده ضنت به نفس حاتم

وبذلك المذهب من الأثرة، مدح الشاعر كعب بن مامة، حين آثر بنصيبه رفيقه النمرى، فقال:

ما كان من سوقة أسقى على ظمأ خمراً بماء إذا ناجودها بردا
من ابن مامة كعب، ثم عى به زوّ المنية، إلا حرة وقدى
أوفى على الماء كعب، ثم قيل له: رد كعب، إنك وراد، فما وردا

وفى المصافنة يقول الأسدى:

كأن أطيطا يا ابنة القوم لم ينخ قلائص يحكيها الحنى المنقح
ولم يسق قوماً ما دمىّ على الحصى صباب الأداوى والمطيات جنح

ويزعمون أن الحصاة التى إن غمرها الماء فى الإناء كانت نصيب أحدهم، تسمى المقلة. وهذا الحرف سمعته من البغداديين. ولم أسمعه من أصحابنا وقد برئت إليك منه.

وقال ابن جحوش فى المصافنة:

ولما تعاورنا الأداوة أجهشت إلى الماء نفس العنبرى الجراضم
وآثرته لما رأيت الذى به على النفس أخشى لاحقات الملاوم
فجاء بجلمود له مثل رأسه ليشرب حظ القوم بين الصرائم

* * *

وقد أصيب القوم فى باديتهم ومواضعهم، من الجهد ما لم يسمع به فى أمة من الأمم ولا فى ناحية من النواحى، وأن أحدهم ليجوع حتى يشد على بطنه الحجارة، وحتى يعتصم بشدة معاقد الإزار، وينزع عمامته من رأسه، فيشد بها بطنه، وإنما عمامته تاجه. والأعرابى يجد فى رأسه من البرد إذا كان حاسراً ما لا يجده أحد لطول ملازمته العمامة ولكثرة طيها وتضاعف أثنائها، ولربما أعتم بعمامتين، ولربما كانت على قلنسوة خدرية.

وقال مصعب بن عمير الليثى:

سيروا فقد جن الظلام عليكم فبئس امرئ يرجو القرى عند عاصم
دفعنا إليه وهو كالذبخ حاظياً نشد على أكبادنا بالعمائم

وقال الراعى فى ذلك:

يشب لركب منهم من ورائهم فكلهم أمسى إلى ضوئها سرى
إلى ضوء نار يشتوى القد أهلها وقد يكرم الأضياف والقد يشتوى
فلما أناخوا واشتكينا إليهم بكوا وكلا الخصمين مما به بكى
بكى منذر من أن يضاف وطارق يشد من الجوع الإزار على الحشا

ومما يدل على ما هم فيه من الجهد، وعلى امتداحهم بالأثرة قول العتوى:

لقد علمت قيس بن عيلان أننا نضار، وأنا حيث ركب عودها
إذا الماء بعد اليوم يمذق بعضه ببعض، ويبلى شح نفس وجودها
وأنا مقار حين يتكر الغضا إذا الأرض أمست وهى جدب جنودها

وقال فى ذلك العجير السلولى:

من المهديات الماء بالماء بعدما رمى بالمقادى كل قاد ومعتم

وقال آخر فى مثل هذا:

لنا إبل يروين يومًا عيالنا ثلاث، فإن يكثرن يومًا فأربع
نمدهم بالماء لا من هوانهم ولكن إذا ما قل شىء يوسع
على أنها تغشى أولئك بيتها على اللحم حتى يذهب الشر أجمع

وقال أبو سعيد الخدرى: أخذت حجرًا فعصبته على بطنى من الجوع، وأتيت النبى -ﷺ- أسأله، فلما سمعته وهو يخطب: «**من يستعف يعفه الله، ومن يستعن يعنه الله**»، رجعت ولم أسأله.

* * *

وقال أعرابى: جعت حتى سمعت فى مسامعى دويًا، فخرجت أريغ الصيد، فإذا بمغارة، وإذا هو جرو ذئب، فذبحته وأكلته، وادهنت واحتذيت.

* * *

ولما قدم المغيرة القادسية على سعد بسبعين من الظهر، وعند سعد ضيق شديد من الحال، نحروها وأكلوا لحومها، وادهنوا بشحومها، واحتذوا جلودها.

وذكر الأصمعى عن عثمان الشحام، عن أبى رجا العطارى، وقال: لما بلغنا أن النبى -ﷺ-، قد أخذ فى القتل، هربنا فاشتوينا فخذ أرنب دفيئًا، وألقينا عليها جمالتنا، فلا أنسى تلك الأكلة!.

وكان الأصمعى إذا حدث بهذا الحديث قال: نعم الأدام الجوع ونعم شعار المسلمين التخفيف.

* * *

وذكروا عن عبد الملك بن عمير، عن رجل من بنى عذرة، قال: خرجت زائرًا لإخوان لى بهجر، فإذا هم فى برث أحمر بأقصى حجر، فى طلوع القمر، فذكروا أن أتانًا تعتاد نخلة، فترفع يديها، وتعطو بفيها، وتأخذ الحلقان والمنسبتة والمنصفة والمعوة.

فتنكبت قوسى، وتقلدت جفيرى. فإذا هى قد أقبلت. فرميتها، فخرت لفيها، فأدركت، فقورت سرتها ومعرفتها، فقدحت نارى، وجمعت حطبى، ثم دفنتها، ثم أدركنى ما يدرك الشباب من النوم، فما استيقظت إلا بحر الشمس فى ظهرى، ثم كشفت عنها، فإذا لها غطيط من الودك كتداعى طىء وغطيف وغطفان، ثم قمت إلى الرطب وقد ضربه برد السحر، فجنيت المعوة والحلقان، فجعلت أضع الشحمة بين الرطبتين، والرطبة بين الشحمتين، فأظن الشحمة سمنة ثم سلاءة، وأحسبها من حلاوتها شهدة أحدرها من الطود.

وأنا أتهم هذا الحديث، لأن فيه ما لا يجوز أن يتكلم به عربى يعرف مذاهب العرب. وهو من أحاديث الهيثم.

* * *

وقال مدينى لأعرابى: أى شىء تدعون، وأى شىء تأكلون؟ قال: نأكل ما دب ودرج، إلا أم حبين. فقال المدينى: لتهن أم حبين العافية.

* * *

وقال الأصمعى: تعرق أعرابى عظمًا، فلما أراد أن يلقيه، وله بنون ثلاثة. قال له أحدهم: أعطنيه، قال: وما تصنع به؟ قال: أتعرقه حتى لا تجد فيه ذرة مقيلاً. قال: ما قلت شيئًا! قال الثانى: أعطنيه، قال: وما تصنع به؟ قال: أتعرفه

حتى لا يدرى ألعامه ذلك هو أم للعام الذى قبله، قال: ما قلت شيئًا! قال الثالث: أعطنيه، قال: ما تصنع به؟ قال: أجعله مخه إدامه، قال: أنت له!.

وقال آخر:

فإنك لم تشبه لقيطًا وفعله ... وإن كنت أطعمت الأرز مع التمر

وقال آخر:

إذا انقاص منها بعضها لم تجد لها ... رؤبًا لما قد كان منها مدانيا
وإن حاولوا أن يشعبوها رأيتها ... على الشعب لا تزداد إلا تداعيا
معوذة الأرحال لم ترق مرقبًا، ... ولم تمتط الجون الثلاث الأثافيا
ولا اجتزعت من نحو مكة شقة ... إلينا ولا جازت بها العيس واديا
ولكنها فى أصلها موصلية ... مجاورة فيضًا من البحر جاريا
أتتنا تزجيها المجاذيف نحونا ... وتعقب فيما بين ذاك المراديا
فقلت: لمن هذى القدور التى أرى ... تهيل عليها الريح تربًا وسافيا
فقالوا: وهل يخفى على كل ناظر ... قدور رقاش، إن تأمل رائيا؟
فقلت: متى باللحم عهد قدوركم؟ ... فقالوا: إذا ما لم يكن عواريا
من أضحى إلى الأضحى، وإلا فإنها ... تكون بنسج العنكبوت كما هى
فلما استبان الجهد لى فى وجوههم ... وشكواهم أدخلتهم فى عياليا
فكنت إذا ما استشرفونى مقبلاً ... أشاروا جميعًا لجة وتداعيا

* * *

ومما قالوا فى صفة قدورهم وجفانهم وطعامهم ما أنا كاتبه لك. وهم وإن كانوا فى بلاد جدب، فإنهم أحسن الناس حالاً فى الخصب. فلا تظنن أن كل ما يصفون به قدورهم وجفانهم وثريدهم وحيسهم باطل.

وحدثنى الأصمعى قال: سألت المنتجع بن نبهان عن خصب البادية، فقال: ربما رأيت الكلب يتخطى الخلاصة، وهى له معرضة، شبعًا.

وقال الأفوه الأودى:

تهنأ لثعلبة بن قيس جفنة ... يأوى إليها فى الشتاء الجوع
ومذانب لا تستعار وخيمة ... سوداء عيب نسيجها لا يرقع

وكـأنما فـيـهـا المذانب حلقـة ... وذم الـدلاء عـلـى دلـوج تـنـزع

وقال معن بن أوس، وهو يذكر قدر سعيد بن العاص، فى بعض ما يمدحه:

أخـو شـتـوات لا تـزال قـدوره ... يحل علـى أرجـائهـا ثم يرحل
إذا مـا امتطاها الموقـدون رأيتهـا ... لوشك قراها وهى بالجزل تشعل
سمعت لها لغطًا إذا ما تغطمطت ... كهـدر الجمـال رزمًا حين تجـفل
ترى البازل الكوماء فيها بأسرها ... مـقبـضـة فى قعـرها مـا تحلحل
كأن الكهول الشمط فى حجراتها ... تغطرش فى تيـارها حين يحـفل
إذا التطمت أمـواجـهـا فكأنهـا ... غـوائـب دهم فى المحلة قـيّل
إذا احـتـدمت أمـواجـهـا فكأنما ... يزعـزعهـا من شـدة الغلى أفكل
تظل رواسـيـهـا ركـوداً مـقيمـة ... لمن نابه فـيـهـا مـعـاش ومـأكل

وضاف الفرزدق أبا السحماء سحيم بن عامر، أحد بنى عمرو بن مرثد، فأحمده، وذكر فى إحماده قدره، فقال:

سـألنا عن أبى السـحمـاء حـتى ... أتينـا خـيـر مطروق لسـارى
فـقلنا يـا أبا الســحــمـاء إنا ... وجـدنا الأزد أبعـد مـن نزار
فـقـام يجـرّ من عـجل إلـينا ... أسـابـى النعـاس مع الإزار
وقـام إلى سـلافـة مـسلحب ... رثيـم الأنف مـربوب بـقـار
تدور علـيـهم والـقـدر تغـلى ... بأبيض من سـديف الكوم وارى
كـأن تـطلع التـرعـيب فـيـهـا ... عـذارى يـطلعن إلـى عـذارى

وقال الكميت فى صفة القدر:

إوز تغـمـس فى لجـة ... تغـيب مـراراً وتـطفـو مـرارا
كـأن الغطامـط من غليـهـا ... أراجـيـز أسلم تهـجو غـفـارا

وأما ما ذكروا من صفات القدور من تعيير بعضهم بعضًا، فهو كما أنشدنى محمد بن يسير، قال: لما قال الأول:

إن لنا قـدراً ذراعين عـرضهـا ... وللطول منـهـا أذرع وشـبـار

قال الآخر: وما هذه؟ أخزى الله هذه قدراً! ولكنى أقول:

بوأت قدرى للورى فوضعتها ... برابية من بين ميت وأجرع
جعلت لها هضب الرخام وطخفة ... وغولا أثافى دونها لم تنزع
بقدر كأن الليل سحمة قعرها ... ترى الفيل فيها طافيًا لم يقطع
يعجل للأضياف وارى سديفها ... ومن يأتها من سائر الناس يشبع

فقال أبو عبيدة: ولما قال الفرزدق:

وقدر كحيزوم النعامة أحمشت ... بأجذال خشب زال عنها هشيمها

قال ميسرة أبو الدرداء: وما حيزوم النعامة؟ والله ما تشبع هذه الفرزدق. ولكنى أقول:

وقدر كجوف الليل أحمشت غليها ... ترى الفيل فيها طافيًا لم يفصل

وقال عبد الله بن الزبير يمدح أسماء بن خارجة:

ألم تر أن المجد أرسل يبتغى ... حليف صفاء قابلاً لا يزايله
تخير أسماء بن حصن فبطنت ... بفعل العلا إيمانه وشمائله
ترى البازل البختى فوق خوانه ... مقطعة أعضاؤه ومفاصله

ومما يجوز فى هذا الباب، وإن لم يكن فيه صفة قدر، قول الفرزدق فى العذافر بن زيد، أحد بنى تيم اللات بن ثعلبة:

لعمرك ما الأرزاق يوم اكتيالها ... بأكثر خيراً من خوان العذافر
لو ضافه الدجال يلتمس القرى ... وحل على خبازه بالعساكر
بعدة يأجوج ومأجوج جوعًا ... لأشبعهم شهراً غداء العذافر

قال ابن عبدل فى بشر بن مروان بن الحكم:

لو شاء بشر كان من دون بابه ... طماطم سود أو صقالبة حمر
ولكن بشراً أسهل الباب للتى ... يكون لبشر عندها الحمد والأجر
بعيد مراد العين ما رد طرفه ... حذار الغواشى باب دار ولا ستر

وقالوا فى مناقضات أشعارهم فى القدور، قال الرقاشى:

لنا من عطاء الله دهماء جونة — تناول بعد الأقربين الأقاصيا
جعلنا ألالاً والرجام وطخفة — لها فاستقلت فوقهن أثافيا
مؤدية عنا حقوق محمد — إذا ما أتانا بائس الحال طاويا
أتى ابن يسير كى ينفس كربه — إذا لم يرح وافى مع الصبح غاديا

فأجابه ابن يسير فقال:

وثرماء ثلماء النواحى ولا يرى — بها أحد عيباً سوى ذاك باديا
ينادى ببعض بعضهم عند طلعتى — ألا ابشروا هذا البسيرى جائيا

وقال ابن يسير فى ذلك:

قدر الرقاشى لم تنقر بمنقار — مثل القدور ولم تفتص من غار
لكن قدر أبى حفص إذا نسيت — يوماً ربيبة آجام وأنهار

فاعترض بينهما أبو نواس الحسن بن هانئ الحكمى، يذكر قدر الرقاشى بالهجاء أيضاً، فقال:

ودهماء تثفيها رقاش إذا شتت — مركبة الآذان أم عيال
يغص بحيزوم البعوضة صدرها — وتنزلها عفواً بغير جعال
ولو جئتها ملأى عبيطاً مجزلا — لأخرجت ما فيها بعود خلال
هى القدر قدر الشيخ بكر بن وائل — ربيع اليتامى عام كل هزال

وقال فيها أيضاً:

رأيت قدور الناس سودا على الصلى — وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
ولو جئتها ملأى عبيطاً مجزلا — لأخرجت ما فيها على طرف الظفر
يبينها للمعتفى بفنائهم — ثلاث كحظ الثاء من نقط الحبر
تبين فى محرائها أن عوده — سليم صحيح لم يصبه أذى الجمر
تروح على حى الرباب ودارم — وسعد وتعروها قراضبة الفزر
وللحى عمرو نفحة من سجالها — وتغلب والبيض اللهاميم من بكر
إذا ما تنادوا بالرحيل سعى بها — إمامهم الحولى من ولد الذر

وقال بعض التميميين وهو يهجو ابن حبار:

لو أن قدراً بكت من طول ما حبست على الجفوف بكت قدر ابن حبار
ما مسها دسم مذ فض معدنها ولا رأت بعد نار القين من نار

والشعوبية والأزاد مردية، المبغضون لآل النبى وأصحابه، ممن فتح الفتوح، وقتل المجوس، وجاء بالإسلام، تزيد فى جشوبة عيشهم، وخشونة ملبسهم، وتنقص من نعيمهم، ورفاهة عيشهم. وهم من أحسن الأمم حالاً مع الغيث، وأسوأهم حالاً إذا خفت السحاب، حتى ربما طبق الغيث الأرض بالكلأ والماء فعند ذلك يقول المصرم والمقتر: مرعى ولا أكولة، وعشب ولا بعير، وكلأ تبجع له كبد المصرم.

ولذلك قال شاعرهم:

وجنبت الجيوش أبا زينب وجاد على مسارحك السحاب

* * *

وإذا نظرت فى أشعارهم، علمت أنهم قد أكلوا الطيب وعرفوه، لأن الناعم من الطعام لا يكون إلا عند أهل الثراء وأصحاب العيش. فقال زياد بن فياض يذكر قيس الدرمك، وهو الحوارى:

ولاقت فتى قيس بن عيلان ماجدا إذا الحرب هرتها الكماة الفوارس
فقام إلى البرك الهجان بسيفه وطارت حذار السيف دهم قناعس
فصادف حد السيف قباء جلعدا فكاست، وفيها ذو غرارين نائس
فأطعمها شحمًا ولحمًا ودرمكًا ولم تثننا عنه الليالى الحنادس

وقال:

تظل فى درمك وفاكهة وفى شواء ما شئت أو مرقه

وقال جرير:

تكلفنى معيشة آل زيد ومن لى بالمرقق والصناب

وقال النمر بن تولب:

لها ما تشتهى، عسل مصفى　　　وإن شاء فحوارى بسمن

ومن أشرف ما عرفوه من الطعام -ولم يطعم الناس أحد منهم ذلك الطعام إلا عبد الله بن جدعان- وهو الفالوذق. مدحه بذلك أمية بن أبى الصلت، فقال:

إلى ردح من الشيزى عليها　　　لباب البر يلبك بالشهاد

ولهم الثريد، وهو فى أشرافهم عام. وغلب عليه هاشم حين هشم الخبز لقومه. وقد مدح به شعر مشهور، وهو قوله:

عمرو العلا هشم الثرى لقومه　　　ورجال مكة مسنتون عجاف

ومن الطعام الممدوح الحيس. وتزعم مخزوم أن أول من حاس الحيس سويد ابن هرمى. وقال الشاعر:

وإذا تكون شديدة ادعى لها　　　وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

والخبز عندهم ممدوح. وكان عبد الله بن حبيب العنبرى أحد بنى سمرة، يقال له: آكل الخبز، لأنه كان لا يأكل التمر، ولا يرغب فى اللبن. وكان سيد بنى العنبر فى زمانه. وهم إذا فخروا قالوا: منا آكل الخبز، ومنا مجير الطير، يعنى ثوب بن شحمة العنبرى:

وهم يقدمون اللحم على التمر، ألا تراه يقول:

قرتنى عبيد تمرها وقريتها　　　سنام مصراة قليل ركوبها
فهل يستوى شحم السنام إذا شتا　　　وتمر جواثا حين يلقى عسيبها

وليس يكون فوق عقر الإبل وإطعام السنام شيء. والعقر هو النجدة، واللبن هو الرسل.

وقال الهذلى:

لو أن عندى من قريم رجلاً　　　لمنعونى نجدة أو رسلاً

ألا أن خير الناس رسلاً ونجدة

وقال المرار بن سعيد الفقعسى:

لهم إبل لا من ديات ولم تكن　　　مهوراً ولا من مكسب غير طائل

ولكن حـماها من شـماطيط غـارة حـلال العوالى فـارس غـير مـائل
مـخـيسـة فى كـل رسل ونجـدة ومـعـروفـة ألوانهـا فى المـعـاقل

وقد وصفوا الثريد، فقال الراعى:

فبات بعـد النجم من مـستـحيـرة سريع على أيدى الرجـال جمودها

وقال حسان بن ثابت:

ثريد كـأن السـمن فى حـجـراته نجـوم الثريا أو عـيـون الضـيـاون

وقال ابن هرمة:

إلـى أن أتاهـم بشـيـزيـه تعن كـواكـبـهـا الشـبك

وقال كامل بن عكرمة:

فـقـرب بينهم خـبـزاً وكـومًا كـسـاها الشـحم ينهمر انهـمـاراً
يدف بهـا غـلامـاه جـمـيـعـا تردهمـا إلى الأرض انهـصـارا
فـأصبح سـورهم فـيـهـا وعلمى لو أن العـلم صنفـهـا إسـاراً

فهذا فى صفة الثريد.

وقال بشر بن أبى خازم:

ترى ودك السـديف على لحـاهم كلـون الرار لبـده الصـقـيع

وقال الآخر:

جلا الأذفر الأحـوى من المسك فرقه وطيب الـدهان رأسـه فـهـو أنزع
إذا النفـر السـود اليـمـانون حـاولوا له حـوك برديه أرقـوا وأوسـعـوا

وقال الزبير بن عبد المطلب:

فـإنا قـد خلقنـا إذ خلقـنا لنا الحـبـرات والمسك الفـتـيت
ولولا الحـمس لم يلبس رجـال ثيـاب أعـزة حـتى يمـوتوا
ثيـابهم شـمـال أو عـبـاء بهـا دنس كـما دنس الحـمـيت

فميز -كما ترى- بين لباس الأشراف وأهل الثروة وغيرهم.

وقال الأعشى:

للشرف العود فأكنافه ... ما بين حمران فينصوب
خير لها أن خشيت جحره ... من ربها زيد بن أيوب
متكئًا تقرع أبوابه ... يسعى عليه العبد بالكوب

وقال أبو الصلت بن ربيعة:

اشرب هنيئًا عليك التاج مرتفقًا ... فى رأس غمدان دارًا منك محلالاً

وليس هذا من باب الإفراط. وباب الإفراط كقول جران العود، حين وصف نفسه وعشيقته فقال:

فأصبح من حيث التقينا غدية ... سوار وخلخال ومرط ومطرف
ومنقطعات من عقود تركنها ... كجمر الغضا فى بعض ما تتخطرف

ومن ذلك قول عدى بن زيد:

يا لبينى أوقدى النار ... إن من تهوين قد حارا
رب نار بت أرقبها ... تقضم الهندى والغارا

وقال الآخر:

أرى فى الهوى نارًا لظبية أوقدت ... يشب ويذكى بعد وهن وقودها
تشب بعيدان اليلنجوج موهنا ... وبالرند أحيانا، فذاك وقودها

* * *

قد ذكرنا الطعام الممدوح ما هو، وذكرنا أحد صنفى الطعام المذموم. والصنف الآخر كالخزيرة التى تعاب بها مجاشع بن دارم وكنحو السخينة التى تعاب بها قريش.

وقال خداش بن زهير:

يا شدة ما شددنا غير كاذبة ... على سخينة لولا الليل ؛ ـرم

وقال عبد الله بن همام:

إذا لضـربتـهـم حـتى يعـودوا   بمكة يلعـقـون بهـا السـخـينا

وقال جرير:

وضع الخزير فقيل: أين مجاشع   فـشحـا جـحـافله هجف هبلع

والخـزير لم يكن من طعامـهم. وله حـديث. والسخـينة كانت من طعـام قريش.

وتهجى الأنصـار وعبد القـيس وعذرة، وكل من كان بـقرب النخل، بأكل التمر. فقال الفرزدق:

لست بسـعدي على فـيه حـبرة   ولست بعـبدى حقـيبـته التـمر

وتهجى أسـد بأكل الكلاب، وبأكل لحوم الناس والعرب إذا وجـدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحًا، ألزمت ذلك القبيلة كلها كما تمدح القبيلة بفعل الجميل، وإن لم يكن ذلك إلا بواحد منها، فتـهجو قريشًا بالسخينة، وعبـد القيس بالتمر، وذلك عام فى الحيين جميعًا. وهما من صالح الأغذية والأقوات. كما تهجو بأكل الكلاب والنـاس، وإن كـان ذلك إنما كـــان من رجل واحـد، فـلعلك إذا أردت التحصيل تجده معذورًا. قال الشاعر:

يا فـقـعـسى لم أكلـتـه لمه   لو خـافك الله عليـه حـرمـه

فـمـا أكلت لحـمـه ولا دمـه

وقال فى ذلك مساور بن هند:

إذا أسـديـة ولدت غـلامـا   فـبـشـرهـا بلؤم فى الغـلام
تخـرسـهـا نسـاء بنى دبـيـر   بأخـبث مـا يجـدن من الطعـام
ترى أظفـار أعـقـد ملقـيـات   براثنـهـا عـلى وضم الثـمـام

وقال:

بنى أسد أن يمحل العـام فقعس   فهـذا إذا دهر الكلاب وعامـها

وقال الفرزدق:

إذا أسـدى جـاع يومًا بـبلدة   وكـان سـمينًا كلـبه فـهـو آكله

وتهجى أسد وهذيل والعنبر وباهلة بأكل لحوم الناس.

وقال الشاعر فى هذيل:

وأنتم أكلتم سـحفة ابن مـحدم زباب فـمـا يأمنـكم أحـد بعـد
تداعوا له من بين خمس وأربع وقد نصل الأظفار وانسبأ الجلد
ورفـعــتم جـردانه لرئيـسكم معاوية الفلحـاء يا لك ما شكد

وقال حسان فيهم:

إن سرك الغدر صـرفًا لا مزاج له فائت الرجيع وسل عن دار لحيان
قـوم تواصـوا بأكل الجـار بينهم فالشـاة والكلب والإنسان سـيان

وهجا شاعر بالعنبر، وهو يريد ثوب بن شحمة، وفيه حديث:

عــجلتم مــا صــدكم عــلاج من الـعنـوق ومن الـنعـــاج
حــتى أكلتـم طفلة كــالعــاج

ولما عـير ثوب بن شـحمـة بأكل الفتى لحم المرأة إلى أن نزل هو من الجـبل فقال:

يا بنت عمى ما أدراك ما حسبى إذ لا تجن خبيث الزاد أضلاعى
إنى لذو مــرة تـخــشى بوادره عند الصباح بنصل السيف قرّاع

فهجا ثوب بن شـحمة بأكل لحوم امرأة، وكان ثوب هذا أكـرم نفسًا عندهم من أن يطعم طعامًا خبيثًا، ولو مـات عندهم جوعًا، وله قصص، ولقد أسر حاتمًا الطائى، وظل عنده زمانًا.

وقال الشاعر يهجو باهلة بمثل ذلك:

إن غــفـــاقًــا أكـلتــه بـاهله تمشــشــوا عظامــه وكــاهله
وأصبــحت أم غـفــاق ثاكله

وهجيت بذلك أسد جـميعًا، بسبب رملة بنت فائد بن حـبيب بن خالد بن نضلة، حين أكلها زوجها وأخوها أبو أرب. وقد زعموا أن ذاك إنما كان منهما من طريق الغيظ والغيرة.

فقال ابن دارة يعنى ذلك عليهم:

أفى أن رويتم واحتلبتم شكيكم فخرتم، وفيم الفقعسى من الفخر
ورملة كانت زوجة لفريقكم وأخت فريق وهى مخزية الذكر
أبا أرب كيف القرابة بينكم وإخوانكم من لحم أكفالها عجر

وقال:

عدمت نساء بعد رملة فائد بنى فقعس تأتيكم بأمان
وباتت عروسًا ثم أصبح لحمها جلا فى قدور بينكم وجفان

وقال البراء بن ربعى، أخو مضرس بن ربعى يعير صلتًا -وهو أخوه- فقال:

يا صلت إن محل بيستك منتن فارحل فإن العود غير صليب
وإذا دعاك إلى المعاقل فائد فاذكر مكان صدارها المسلوب
والآن فادع أبا رجال، إنها شنعاء لاحقة بأم حبيب

وأبو رجال هذا عمها.

وقال فى ذلك معروف الدبيرى:

إذا ما ضفت ليلاً فقعسيًا فلا تطعم له أبدًا طعامًا
فإن اللحم إنسان فدعه وخير الزاد ما منع الحراما

* * *

وهذا الباب يكثر ويطول. وفيما ذكرنا دليل على ما قصدنا إليه من تصنيف الحالات فإن أردته مجموعًا فاطلبه في (كتاب الشعوبية)، فإنه هناك مستقصى.

* * *

والأعرابى إذا أراد القرى ولم ير النار نبح، فيجاوبه الكلب، فيتبع صوته: ولذلك قال الشاعر:

ومستنبح أهل الثرا يطلب القرى إلينا وممساه من الأرض نازح

وقال الآخر:

عوى حدس والليل مستحلس الندى لمستنبح بين الرميثة والحضر

ويدلك على أنه ينبح وهو على راحلته لينبحه الكلب، قول حميد الأرقط:

وعاو عوى والليل مستحلس الندى وقد ضجعت للغور تالية النجم

فمنهم من يبرز كلبه ليجيب، ومنهم من يمنعه ذلك. قال زياد الأعجم، وهو يهجو بني عجل:

وتكعم كلب الحي من خشية القرى وقدرك كالعذراء من دونها ستر

وقال آخر:

نزلنا بعمار فأشلى كلابه علينا فكدنا بين بيتيه نؤكل

فقلت لأصحابي أسر إليهم: إذا اليوم أم يوم القيامة أطول

وقال آخر:

أعددت للضيفان كلبًا ضاريا عندي وفضل هراوة من أرزن

وقال أعشى بني تغلب:

إذا حلت معاوية بن عمرو على الأطواء خنقت الكلابا

وأنشدني ابن الأعرابي، وزعم أنه من قول المجنون:

ونار قد رفعت لغير خير رجاء أن تأوبني الرعاء

تأوبني طويل الشخص منهم يجر ثقاله يرجو العشاء

فكان عشاؤه عندي خزير بتمر جشيشة فيه النواء

وقال في خلاف ذلك حسان بن ثابت:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقال المرار الحماني في كلبه:

ألف الناس فما ينبحهم من أسيف يبتغي الخير وحر

وقال عمران بن عصام:

لعبد العزيز على قومه وغيرهم منن غامرة
فبابك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالمعتفين من الأم بابنتها الزائرة
وكفك حين ترى السائلين أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومنا الثناء بكل محبرة سائرة

وفى أنس الكلاب بالناس لطول الرؤية لهم شعر كثير: وقال الشاعر:

يا أم عمرو أنجزى الموعودا وارعى بذاك أمانة وعهودا
ولقد طرقت كلاب أهلك بالضحى حتى تركت عقورهن رقودا
يضربن بالأذناب من فرح بنا متوسدات أذرعا وخدوداً

وقال ذو الرمة:

رأتنى كلاب الحى ألفننى ومدت نسوج العنكبوت على رحلى

وقال الآخر:

بات الحويرث والكلاب تشمه وسرت بأبيض كالهلال على الطوى

هذا البيت يدخل فى هذا الباب.

وقال الآخر:

لو كنت أحمل خمراً يوم زرتكم لم ينكر الكلب أنى صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك تفعمنى والعنبر الورد أذكيه على النار
فأنكر الكلب ريحى حين أبصرنى وكان يعرف ريح الزق والقار

وقال هلال بن خثعم:

إنى لعف عن زيارة جارتى وإنى لمشنوء إلى اغتيابها
إذا غاب عنها بعلها لم أكن لها زؤوراً ولم تأنس إلى كلابها
وما أنا بالدارى أحاديث بيتها ولا عالم من أى حوك ثيابها

وقال ابن هرمة فى فرح الكلب بالضيف لعادة النحر:

وفرحة من كلاب الحى يتبعها محض يزف به الراعى وترعيب

وقال ابن هرمة:

ومستنبح نبهت كلبي لصوته ... فقلت له: قم باليفاع فجاوب
فجاء خفي الشخص قد رامه الطوى ... بضربة مفتوق الغرارين قاضب
فرحبت واستبشرت حين رأيته ... وتلك التي ألقى بها كل نائب

وفي منع الكلب من النباح يقول ابن أعيا في الحطيئة:

ألا قبح الله الحطيئة إنه ... على كل ضيف ضافه فهو سالح
دفعت إليه وهو يخنق كلبه ... ألا كل كلب - لا أبًا لك! نابح
بكيت على مذق خبيث قريته ... ألا كل عبسى على الزاد نائح

* * *

وقد قالوا في صفة أبواب أهل المقدرة والثروة، إذا كانوا يقومون بحق النعمة. قال الراجز:

إن الندى حيث ترى الضغاطا

وقال الآخر:

يزدحم الناس على بابه ... والمشرع السهل كثير الزحام

وقال الآخر:

وإذا افتقرت رأيت بابك خاليا ... وترى الغني يهدى لك الزوارا

وليس هذا من الأول، إنما هذا مثل قوله:

ألم تر بيت الفقر يهجر أهله ... وبيت الغنى يهدى له ويزار

وهذا مثل قوله:

إذا ما قل مالك كنت فردًا ... وأى الناس زوار المقل

* * *

والعرب تفضل الرجل الكسوب، والغرب الطلوب، ويذمون المقيم الفشل، والدثر والكسلان. ولذلك قال شاعرهم وهو يمدح رجلاً:

شتى مطالبه، بعيد همه		جواب أودية، برود المضجع

ومدح آخر نفسه فقال:

فإن تأتياني في الشتاء وتلمسا		مكان فراشي هو بالليل بارد

وقال الآخر:

إلى ملك لا ينقض النأي عزمه		خروج تروك للفراش الممهد

وقال الآخر:

فذاك قصير الهم يملأ عينه		من النوم إذ ملقى فراشك بارد

وقال الآخر:

أبيض بسام برود مضجعه		اللقمة الفرد مرارًا تشبعه

* * *

وهم يمدحون أصحاب النيران، ويذمون أصحاب الإخماد.

قال الشاعر:

له نار تشب بكل ريح		إذا الظلماء جللت اليفاعا
وما أن كان أكثرهم سوامًا		ولكن كان أرحبهم ذراعا

وقال مزرد بن ضرار:

فأبصر ناري وهي شقراء أوقدت		بعلياء نشز للعيون النواظر

جعلها شقراء، ليكون أضوأ لها. وكذلك النار إذا كان حطبها يابسًا كان أشد لحمرة ناره، وإذا كثر دخانه قل ضوءه.

وقال الآخر:

ونار كسحر العود يرفع ضوءها		مع الليل هبات الرياح الصوارد

وكلما كان موضع النار أشد ارتفاعًا، كان صاحبها أجود وأمجد، لكثرة من يراها من البعد، ألا ترى النابغة الجعدي حين يقول:

مع الغدر فلم أهمم به		وأخو الغدر إذا هم فعل

خشية الله وأنى رجل إنما ذكرى كنار بقبل

وقالت خنساء السلمية:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

* * *

وليس يمنعنى من تفسير كل ما يمر إلا اتكالى على معرفتك. وليس هذا الكتاب نفعه إلا لمن روى الشعر والكلام، وذهب مذاهب القوم، أو يكون قد شدا منه شدوًا حسنًا.

ومما يدل على كرم القوم أيمانهم الكريمة، وأقسامهم الشريفة. قال معدان بن جواس الكندى:

إن كان ما بلغت عنى فلامنى صديقى وحزت من يدى الأنامل
وكفنت وحدى منذراً فى ردائه وصادف حوطًا من أعادى قاتل

وقال الأشتر، مالك بن الحارث فى مثل ذلك أيضًا:

بقيت وحدى وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافى بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارة لم تخل يومًا من نهاب نفوس
خيلاً كأمثال السعالى شربًا تعدو ببيض فى الكريهة شوس
حمى الحديد عليهم فكأنه لمعان برق أو شعاع شموس

وقال ابن سيحان:

حرام كنتى منى بسوء وأذكر صاحبى أبداً بذام
لقد أحرمت ود بنى مطيع حرام الدهن للرجل الحرام
وخزهم الذى لم يشتروه ومجلسهم بمعتلج الظلام
وإن جنف الزمان مددت حبلاً متينًا من حبال بنى هشام
وريق عودهم أبداً رطيب إذا ما اغبر عيدان اللئام

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

مكتبة
التوفيقية
مكتبة
التوفيقية

مكتبة
التوفيقية
مكتبة
التوفيقية


Bibliotheca Alexandrina
0667581
